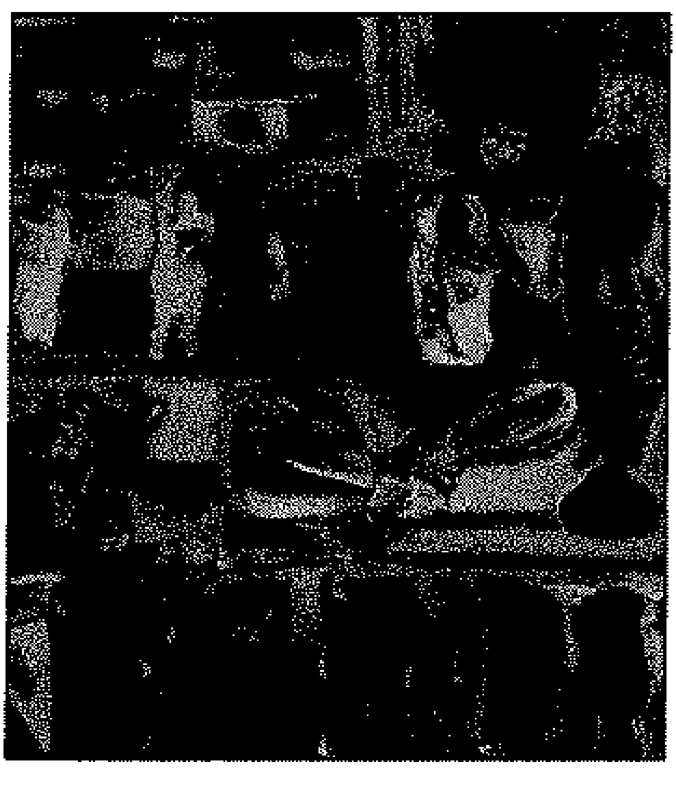
أمين معلوف

سلالم الشرق

رواية



ترجمة:
منيرة مصطفى

مراجعة:
د. حسان عباس

طبعة ثانية

سلالم الشرق

• أمين معلوف
• سلالم الشرق
• ترجمة منيرة مصطفى
• المراجعة عن الأصل: د. حسّان عبّاس
• طبعة ثانية منقّحة 1998
• الناشــــــــر : ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريــة ـ دمشق ☎ 3321053
• الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
• الإشــراف الفني : د. مجد حيدر
• لوحـــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
• الإخــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
• التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 3321053
دار الحصاد: هاتف/فاكس 2126326

أمين معلوف

سلالم الشرق

رواية

ترجمة: منيرة مصطفى

المراجعة عن الأصل: د. حسّان عبّاس

عنوان الكتاب الأصلي:

Les Échelles du Levant

تنويه

يحتمل عنوان الرواية الأصلي، عدة ترجمات مقبولة: «أساكل المشرق» أو «مدن المشرق البحرية» أو «ثغور المشرق» أو «بوابات المشرق» أو «موانئ المشرق»... إلخ. لكننا آثرنا الإبقاء على عنوان «سلالم الشرق» الذي قد لا يكون أكثر الإمكانات جمالاً ودقة، لكنه يفي بالغرض، وكذلك تجنباً لإصدار الرواية في طبعتها الثانية المنقحة بعنوان مختلف عن عنوان طبعتها الأولى.

إلى أوديل كيل

هذه القصة لا تخصني، فهي تروي حياة إنسان آخر، بكلماته الخاصة التي قمت بترتيبها فقط، عندما بدا لي أنها تفتقر إلى الوضوح أو الترابط، وحقائقه الخاصة التي تساوي ما تساويه كل الحقائق.

أكان يكذب عليّ أحياناً؟ أجهل ذلك. لكنه أبداً لم يكذب فيما رواه عن المرأة التي أحب. لم يكذب فيما رواه عن لقاءاتهما وجنونهما ومعتقداتهما وخيباتهما، وعندي الدليل على ذلك. أما فيما يخص دوافعه الخاصة بكل مرحلة من مراحل حياته، وما رواه عن أسرته الغريبة، وذلك المد والجزر الغريبين في عقله ـ أقصد ذاك التوسان المستمر من الجنون إلى الحكمة، ومن الحكمة إلى الجنون ـ فربما لم يقل لي كل شيء، ومع ذلك أعتقد أنه كان صافي السريرة. كان بلا شك، مضطرب الذاكرة والمحاكمة العقلية، هذا لا أعارضه لكنه كان دائماً حسن النية.

التقيته بمحض المصادفة في باريس، في إحدى حافلات المترو في حزيران من عام 1976 . أتذكر أنني همست «إنه هو»، وما احتجت إلا لبضع ثوان فقط كي أتذكره.

لم أكن قد التقيته سابقاً ولا سمعت باسمه، بل رأيت صورة له في أحد الكتب منذ سنين طويلة. لم يكن رجلاً مشهوراً، أو ربما كان كذلك بمعنى ما، بما أن صورته كانت

موجودة في أحد كتب التاريخ المدرسية، لكنها لم تكن صورة لشخصية مشهورة كتب الإسم تحتها، بل صورة لجمهرة من الناس تصطف على رصيف ميناء، وفي العمق باخرة تملأ الأفق، تاركة قطعة من السماء. وتحتها تعليق يقول بأن عدداً من رجال البلد القديم ذهبوا خلال الحرب العالمية الثانية لكي يقاتلوا في أوروبا ضمن صفوف المقاومة، وبأنهم استقبلوا لدى عودتهم كأبطال.

وسط ذلك الحشد من الناس المصطفين على الرصيف، ظهر رأس شاب مندهش ذو شعر فاتح اللون، تقاسيم وجهه ناعمة وطفولية بعض الشيء يمد عنقه جانباً، كما لو أنه تلقى للتو ذلك الإكليل الذي يزينه.

لَكَمْ من الساعات أمضيت في تأمل تلك الصورة! درسنا في المدرسة ولأربعة صفوف متوالية في كتاب التاريخ نفسه، حيث درسنا في كل سنة مرحلة من مراحل التاريخ: بدأنا بأمجاد العصور القديمة والمدن الفينيقية، إلى فتوحات الاسكندر، ثم الرومان والبيزنطيين والعرب والصليبيين والمماليك، فالقرون الأربعة من السيطرة العثمانية، ولننتهي بالحربين العالميتين والانتداب الفرنسي، ومن ثم الاستقلال... كنت مهووساً بالتاريخ، لذا لم أكن صبوراً كفاية لأنتظر البرنامج الدراسي المقرر، فقرأت ومنذ الأسابيع الأولى الكتاب كله. ولم أتعب من القراءة وإعادة القراءة، لدرجة أن الصفحات باتت، الواحدة تلو الأخرى، مطوية ومستهلكة ومقطعة الزوايا ومخططة، تلطخها خربشات وملاحظات واعتراضات هي بمثابة تعليقات، ولم يبق من المؤلَّف في النهاية سوى كُبّة بائسة من الأوراق الممزقة.

كل ذلك لكي أقول إنه كان لدي متسع من الوقت لتفحص تلك الصورة وحفظ كل تفاصيلها. ما الذي جذبني إليها؟ مما لاشك فيه أن ذلك المستطيل بلونيه الأبيض والأسود، والذي لايزيد حجمه عن حجم كف يدي، كان يحوي كل ما كنت أحلم به في ذاك العمر: السفر بحراً والمغامرة والتفاني اللامحدود والنصر، وأكثر من كل ذلك تلك الشابات اللواتي يدرن رؤوسهن تجاه الإله المنتصر...

أما الآن، فالإله هنا أمامي في باريس، يقف في المترو متمسكاً بعمود معدني، مجهول الهوية ومحاطاً بحشد من المجهولين. لكن كانت هناك دائماً تلك النظرة المندهشة، وتلك القسمات الناعمة لطفل كبير، وذلك الرأس ذو الشعر الفاتح الذي صار اليوم أبيض، وربما كان سابقاً أشقرَ. ومازال عنقه يشرئب جانبياً فكيف لا أعرفه؟

عندما وصل إلى المحطة المقصودة، أسرعت الخطى وراءه. كان لدي موعد هذا اليوم، إلا أنني حسمت أمري فالشخص الذي علي رؤيته، يمكنني الاتصال به بعد الظهر أو في الغد، أما هو فكنت مقتنعاً بأنني إن أضعت أثره لن أراه أبداً.

قبل خروجه إلى الشارع توقف أمام مخطط الحي، اقترب منه حتى أصبح أمامه مباشرة، ثم تراجع مقدراً المسافة المناسبة. تخونه عيناه. إنها فرصتي، فاقتربت منه.

ـ ربما أستطيع مساعدتك...

تكلمت بلكنة البلد القديم التي ميزها من خلال كلمتين أو ثلاث من كلمات الاستقبال، مع ابتسامة عطوفة رد عليها بتعابير دهشة كبيرة ارتسمت على وجهه. ثم رأيت تعابير عدم

الثقة والحذر ولا أعتقد أني أخطأت. نعم، بعض الحذر، ونوع من الذعر الخجول لرجل يقول في نفسه ربما هناك من يتبعني، لكنه ليس واثقاً من ذلك، وهو يكره الظهور بمظهر الفظ الخشن بدون سبب.

ـ أبحث عن شارع قريب جداً، اسم الشارع هوبيرهوغ / Hubert.Hughes /

لم أتأخر في اكتشاف موقعه.

ـ ها هو، لقد كتبوا تماماً (هـ. هوغ)/H.Hughes/. بشكل غير مقروء...

ـ شكراً للطفك! شكراً لأنك ألقيت اللوم على واضعي المخطط بدلاً من عينيَّ الهرمتين.

كان يتحدث بتمهل عذب، كما لو كان عليه أن ينفض الغبار عن كل كلمة قبل نطقها. لكن جمله كانت دائماً صحيحة ومنمقة، دون إسقاطات أو تناقضات أو استخدام تعابير عامية. وفي بعض الأحيان كانت بالية وقديمة، كما لو أنه كان يتحدث غالباً إلى الكتب أكثر مما يتحدث إلى نظرائه.

ـ كنت في الماضي أتبع غريزتي دون استخدام مخطط أو خريطة.

ـ ليس الشارع ببعيد، أستطيع إيصالك، فأنا أعرف الحي.

رجاني ألا أفعل، إلا أن ذلك كان مجرد لطف. لكنني اصررت وخلال ثلاث دقائق وصلنا. توقف عند زاوية الشارع وجال فيه بعينيه ببطء قبل أن يقول ببعض الازدراء:

ـ إنه شارع صغير، صغير جداً، لكنه شارع بالنتيجة.

سذاجة هذه الملاحظة جعلته يبدو طريفاً في نظري بعض الشيء.

ـ عن أي رقم تبحث؟

مددت له يد العون بشكل لا يضايقه لكنه لم يشأ تقبلها.

ـ ليس هناك رقم محدد، أتيت فقط لأرى الشارع، السير فيه حتى نهايته ومن ثم العودة على الرصيف المقابل لكني لا أريد أن أضيع وقتك، يمكنك الانصراف إلى أعمالك، شكراً لأنك رافقتني إلى هنا.

بالنظر إلى حيث وصلت لم أكن اريد الانصراف هكذا، فأنا بحاجة لأن أفهم. فما أظهرته تلك الشخصية من غرابة لم يقلل من فضولي، لذا قررت تجاهل ما قاله أخيراً وكأنه لم يكن سوى نوع من أنواع اللطف الإضافية.

ـ لديك ذكريات في هذا الشارع!

ـ لا لم آت إلى هنا ابداً.

عدنا نمشي من جديد جنباً إلى جنب، مراقباً إياه بنظرات خاطفة متتالية، بينما كان يبدي إعجابه بالأبنية، رافعاً رأسه إلى أعلى.

ـ تماثيل كرياتيد(*)، فن صلب ومطمئن، شارع برجوازي جميل، ضيق قليلاً... لا شكّ أن الطوابق السفلية داكنة اللون، ماعدا هناك ربما، بمحاذاة الجادة.

ـ أنت مهندس معماري!

(*) Cariatide تماثيل لامرأة، توضع بدل الأعمدة في الشوارع.

اندفعت جملتي كحل لأحجية، مع لمسة تساؤلية خفيفة، حتى لا أوحي بالكثير من الحميمية.

ـ لا أبداً.

ـ كنا في نهاية الشارع تقريباً، عندما توقف فجأة رفع عينيه ليقرأ ما كتب على اللوحة الزرقاء والبيضاء، ثم أخفضهما كأنه في حالة تأمل. تأرجحت يداه على طول جسده، لتعودا إلى الأمام وتتشابك أصابعهما بشكل مثير كما لو أنها تتحضر للإمساك بقبعة وهمية.

فوقفت خلفه مباشرة.

شارع هوبيرهوغ Hubert.Hughes

من رجال المقاومة

1944 - 1919

انتظرته حتى استرخى تماماً واستدار نحوي لأسأله بصوت خجول وكأننا نهمس في جنازة:

ـ هل عرفته؟

ـ أجابني وبالأسلوب ذاته:

ـ اسمه لايعني لي شيئاً.

أخرج من جيبه مفكرة دونَ أن يعير أي انتباه لارتباكي، ودوّن بعض الملاحظات قبل أن يقول لي:

ـ أكدّوا لي أنه يوجد في باريس تسعة وثلاثون شارعاً أو جادة أو ساحة تحمل أسماء مقاومين. زرت منها واحداً وعشرين قبل هذا، وبقي لي سبعة عشر أو ستة عشر إذا أخذت

بالحسبان ساحة شارل ديغول التي اجتزتها فيما مضى عندما كانت تدعى ساحة النجمة...

ـ وهل تنوي زيارتها كلها؟

ـ خلال أربعة أيام، أمامي متسع من الوقت.

لِمَ أربعة أيام؟ لم أر إلّا تفسيراً واحداً لذلك:

ـ ستعود بعدها إلى موطنك؟

ـ لا أعتقد ذلك.

وفجأة بدا كأنه سرح بأفكاره بعيداً عني وعن شارع هوبيرهوغ. هل أخطأت بذكر الوطن والعودة؟ ربما يكون استحضار هذه الأيام الأربعة قد وضعه في حالة من التأمل.

لم أكن أستطيع التوغل عميقاً في روحه، فقررت تغيير الحديث.

ـ لاتعرف شارع هوبير هوغ، ولكن من المؤكد أن اهتمامك بالمقاومة ليس مجرد مصادفة.

كان يسرح بعيداً واحتاج وقتاً للإجابة قبل أن يعود إلى الواقع.

ـ ماذا قلت؟

أعدت ملاحظتي.

ـ هذا صحيح، لقد أتيت إلى فرنسا أثناء الحرب لكي أتابع دراستي، وعرفت آنذاك رجالاً من المقاومة.

كدت أتكلم عن الصورة وعن موجز التاريخ خاصتي. لكني صرفت النظر عن ذلك سريعاً، إذ لو فعلت لفهم أني أتبعه

بشكل مقصود، وربما افترض بأنني أراقبه منذ أيام، وأني أضمر الشر له. لذا كان من الأفضل التظاهر بالجهل.

ـ لابدّ أنك فقدت أصدقاء لك خلال تلك السنين.

ـ بعضهم، في الواقع.

ـ وأنت، ألم تحمل السلاح أيضاً؟

ـ لا.

ـ فضلت الاهتمام بدراستك؟

ـ ليس تماماً... فقد وجدت نفسي في المقاومة السرّية مثل الناس كلهم.

ـ لم يلتحق الناس جميعهم برجال المقاومة في ذلك العصر، تبدو لي أنك تتواضع كثيراً.

اعتقدت بأنه سيستنكر، ولكنه لم يقل شيئاً، لذلك كررت ما قلته: «تبدو لي حقاً جمّ التواضع!». قلت ذلك بنبرة فرحة توحي بأن ماقلته كان نتيجة أكثر منه تساؤلاً. كانت تلك خدعة صحفية قديمة فعّالة لأنه أصبح ثرثاراً بشكل مفاجئ، وإن بقيت جمله بطيئة فإن الحماس ما كان ينقصها.

ـ لم أقل لك سوى الحقيقة! التحقت بالمقاومة مثل الآلاف غيري،ولم أكن أكثرهم شباباً ولا أكبرهم عمراً، كذلك لم أكن أكثرهم جبناً ولا أكثرهم بطولة، وليست لي أية مأثرة تستحق التمجيد.

بكلمات وحركات أنيقة بعض الشيء، توصل لأن يظهر نفسه مغتاظاً دون أن يبدي أية عداوة للمحاور الذي أمامه، والذي هو أنا.

ـ ماذا كنت تدرس وقتها؟

ـ الطب.

ـ أعتقد أنك أتممتها بعد الحرب.

ـ لا.

كان نفيه جافاً. لا شك أني صدمت شيئاً في نفس ذلك الرجل. عاد إلى أفكاره قبل أن يقول لي:

ـ لابدّ أن لديك الكثير من العمل، لا أريد أن أضيّع وقتك.

حاول صرفي بكل لطف. يبدو أني لمست حقاً نقطة مؤلمة، ومع ذلك لم أتراجع.

ـ لدي منذ ثلاث سنوات شغف حقيقي بذلك العصر، بالحرب والمقاومة. قرأت عشرات الكتب عن هذا الموضوع. كيف أعبّر لك عن كل مايمثله بالنسبة لي مجرد التحدث هكذا مع رجل عاش تلك الفترة.

لم أكن أكذب أبداً. وشعرت من نظرته بأني استطعت التخفيف من تحفظاته بعض الشيء.

ـ أتعلم ـ قال لي ـ أنا أشبه جدولاً، حُجزت مياهه لوقت طويل جداً، فإن فُتحت فيه ثغرة لا شيء يسكتني بعدها. ولاسيما أنه ليس لدي أي شيء أفعله خلال الأيام القادمة.

ـ ماعدا زيارة الستة عشر أو السبعة عشر شارعاً المتبقية..

ضحك.

ـ أقوم بهذا لأملأ فراغ أيامي بانتظار...

أردت أن أسأله من جديد: ماذا ينتظر؟ لكنني خفت أن يهرب مجدداً إلى أفكاره. وبدا لي أكثر حكمة أن أقترح عليه أن نذهب ونجلس في مقهى في الشارع المجاور.

ما إن جلسنا على رصيف المقهى أمام كأسين من البيرة المثلجة، حتى عدت إلى حديثي وإلى موضوع دراسته التي انقطعت.

ـ كنت غداة يوم التحرير في حالة سكر واحتجت لبعض الوقت كي أصحو منه... الكثير من الوقت في الواقع. وبعدها لم تكن لدي أية رغبة بمتابعة الدراسة.

ـ وأهلك، ألم يلحوا على ذلك؟

ـ أنا من أراد أن يصبح طبيباً إذ كان لدى أبي مشاريع أخرى لي، كان يريد...

صَمَتَ لحظةً، وربما كان ذلك آخر تردد له، لأنه نظر إليّ مطولاً كمن يريد سبر أعماقي قبل أن يستسلم.

ـ أراد أبي أن أصبح زعيماً ثورياً كبيراً.

لم أستطع منع نفسي من الابتسام.

ـ نعم، أعلم، يلح الوالد عادة في العائلات العادية، على أن يدرس ابنه الطب، بينما يحلم الابن بالثورة. ولكن عائلتي لاتعتبر من العائلات التي يمكن وصفها «بالعادية».

ـ لابدّ أن يكون والدك، إذا لم أخطئ، من الثوار الأوائل.

ـ هذا بلا شك ما كان سيصف نفسه به. فلنقل إنه كان صاحب عقل متمرد، لكنه ليس شريراً أبداً، لاحظ جيداً. حتى

أنه كان مرحاً ومحباً للحياة، لكنه متمرد حتى الأعماق.

ـ ضد ماذا؟

ـ ضد كل شيء! القوانين، الدين، التقاليد، المال، السياسة، المدرسة... قد لا نستطيع تعداد كل ما كان ضده. ضد كل ما يتغير وما لا يتغير. «ضد الحماقة والذوق الرديء والعقول النتنة» هذا ماكان يقوله. كان يحلم بتغييرات عظيمة...

ـ ما الذي قاده إلى ذلك الموقف؟

ـ من الصعب القول. إلا أنه تعرض في سنينه الأولى، لبعض الظروف التي عززت لديه تلك الضغينة.

ـ افترض أنه عاش في وسط محروم...

ـ تريد أن تقول في وسط فقير؟ لا إنه لم يكن أبداً كما تقول ياصديقي الشاب، لم يكن أبداً. إن عائلتنا...

عند تلفظه بتلك الكلمات، أخفض عينيه كما لو كان خجلاً، ولكني أعتقد أنه كان يريد إخفاء إحساسه بالفخر.

أجل إنني إذ أفكر به اليوم من جديد أقتنع تماماً أن خجله كان ينبع من إحساسه بالفخر عندما قال لي:

ـ أنا أتحدر من عائلة حكمت الشرق طويلاً.

تحدثنا ذلك اليوم حتى ساعة متأخرة من الليل. أولاً في المقهى، ثم خلال نزهة عبر المدينة المضاءة، ومساءً في مشرب للبيرة بساحة الباستيل.

لا أدري بالتأكيد في أية لحظة راودتني فكرة جعله يسرد قصة حياته من البداية إلى النهاية؟ يبدو لي بأنني منذ أحاديثنا الأولى كنت مفتوناً بتلك الطريقة التي كان يسرد فيها بعض الوقائع المثيرة بالنسبة لي، معطياً انطباع من يريد الاعتذار. وقد جعله ذاك التواضع غير المصطنع محبباً جداً لنفسي. بالإضافة إلى الهشاشة التي كانت تظهر أحياناً من خلال ابتساماته ونظراته المستجدية لنيل موافقتي، والقلقة من حركاتي الضجرة القليلة. كما كان يبدو ذلك من خلال راحتيه اللتين تتحركان وتحوّمان دون توقف أو تتشابك الواحدة مع الأخرى. راحتان طويلتان وملساوتان توحيان بأنهما لم تعملا أبداً، وإنه لا يعرف بأي شيء يمكنهما أن تساعداه.

سيكون من المضجر التحدث عن كيفية الحصول على موافقته. مضجر ومربك، لأنني أعلم اليوم أنه إذ أراد فعلاً الدخول في تلك اللعبة فإن ذلك لسبب لا علاقة له بمبرراتي أو مهاراتي.

أوضح: إن هذا الشيء المميز الذي كان عليه انتظاره أربعة أيام والذي لم أجرؤ حتى الآن سؤاله عنه كان يعذبه دون توقف. كان لايريد التفكير به، إلا أنه غير قادر على التفكير بأي شيء آخر. إن ذلك الخوف من أن يجد نفسه وجهاً لوجه مع نفسه، هو الذي قاده، أكثر من الحنين، للقيام بدورة في الشوارع المكرسة لأبطال المقاومة. لقد أتاح له لقاؤه معي تحولاً أكثر فعالية. فقد احتكرته طيلة أيام الانتظار، أهزّه، أزعزعه، أستفزه، أجبره على استعادة حياته السابقة ساعة بعد ساعة. بدلاً من أن يفكر بالمستقبل.

صباح الخميس

التقيته ـ كما يبدو في الدفتر الذي أدوّن فيه ملاحظاتي ـ يوم أربعاء. وفي صباح اليوم التالي كنا ومنذ التاسعة صباحاً في غرفته في الفندق. غرفة ضيقة لكنها عالية السقف، وعلى الجدران قماش بلون العشب رُسمت عليه أزهار ربيعية مسطحة. مرج غريب قاتم.

دعاني للجلوس على الكنبة الوحيدة الموجودة لديه، مفضلاً السير في الغرفة.

ـ عمّاذا تريدنا أن نتحدث في البداية؟ سألني.

ـ أعتقد أنه من الأسهل أن نبدأ من البداية. ولادتك...

تجوّل بصمت لدقيقتين، ثم أجاب بسؤال آخر:

ـ هل أنت واثق بأن حياة الإنسان تبدأ بولادته؟

لم ينتظر إجابتي بل كان سؤاله أسلوباً خاصاً لبدء روايته. تركت له الكلام واعداً نفسي بالتدخل أقل مايمكن.

قال: بدأت حياتي منذ نصف قرن قبل ولادتي في غرفة لم أزرها أبداً، تقع على ضفاف البوسفور. حيث كانت المأساة، ودوّت الصرخة وانتشرت موجة من الجنون لاتنقطع. بحيث أنه عند مجيئي للحياة، كانت حياتي قد بدأت منذ وقت بعيد.

عَرِفَتْ اسطنبول بعض الأحداث المروّعة بالنسبة للذين عاصروها والتافهة بالنسبة لنا. إذ تم خلع أحد السلاطين

ليحل مكانه ابن أخيه. كرر أبي أمامي ولعشرين مرة الأسماء والتواريخ، ولكني نسيت كل شيء تقريباً. لايهم، فما يهم بالنسبة لروايتي هو تلك الصرخة وذلك النحيب الذي أطلقته امرأة شابة في ذلك اليوم.

وُضع الحاكم المخلوع قيد الإقامة الجبرية في ضواحي العاصمة ودفعه منعه من الخروج ومن الزيارات إلّا بإذن مسبق، وفصله عن أتباعه إلّا أربعة من الخدم المسنين إلى الاضطراب والكآبة والانهيار. كان يحلم بمشاريع كبيرة للإمبراطورية، مشاريع تقدم وعظمة مسترجعة. كان يعتقد نفسه محبوباً من الجميع، ولذا لم يفهم أبداً ذلك الصمت المحيط به. كان يجتر المرارة فهو لم يعرف كيف يختار بطانته التي أعطته دائماً أسوأ النصائح واستغلت كرمه. نعم، لقد خانه الجميع.

أغلق الحاكم المخلوع غرفته على نفسه. «أعلم أن لا أحد يريد إطاعتي، ولكن إن لمحت أحداً يدخل إلى هنا سأخنقه بيدي هاتين». تُرك وحيداً طوال الليل وفترة الصباح كلها حتى ساعة الغداء. طرقوا على بابه، فلم يجب. انتابهم القلق، لكن من يجرؤ على عصيان أوامره؟

تبادل الخدم الرأي. شخص واحد في هذا العالم يمكنه عصيان أمره دون إثارة غضبه «ابنته الحبيبة عفّت»، فالأب وطفلته يرتبطان بعاطفة قوية تجعله لا يرفض لها طلباً. لديها مدرّسون للعزف على البيانو والغناء، وكذلك لتعلم اللغة الفرنسية والألمانية، كما تجرؤ على الظهور أمامه بملابس أوروبية تأتيها من ڤيينا وباريس. إنها الوحيدة القادرة على فتح باب الحاكم المخلوع.

حصلوا على الأذن من السلطات الجديدة وأحضروا الابنة التي حاولت في البداية فتح الباب برفق، إلا أنه لم ينفتح، فطلبت من مرافقيها الابتعاد ونادت: «أبي! هذه أنا عفّت، أنا لوحدي». لا جواب. فأمرت الحراس وهي ترتجف بدفع الباب، واعدة إياهم بتحمل كامل المسؤولية.

كتفان قويان خلعا الباب. وهرب الحارسان دون إلقاء ولو نظرة خاطفة داخل الغرفة. دخلت الفتاة مكررة نداءها «أبي!» ثم مشت خطوتين إلى الداخل. وعندها أطلقت تلك الصرخة التي دوّت في أرجاء الغرفة والمداخل والأروقة ثم في شوارع اسطنبول، وفي الامبراطورية كلها وكذلك خارجها، وفي ديوان ذوي النفوذ.

لقد وجدت أوردة الحاكم مقطوعة، وعنقه مسودّاً وثيابه ملطخة بدمه.

انتحار؟ ربما. وربما كانت حادثة اغتيال، فالقتلة يستطيعون الصعود عبر الحدائق. لم تُعرف الحقيقة أبداً. وفي كل الأحوال، لم تكن تلك القضية ذات أهمية كبيرة سوى لبعض المؤرخين...

بقيت عفّت في مكانها مجمدة من الرعب. وحل مكان صراخها نوع من النشيج. وبقي ذلك الرعب ظاهراً في عينيها لعدة سنوات.

مضت الأسابيع الأولى للحداد، وبما أنها بقيت تجول في الأروقة بالنظرة ذاتها وبالنشيج ذاته، بات من الواضح أن

الأمر ليس مجرد نكبة فقدان شخص عزيز. فقد كانت عفّت، الفتاة المفضلة والطفلة المدللة، والمرحة والمفناج، قد فقدت عقلها، ربما إلى الأبد.

لم يكن لدى الأم أي خيار آخر سوى استدعاء الطبيب العجوز *كتابدار* المتحدر من أسرة عالية الثقافة ذات أصول فارسية. اعتنى هذا الطبيب بكل المرضى الذين كانت لهم عوارض العته ممن ينتمون إلى أكبر بيوت اسطنبول، ويعتبر اللجوء إليه اعترافاً بالعجز.

كان الطبيب يعرف المريضة. فقد التقى بها منذ ستة أشهر تقريباً (في وضع مختلف تماماً). في ذلك اليوم جاء ليعالج إحدى الخادمات المصابات بالهيستريا، وسمع الأميرة تعزف لحناً من ڤيينا على البيانو فبقي واقفاً قرب الباب يصغي إلى عزفها، وعند انتهائها وجّه إليها بعض كلمات التشجيع باللغة الفرنسية. أجابته بابتسامة مشرقة ثم تبادلت معه بعض الجمل. خرج الرجل العجوز مفعماً بالرضى. لم ينس أبداً ذلك اللقاء وتلك الموسيقى، تلك اليدين الناعمتين وذلك الوجه وذلك الصوت.

عند دخوله من جديد إلى صالة البيانو. وعندما رأى تلك الفتاة الشابة نفسها تروح وتجيء مهتاجة وسمعها تدمدم عتهاً، ورأى عينيها الزائغتين وأصابعها المقوسة لم يستطع حبس دموعه. لاحظت أم عفّت ذلك فبدأت بالنحيب. كره نفسه لحظتها واعتذر من الأم. فمن واجبه التخفيف عن عائلات المرضى لا زيادة قلقهم.

«وإذا أبعدتها عن اسطنبول؟ إلى مونترو(*) مثلاً» سألت

(*) مونترو : مدينة في سويسرا .

الأم. تأسّف الرجل العجوز متحسراً، إذ أن الرحلة لن تفيد بشيء. إذا كان لابد من الترويح عن نفسها وإبعادها عن كل مايذكرها بالمأساة، فهذا لن يكفي: إذ أن حالتها تستوجب متابعتها بشكل مستمر من مختصين. ضربت الأم على صدرها قائلة: «لا، لن أترك ابنتي في المصح! الموت أهون من ذلك!» وعدها الطبيب بأن يفكر بحل أفضل.

في طريق عودته إلى منزله ذلك المساء مستقلاً عربته التي تجتاز أزقة «غلاطة» الصاخبة، كان يهتز نصف نائم وفجأة أخذ يفكر بأمر مجنون. وعاد في اليوم التالي ليطلع أم عفّت عليه: بما أن حالة الفتاة تستدعي العناية المستمرة ولسنوات طويلة، وبما أن فكرة حجزها في المصح مستبعدة، اقترح نقلها إلى أضنة جنوب الأناضول حيث يمتلك منزلاً. وقال إنه سيكرس نفسه لها ليلاً نهاراً، وشهراً بعد شهر، وسنة بعد سنة، ستكون مريضته الوحيدة، وستستعيد إن شاء الله شيئاً فشيئاً قواها العقلية.

يعتني بها ليلاً نهاراً، وسنة بعد سنة؟ وبمنزله الخاص؟ كانت الأم ستحكم على الطبيب بالغرور والوقاحة لو كلمها بهذه الطريقة في ظروف أخرى. إن ما لم يقله الطبيب الأرمل صراحة لكنه أشار له بوضوح كان: أنه يريد الزواج من عفّت. لو حدث هذا في ظروف أخرى لقلت بأن هذا الأمر غير وارد على الإطلاق. لكن ما من أحد اليوم يحلم بتزويج ابنة الحاكم المخلوع المصابة بالجنون لرجل من تلك الشخصيات المرموقة التي كانت لوقت قصير مضى تطمع بالحصول على هذا الشرف. أمام كل هذا استسلمت الأم للأمر الواقع

مفضلة إعطاء ابنتها لهذا الرجل المحترم الذي يبدي حباً كبيراً لها، وسيعتني بها ويحفظها من الخزي والعار بدلاً من تركها محجوزة في المصح حتى آخر يوم من حياتها.

عائلة غريبة، أليس كذلك؟ زوج عجوز، هو قبل كل شيء طبيب معالج. وزوجة شابة معتوهة قد تمضي أحياناً أياماً كاملة، رغم عنايته وعطفه، تشتكي أو تصرخ بلا سبب في وجه الخادمات اللواتي منهن من تتعب ومنهن من تشفق عليها.

ما كان يخفى على أحد أننا أمام زواج صوري، لا هدف منه إلّا إضفاء الشرعية على وجود رجل وامرأة تحت سقف واحد ليلاً نهاراً وبعيداً عن العيون. زواج مصلحة إذن، زواج صوري، أو بشكل أدق زواج مجاملة، نوع من التضحية، عمل خيري يقوم به الطبيب العجوز.

إلّا أن عفّت حملت في يوم من الأيام.

أكان ذاك نتيجةَ لحظةِ طيش؟ أم ثمرةً لطريقة جسورة في العلاج؟ لا شك أن التساؤل مشروع.

فإن صدّقت طفل الزوجين الذي لم يكن سوى والدي، ترتب علينا الأخذ بالتفسير الثاني: للطبيب كتابدار نظرياته، فهو يريد أن يثبت أن أية امرأة مثل امرأته، فقدت عقلها نتيجة صدمة، ستستعيده بفضل صدمة أخرى مثل الحمل والأمومة وخاصة الوضع. فصدمة الحياة القوية تعوّض صدمة الموت القوية. الدم يمحو الدم. نظريات... نظريات...

لكننا نستطيع كذلك أن نتخيل العكس تماماً: فالزوج الطبيب يعيش بشكل مستمر إلى جانب زوجته، يلبسها ثيابها

ويخلعها عنها ويشرف على استحمامها كل مساء، وهي امرأة شابة وجميلة ويحبها بعمق لدرجة أنه يكرس كل لحظة من حياته لها فكيف سيستطيع تأملها دون أن يتأثر؟ كيف يمكنه أن يمرر ذراعيه وعينيه فوق جسدها الناعم دون أن يشتهيها.

بالإضافة إلى أنها لم تكن دائماً في حالة هيجان واضطراب، بل كانت تبدي من وقت لآخر عوارض صفاء وتوازن، لكنه لم يكن صفاء كاملاً. عرفتها في آخر أيامها وراقبتها، لم تكن حالة صفاء تام بحيث تدرك حالتها، وهذا أفضل لها، وإلّا كانت تعذبت كثيراً. إلا أنها كانت تبقى هادئة لساعات طويلة، لاتنتحب ولا تصرخ أبداً بل تظهر حناناً كبيراً نحو المحيطين بها.

كانت تغني أحياناً بصوت شجي مؤثر. لازلت أذكر تلك الأغنية التركية التي تتحدث عن فتيات اسطنبول في نزهتهن على شواطئ أوسكودير(*). وأغنية غامضة الكلمات، تتحدث عن قضية طرابزون(**) والموت. حين تبدأ جدتي بالغناء يصمت الجميع ليصغي إليها، كان غناؤها مؤثراً جداً، وكانت تحتفظ حتى آخر أيامها بوجه هادئ ومظهر أنيق. أتخيل من جهتي أن الزوج قد اشتهاها ذات يوم فأخذها بين ذراعيه، وأنها شدت نفسها إليه وعلى وجهها ابتسامة طفل عاقل، ثم ولكي يبرر أمام نفسه ما كان بينهما، صاغ الدكتور كتابدار وبحسن نية تام، النظريات المناسبة

ويمكننا أن نعترض، لقد تكشّف أن كل تلك النظريات لم تكن فاعلة. فجدتي لم تشفَ تماماً حتى في شيخوختها! فالأمر

(*) (**) أوسكودير وطرابزون مدينتان على الساحل التركي.

ليس على هذه الدرجة من البساطة. لم تشفَ، فالصدمة الشافية لم تحدث أبداً. إلا أنها عرفت أن تكون أماً محبة لابنها. وعندما انتقلت للعيش معنا، فيما بعد، لم نعتبر وجودها عبئاً علينا. لقد كانت أزماتها متباعدة ودون نتائج مديدة. لم تشفها الأمومة لكنها لم تضاعف من حالتها بالتأكيد، بل أعتقد أنها قد ساعدتها كثيراً، إلا أن قليلاً من الناس كان مستعداً لرؤية الأمور من وجهة النظر هذه.

انتُقد الطبيب العجوز... ماذا أقول؟ انتُقد... لا بل مُرِّغ في الوحل! تعرض لهجوم حقيقي. ثرثرات، إهانات، شتائم، وشايات. صحيح أنه تزوج وأن زواجه كان شرعياً ولا أحد يستطيع لومه لإنجابه طفلاً من زوجته الشرعية. إلا أنه لايمكن الامتناع عن التفكير بأن الظروف أوجدت نوعاً من العقد الأخلاقي، وبأن الدكتور *كتابدار* بجعله تلك المرأة فاقدة الرشد حاملاً يكون بطريقة ما قد استغلها وتصرف تصرفاً لا مسؤولاً وغير جدير بالاحترام، مخالفاً الآداب الطبية ومتبعاً غرائزه فقط.

وعندما طرح نظرياته الغريبة للدفاع عن نفسه زاد في قلة احترام الناس له وصاروا يقولون: ماذا؟ أيستخدم زوجته كفأر تجارب؟

مزقته العداوة التي جاءته من كل الجهات، عشية حياة مثالية، فترك نفسه يجتاحه الشعور بالخطأ وخيانة القَسَم والوقوع بإحساس عدم الكفاءة.

لم يعد أحد من زملائه، أو من أعضاء «العائلة المعظمة» أو أي شخصية هامة من شخصيات أضنة يتخطى عتبة منزله.

كان أبي يقول: «لقد عوملنا كموبوئين»

ويضحك بشدة!

لم أعرف منزلنا في أضنة، ولم أره على الإطلاق. إلا أنه كان موجوداً ضمن مسيرة حياتي، وأعتقد أن قيمته عندي تضاهي قيمة أي منزل آخر عشت فيه.

يقع ذلك المنزل وسط المدينة، وعلى الرغم من ذلك كان منعزلاً. تحيط به جدران عالية وحدائق مليئة بأشجار داكنة. بُني من الأحجار الرملية التي يحمر لونها عند سقوط المطر، بينما يحيطها الغبار الدقيق الأمغر أيام الجفاف. يمر الناس بجانبه متجنبين رؤيته، إذ كان يعني لهم مكان رعب مجهول، رعب يرتبط بكل الأبنية التابعة للعائلة المالكة، بالجنون وبالطبيب كتابدار الذي أشيع عنه آنذاك بأن له ممارسات خفية شائنة.

في ذلك المنزل، وبين ذراعي ذينك الزوجين، كان وجود الطفل أمراً غير منطقي، يزيد من غرابة الوضع. كان وجوده مخالفاً للطبيعة إلى حد ما ولم يكن ينظر إليه كهبة من السماء، بل كنتاج تجارة أقيمت مع الظلمات.

قلما كان الطفل، والدي، يخرج. لم يذهب أبداً إلى المدرسة. والشيء المشترك الذي يجمعه مع صبية السلالة العثمانية هو مجيء المدرسة إليه. في السنوات الأولى من حياته أحضروا له مربياً بكل معنى الكلمة ثم بات له مع تقدم عمره عدد من المدرسين لمختلف المواد. لم يكن يستقبل

أقرانه مطلقاً كما لم يكن يزورهم، لا أصدقاء لديه ولا مخالطات باستثناء مدرّسيه.

لم يكن هؤلاء أناساً مثل الباقين، فالأشخاص الذين كانوا يرضون بالمجيء يومياً إلى المنزل الموبوء، كانوا يعيشون على هامش الحياة، فمدرّس اللغة التركية إمام مطرود، ومدرّس اللغة العربية يهودي حلبي طردته عائلته، أما مدرّس اللغة الفرنسية فكان بولونياً حطّت به الأقدار في تلك المدينة في الأناضول، كان معروفاً باسم «واسا»، وهو تصغير لاسم أطول بثلاث مرات...

خلال حياة الطبيب كتابدار اكتفى المدرّسون بالتدريس في ساعات محددة. التأخير لم يكن مسموحاً وإطالة الدرس لم تكن مرغوبة. يستمعون لتعليماته وينفذونها بحذافيرها، لأن عليهم الاهتمام بإحراز تقدم لدى التلميذ. ومن ثم يأتون نهار كل جمعة في زيارة مجاملة ليحصلوا على رواتبهم.

بعد موت الطبيب العجوز، تخلخل النظام كلياً. وكان أبي في السادسة عشرة من عمره، ولم يعد أحد يستطيع كبح جماحه. طالت ساعات التدريس بسبب النقاشات التي كانت تدور بعد الدرس. وصار المدرّسون يُدعون وأحياناً كلهم سوية إلى الغداء والعشاء أيضاً، وتشكل حول الشاب الصغير بلاط صغير تثار فيه كل المواضيع. لكن لم يكن محبذاً الكلام بالأفكار العامة أو بتعظيم أمجاد السلالة المالكة أو بتعظيم الدين.

كان مقراً للتعبير الحر. وهذا ما كان في كل مدن الامبراطورية خلال تلك السنوات. إلا أنه لا يجب الاستنتاج بأن

الدسائس كانت تحاك في منزلنا، في أضنة. لقد بقينا بعيدين عن السياسة. وكان ضمن المجموعة العديد من الغرباء، والعديد من الأقليات، ولاسيما من الأرمن واليونانيين. وبالتالي فإن أية إدانة للسلطات العثمانية ستنعكس بشكل سيئ على هؤلاء فقد احتضن ذلك المنزل كل من كان موضع شبهة لدى السلطات العثمانية، كانوا يتحدثون أحياناً عن حق المرأة في الانتخاب، وعن المدرسة الإلزامية والحرب الروسية اليابانية، أو عن بعض حالات التمرد البعيدة، في المكسيك وفارس وإسبانيا والصين. لكن أمراً آخر كان يستهويهم ألا وهو المكتشفات والتقنيات الحديثة وكان فن التصوير الضوئي يتربع على عرش الاهتمامات. وفي أحد الأيام، جرت مناقشة حامية، وظهرت فكرة تسمية تلك الحلقة، ودون أي تردد سُمّيت: «حلقة فن التصوير الضوئي».

ولأن والدي كان الوحيد الذي يمتلك الإمكانات المادية لتمويل مثل هذه الهواية فقد جلب من لايبزيغ ـ كما أعتقد ـ الجهاز الأحدث مع الكتب التدريبية.

حاول العديد من أعضاء الحلقة تعلم هذا الفن، فكان نوبار الأرمني، وهو مدرّس العلوم، الأكثر موهبة بينهم. كما كان أكثر المدرّسين شباباً، إذ يكبر تلميذه ستة أو سبعة أعوام تماماً، وقد نشأت بينهما صداقة وطيدة.

كانت العلاقة بين أرمني وتركي تبدو حتى في ذاك الوقت وأكاد أقول «مغالطة تاريخية»، بل وعلاقة مشبوهة أيضاً. كانت علاقات العمل والمبادلات الاجتماعية اللطيفة والاحترام المتبادل، مقبولة لدى بعض الأوساط، أما صداقة حقيقية وترابط عميق، فلا. وكانت العلاقة بين الطائفتين تتراجع

بشكل واضح في أضنه أكثر منها في غيرها من المدن.

إلا أن مايجري خارج جدران منزل كتابدار لا ينعكس أبداً على عالمه الداخلي، وربما كان يجري العكس: إنَّ صداقة حقيقية، صداقة أخوية بين تركي وأرمني، كانت شيئاً نادراً جداً. لكنها كانت شيئاً ثميناً بالنسبة لكليهما، فبينما يعلن الآخرون اختلافهم علناً، يرى الشابان أن اختلافهما الوحيد هو صداقتهما، وقد أقسما بجدية طفولية على ألاّ يفرقهما شيء وبألاّ يبعدهما أي اهتمام آخر عن هوايتهما المشتركة وهي فن التصوير الضوئي.

في بعض الأحيان كانت جدتي، تترك غرفتها عند اجتماع الحلقة لتجلس بينهم متابعة نقاشاتهم، فتنظر إليهم متحدثة أحياناً، وتبدو أحياناً كما لو أنها تستمع إليهم باهتمام، تحرك شفتيها، ثم تقف دون سبب ظاهر وسط الجملة لتخرج من القاعة وتعود لعزلتها.

وفي أحيان أخرى، كانت تبدو مهتاجة، فتطلق بعض الصرخات من غرفتها فيسرع ابنها للعناية بها كما علمه أبوه تماماً. وعندما تهدأ يعود إلى أصدقائه ليتابعوا النقاش من حيث توقف.

عدا تلك النكبة، عرف منزلنا عدّة سنوات من السعادة. هذا هو الانطباع الذي تتركه لدي صور ذلك العصر بالتأكيد، التي احتفظ أبي بعدة مئات منها، صندوق كامل نَقَشَ عليه بكل فخر، مستخدماً حبر السبيدج: «حلقة فن التصوير الضوئي. أضنة».

كان يُري تلك الصور لمن يقدّره من الناس، شارحاً لهم بالتفصيل ظروف كل لوحة، والتقنيات المستخدمة فيها،

وكذلك مهارات ضبط الصورة والإضاءة. كان في هذه الأمور نبعاً لاينضب، لكنه كان يبدو كبائع في معرض، لدرجة أن زائراً غريباً لم يفهم نواياه واعتقد أن هدفه هو بيع تلك القطع فاقترح عليه سعراً. مما دفع والدي لأن يطرد ذلك المسكين الذي بكى من الارتباك.

بقيت كل تلك الصور في الصندوق حتى وفاته، ما عدا اثنتين أو ثلاث منها أطّرها. إحداها لوحة مميزة لأمه وهي جالسة بصلابة على كنبة تنظر بعينيها صوب النافذة إلى اليسار، كتلميذ شارد الذهن.

لقد التقط هذه الصورة بنفسه بدون شك إذ لن يَسمح، أي صديق من أصدقاء الابن لنفسه بتصويرها بحالتها تلك وهو أمر، لو فعل لكان مفعماً بالمجازفة والحميمية.

ورغم ذلك فإن أكثر اللوحات التي يضمها الصندوق لم تكن له، فهنالك لوحات نوبار، وخمس أو ست منها لأعضاء الحلقة.

تعود أقدم لوحة تصويرية إلى عام 1901 ، وأحدثها إلى نيسان من عام 1909 . هذا دقيق أليس كذلك؟ أستطيع أن أكون أكثر دقة أيضاً: في 6 نيسان. فقد تكلم أبي بشكلٍ وافٍ عنها، بحيث لن أنساها أبداً. وبعد ذلك التاريخ لم يمسك بيده أي جهاز تصوير.

ما الذي حدث ذلك اليوم؟ كارثة بمعنى من المعاني. الكارثة التي ولدتُ منها.

حدثت أعمال شغب في أضنة، واقتحم حشد من الناس الحي الأرمني. كان هذا مقدمة لما سيحدث بعد ست سنوات، وبشكل أوسع. لكن الرعب كان منذ ذاك الوقت عظيماً: مئات بل ربما آلاف من القتلى. أحرق عدد لايحصى من المنازل، وكان من بينها منزل نوبار الذي وجد الوقت الكافي ليهرب مع زوجته أرسينويه، اسم ندر وجوده آنذاك، وابنته ذات السنوات العشر وابنه ذي الأعوام الأربعة.

إلى أين يلجأ إن لم يكن إلى صديقه، صديقه التركي الوحيد؟ وفي اليوم التالي، بقي الجميع مختبئين في منزل كتابدار الكبير. وبعد يومين، أي في السادس من نيسان، أشيع أن الهدوء قد عاد إلى المدينة فأراد نوبار الذهاب إلى منزله ليرى إن كان يستطيع إنقاذ بعض الكتب واللوحات التصويرية وأخذ معه آلة التصوير، وصمم والدي على مرافقته حاملاً جهازاً مماثلاً.

بدت الشوارع هادئة تماماً، ولم تكن المسافة المتوجب قطعها تزيد عن بضع مئات من الأمتار. وفي الطريق، استطاع الصديقان التقاط بعض الصور.

كادا يصلان إلى منزل نوبار، أو بالأحرى إلى أنقاضه المحترقة، عندما سمعوا جلبة ما. كان حشد من الناس يتقدم، وعلى بعد عدة شوارع من المكان، من جهة اليمين، حاملين

الهراوات والمشاعل في وضح النهار. فعاد مصورانا أدراجهما. ركض نوبار بكل قوته بينما احتفظ أبي بهيئته السلطانية. لِمَ الاستعجال؟ مازال الحشد بعيداً. فتوقف، حسبَ المسافة بدقة وضبطَ الصورة، ثم التقط صورة لطليعة المشاغبين.

صرخ نوبار بجنون، وبدأ أبي بالركض حاضناً آلة التصوير كأنَّه يحضن طفلاً، مجتازين سور الحديقة منقذين نفسيهما.

لكن الحشد تابع في أعقابهما. كان قرابة ألف من الغوغاء المسعورين يخبطون أقدامهم في الغبار، ويهزّون السور. قد يصبحون خلال ثوان في الداخل ليقتلوا ويذبحوا ويحرقوا. إلا أنهم مازالوا مترددين بعض الشيء، لأن البناء الموجود وراء السور، ليس مُلكاً لأحد التجار الأرمن الأغنياء، بل مُلكاً للعائلة الحاكمة.

هل سيطول هذا التردد؟ والسور الذي يُهزّ بشدة أكثر فأكثر، ألن ينهار مبدداً آخر ما بقي لدى مثيري الشغب من وقار؟ التحم الحشد أكثر، وازدادت مطالبته بالموت.

وصلت عندئذ فرقة من الجيش، مكونة من ضابط شاب على رأس مجموعة من الرجال، لكن اقتحامهم لم يكن دون جدوى. فمن فوق مطيته، قوياً بسيفه المتوتر وقلنسوته الصوفية السوداء المجعدة، تبادل الضابط بضع كلمات مع زعماء الفتنة، ثم أصدر إشارة للبستاني للسماح له بالدخول.

استقبله والدي كمنقذ، إلاّ أن العسكري لم يكن لديه وقت للمجاملات، عليه مصادرة أجهزة التصوير بحجة الفوضى الحاصلة. وعندما رفض والدي هدد الآخر: «إنْ لم يخضع

للأوامر فسيبتعد مع رجاله ولن يستجيبَ لشيء».

قال أبي «أتعرف من أنا؟ أتعرف حفيد من أكون؟» أجاب الضابط «نعم أعرف كان جدك حاكماً نبيلاً، مات ميتة شنيعة، رحمه الله».

كانت نظرة الضابط وهو يتكلم معبأة بالعجرفة الحاقدة الخالية من العطف.

كان يجب أن تُسلم وتُصادر كل الأجهزة. تلك الأجهزة التي أُنفق عليها الكثير من أجل نشاطات حلقة فن التصوير الضوئي. لا أقل من العشرات منها، وبينها الأكثر تطوراً. نجح والدي بإخفاء تلك التي كان قد استخدمها للتو، دافعاً إياها بقدمه تحت إحدى الكراسي، وبداخلها الصورة التي كادت تكلفه حياته.

أخذ العسكريون ما تبقى، وشهد والدي ونوبار كيف رُميت أجهزتهم من نافذة الطابق الأول على الرمال أمام مثيري الشغب الذين التقطوها وحطموها ثم رموا حطامها خارج السور.

عندها فقط وافق الحشد الذي تم استرضاؤه على التفرق.

نظر الصديقان إلى بعضهما البعض غير مصدقين، لقد استطاعا الإفلات من الموت بصعوبة ومع ذلك كانا يشعران بالحزن.

انتهت السنوات السعيدة، سنوات حلقة فن التصوير الضوئي، حبيبتهم المشتركة، صديقتهم الأوروبية الطاهرة

التي من أجلها يخاطران بحياتهما، لن يعانقاها أبداً بعد الآن بالطريقة نفسها. أصبح أبي، فيما بعد، هاوي جمع صور فقط، ولم يصور أي صورة بعدها، فقد كانت صورة مشيري الشعب آخر صورة التقطها. أما نوبار، فعلى العكس، امتهن فن التصوير الضوئي ولكن ليس في أضنة. فلم يكن وارداً بالنسبة له إعادة بناء بيته، وباتت فكرة خروجه من جديد إلى الشوارع المذعورة في حي الأرمن فكرة مزعجة. لقد ولد في تلك المدينة، لكن المستقبل لايسكن أبداً بين جدران الماضي.

بقي اختيار المنفى.

هرب كثير من الأرمن من أضنة وبعض المناطق الأخرى ليتجمعوا في العاصمة اسطنبول «أيهربون من مخالب النمر ليتجمعوا في فمه؟ ليس أنا» قال نوبار.

هدفه الوحيد، هو أميركا. ولكن مثل هذا المشروع يتطلب الكثير من المال والكثير من الإعداد والقيام باتصالات والحصول على أوراق. كان نوبار مستعجلاً جداً، ولم يرد البقاء في منزل صديقه سوى بضعة أيام، فقد صمم على ألاّ يترك منزل كتابدار إلاّ إلى خارج البلاد.

همست زوجته أرسينويه بالحل، وكلمة همست هي الكلمة المناسبة تماماً هنا، فقد كانت الشخصية الأكثر خجلاً وتواضعاً. القدمان مضمومتان وكذلك اليدان، عيناها نحو الأرض، ويخيل لي أنها كانت ستعتذر وتقوم بمئات الحركات الإيمائية قبل أن تتجرأ على التدخل في ما لا يعنيها، حياتها. لديها ابن عم يقطن منذ عدّة سنوات في جبل لبنان. كان يرسل إليها الرسائل المشجعة من وقت إلى آخر. ربما تستطيع الذهاب إلى هناك لبعض الوقت بانتظار أميركا؟

صحيح أن جبل لبنان يخضع للسلطة العثمانية أيضاً. إلاّ أنه كان يحظى ولنصف قرن مضى، بنوع من الحكم الذاتي الذي تضمنه وتحيطه برعايتها القوى الكبرى. وإن لم يكن هذا المكان الملجأ المثالي للأرمن، إلاّ أنه القدر الأقل خطورة والأقل وعورة في جميع الأحوال.

قلّب نوبارهذه الفكرة لمدة يومين، ثم استقر رأيه فجأة وقرر مصارحة صديقه.

«وهكذا قررت تركي. منزلي ليس واسعاً كفاية بالنسبة لك...» قال أبي.

«منزلك واسع، لكن البلاد ضيقة».

«إن كانت البلاد ضيقة بالنسبة لأفضل صديق لي، فلم لاتكون كذلك بالنسبة لي؟».

لم يكن نوبار بمزاج جيد ليوضح بماذا تختلف الإمكانيات بالنسبة لمدرس أرمني أو أمير تركي. لم ينتظر والدي الإجابة بدوره بل خرج ليتمشى في الحديقة تحت أشجار الجوز، نافثاً دخانه بعصبية. كان نوبار يلاحقه بنظره من وقت إلى آخر عبر النافذة، ثم قرر ملاقاته إذ شعر باضطرابه.

«أنت أغلى صديق لديّ، ومضيفي الأكثر كرماً، أنت من لا نستطيع تركه دون ندم. قل لنفسك أن ما يجري لا نريده لا أنا ولا أنت لكننا لانستطيع منعه. يجب عليّ...»

لم يكن الصديق والمضيف يستمع. فهو يعدّ قراره منذ ساعة. «وإذا رحلت معك؟».

«إلى لبنان؟»

«ربما...»

«إذا أتيت... إذا أتيت معي... سأعطيك...»

«ماذا ستعطيني؟».

فجأة، استعاد الصديقان مرحهما وشبابهما وحبّهما المشترك للألعاب الذهنية، لكنهما ذهبا بعيداً بتلك اللعبة...

تساءل نوبار بصوت منخفض «ماذا أستطيع أن أعطيك؟ أنت تملك أراضٍ وقرى بكاملها، ولقب الإمارة، أما أنا فلم يبق من منزلي الفقير المتواضع جداً سوى كومة من الحجارة!

كنت سأعطيك أثمن ما لدي من الكتب فالكتاب القديم يُقدّم حتى لمن كان يملك كل شيء.

كنت سأعطيك أجمل لوحاتي الفوتوغرافية وأنجحها، تلك التي أفخر بها.

لكن ليس لدي شيء، كل شيء احترق، الكتب واللوحات والأثاث والثياب، فقدت كل شيء.

ليس لدي أي شيء آخر أعطيكه، سوى يد ابنتي».

قال أبي: «اتفقنا أنا قادم معك!».

هل كان الصديقان جادين بذلك الوعد؟ لدي انطباع بأن الأمر قد بدأ بينهما على سبيل المزاح، إلاّ أن أحدهما لم يرغب فيما بعد بالعودة عنه، خشية الإساءة للآخر.

كانت ابنة نوبار في العاشرة. كانت تبدو كبيرة قياساً بعمرها، إلا أنها نحيفة وسمراء بثياب بائسة. طفلة تشب طولاً أكثر من نضوجها كامرأة. كانت تدعى سيسيل. وستتزوج من صديق أبيها بعد خمس سنوات. عام 1914 ، قبيل الصيف، قبيل

الحرب أقيم حفل زواج مهيب كان على الأرجح آخر عيد في التاريخ غنّى فيه الأرمن والأتراك ورقصوا معاً. ومن بين الأعداد الكبيرة التي حضرت حاكم الجبل، وكان أرمنياً آنذاك، أوهانيس باشا الموظف العثماني القديم، الذي ارتجل خطاباً يتوافق مع المناسبة، متحدثاً فيه عن الأخوّة بين شعوب أرجاء الامبراطورية «أتراك، أرمن، عرب، يونانيين، يهود، الأصابع الخمسة ليد السلطة المبجلة» وقد صُفِّق له بحرارة.

لم يستطع نوبار التحرر من قلقه رغم هذا العيد. إلا أن الزوج كان سعيداً كصبية الشارع! «هيا أيها العم، اخرج قليلاً من رأسك وانضم إلينا! انظر إلى كل هؤلاء الناس الذين يضحكون ويصفقون من حولك، ألا تجد هنا ما افتقدناه في أضنة؟ وهل نحتاج للهجرة إلى أميركا؟»».

كان يبدو بأن كل شيء يسير بشكل جيد، فخلال التحضير للزواج، بنى والدي بالقرب من بيروت، في مكان يدعى «تلّة الصنوبر»، منزلاً فخماً من الحجر الرملي يشبه المنزل الذي تركه في أضنة. وكان قد حمل معه من أضنة أثاث العائلة ومجوهرات أمه وأجهزة والده القديمة، والسجاد وصكوك المُلكية، وكذلك فرمانات تملأ صناديق كاملة وكل لوحاته الفوتوغرافية.

على جدار الصالة في منزل كتابدار الجديد، تصدرت الصورة الأقل توقعاً: صورة مثيري الشغب برؤوسهم المعصوبة ووجوههم المبللة بالعرق تحت ضوء نيران المشاعل الحاقدة. احتفظ والدي طيلة حياته بلوحة المطاردة الفريدة هذه أمام ناظريه. توالى قدوم الزائرين خلال سنوات، مجموعة تلو الأخرى، يتفحصون تلك

الشخصيات ملياً، باحثين بلا جدوى عن بعض الوجوه المألوفة، وكان والدي يتركهم لفترة طويلة في حالة من الارتباك، إلى أن يقول: «لاتبحثوا لايوجد وجه يمكن التعرف عليه، إنه الحشد، إنه القدر».

كان يجلس دائماً أمام هؤلاء الرجال، بعكس نوبار الذي يدير لهم ظهره، ويخفض عينيه في كل مرة يدخل فيها الغرفة، متجنباً رؤيتهم.

أراد أبي أن يسكن صديقه دائماً معه. لكن نوبار فضّل استئجار منزلٍ في الجوار، منزل متواضع يستخدمه للتصوير أيضاً. اختاره الحاكم كمصور محترف، فازدهرت تجارته خلال عدة أشهر مثل سنابل قمح الجبل الشاهق، التي تسرع في النمو لأنها تعرف أن الربيع سيكون قصيراً.

بدأت في ذلك الصيف حرب الأربعة عشر، التي يعتبرها كل من عاشها الحرب الكبرى. أما عندنا، فلم يكن هناك خنادق ولم نشهد أية خسارات ولم نتعرض للغازات السامة. عانينا من المعارك أقل مما عانيناه من المجاعات والأوبئة. ثم من الهجرة التي أفرغت القرى من سكانها. بيوت كثيرة في جبل لبنان لم تعرف مواقدها النار من بداية الحرب ولفترات طويلة.

في ذلك الوقت بدأت المذابح في أضنة كما في كل أرجاء الأناضول. وأخذت أرض المشرق تعيش أكثر لحظاتها بشاعة، وكانت امبراطوريتنا تُحتضر مجللة بالخزي والعار. ووسط أنقاضها، اندفع حشد من البلدان المسخ، كل يصلي إلى ربه لإخراس صلوات الآخر. وانتشرت مواكب الناجين الأولى على الطرقات.

كانت الساعة ساعة الموت. في ذلك الوقت، كانت أمي حاملاً. ليس بي، لا، ليس بعد، بل حاملة بأختي الكبرى، فلقد ولدت أنا بعد الحرب، في عام 1919 .

لا أتحدث كثيراً عن أمي، فانا لا أعرفها جيداً. لقد توفيت عندما كانت تلد أخي الأصغر. لم أكن قد تجاوزت الرابعة من عمري حينها.

لا أملك سوى ذكرى وحيدة عنها. عندما جئت إليها في

غرفتها حافي القدمين. كانت ترتدي ثياب النوم وتقف أمام مرآتها. وضعت يدي على بطنها المكوّر، ربما كانت تريدني أن أشعر بحركة الطفل. نظرت إليها دون أن أفهم. كانت تبكي، فسألتها إن كانت تتألم، لكنها جففت عينيها بمنديل كانت تحمله بلا مبالاة، وحملتني إلى حضنها، وغمرتني بين ذراعيها لتضمني إلى صدرها لفترة طويلة. تنشقتُ رائحتها الدافئة مغمض العينين، وكنت أتمنى ألاّ تعيدني إلى الأرض أبداً.

لم كانت تبكي؟ لألم ما؟ حزن امرأة؟ كآبة عابرة؟ لا زلتُ حتى الآن أرغب بمعرفة السبب!

لدي صورة أخرى لها في خيالي. لكني لست واثقاً تماماً منها. أرى أمي تقف بالقرب من الباب، ترتدي ثوباً أبيضَ لصيقاً بالجسم ومتسعاً حول الكاحلين، وعلى رأسها قبعة ذات خمار، وكأنها تذهب إلى حفل خيري. لكني لست واثقاً تماماً. ربما شاهدتُ الصورة لاحقاً وظننت إنني رأيت المشهد حقيقة. حيث كان فيه شيء من الهمود، وضعية الجسم جامدة، الابتسامة باهتة ولاوجود لأي كلام. لم تكن تنظر إليّ إذاً.

هذا كل شيء، لا ذكريات أخرى. لا وجود لأي صورة في مخيلتي عن معاناتها أو موتها. لقد عفوني من كل هذا.

تساءلت في بعض الأحيان، فيما بعد، إن كانت قد وافقت على طلب يدها، وعلى ربط مستقبلها بتلك المزحة، بدون مضض. في نهاية الأمر ربما كان هذا ما يحدث في ذلك العصر. الآباء يقدمون الوعود والفتيات يقبلن. إلا أنهن كن

يستطعن المقاومة في بعض الظروف، إذا كان الزوج المختار حقيراً أو إذا كن يعشقن رجلاً آخر، كما كن أحياناً ينتحرن. أما فيما يخص والدتي فلا أعتقد أنها كانت تتألم من الخيار الذي قدم لها، فلقد كان والدي رجلاً كريماً. والعيش معه لم يكن سهلاً لما له من نزوات طفل وحيد سليل أمراء. لكنه لم يكن أبداً متذمراً أو عصبياً أو ماكراً. وعندما كان يضطر لأن يكره أحداً يتألم كثيراً. وفوق كل ذلك كان رجلاً جميلاً ووسيماً بل بالغ التأنق لدرجة يمكن معها وصفه بالمهووس، عندما يتعلق الأمر بقبعاته بياقاته المُنشّاة أو بحجم شاربيه الأشقرين أو طيات سترته أو درجة اخضرار نبتته المنزلية المفضلة.

لمعرفة مشاعر أمي نحو أبي، كان لدي مؤشر لا يخطئ: والداها. فقد كان نوبار وجدتي من جهة أمي يكنان لأبي محبة كبيرة طوال حياتهما، إذ يكفي أن نرى بأي حنان كانا ينظران إليه، وكيف كانا يفرحان لأفراحه ويحزنان لحزنه، وكيف كانا يَرِقّان لتصرفاته الغريبة، ليتأكدا بأنه ليس الزوج السيئ لابنتهم.

يبدو لي أن أمي لم تعرف الكثير من الفرح خلال حياتها القصيرة، فقد حملت ثلاث مرات، وكانت تتعب في كل حمل لها. كان الحمل الأول، إذاً، عام 1915 . ولا أدري إن كان بمقدورنا أن ندرك اليوم، ما كان يعني لأرمنية في تلك السنوات التعيسة أن تحمل من تركي عثماني.

بالطبع، لم يكن زوجها أي تركي عثماني. لقد كان موقفه مثالياً كما صداقته الدائمة لنوبار. ولكن من كان في ذلك العصر يجد الوقت لملاحظة مواقف الآخرين؟ ومن كان يهتم

لمعرفة القناعات الحقيقية؟ في أزمانٍ كذاك الزمان يُلْحِق الناسُ بكَ أفكارَ بني قومك.

وهكذا، وبين ليلة وضحاها أُقيل الحاكم الأرمني العجوز رغم إخلاصه للأسرة الحاكمة. وأُلغي - وبجرة قلم - الوضع الذي كان يتمتع به الجبل فشعر أولئك الناس، الأرمن، الذين ما هاجروا إلى الجبل إلّا لهدف وحيد هو الهرب من السلطة العثمانية، أنهم قد وقعوا في الفخ!

عاد نوبار للحلم بالهجرة إلى أميركا، ولكن ابنته صارت زوجة وأماً والسفر بدونها وبدون عائلتها الصغيرة لم يكن وارداً أبداً. أما أبي، فلم يكن يرغب بسماع هذا الكلام أبداً.

في البداية، ولكي يربح الوقت، قال إنه سينتظر نفاس زوجته وبِرأها. ثم كانت حجته، أن أمه، نظراً لحالتها، لن يُسمح لها بالدخول إلى الولايات المتحدة، وهو مهما كانت الأحوال لن يتركها.

لم يكن ذاك هو السبب الحقيقي. أو على الأقل، ليس السبب الوحيد. لأن جدتي لم تكن المريضة العقلية الأولى التي ستعبر الأطلسي. أعتقد أن أبي، رغم علاقاته الباردة مع عائلته الشهيرة، ورغم الاستخفاف الذي كان يبديه أحياناً بها لم يكن لامبالياً بسلالته. فما دام موجوداً على أرض الشرق سيبقى أميراً وحفيدَ سلطان، وسليل كبار الفاتحين، دون حاجته للتفاخر بذلك. أما في أميركا، فلن يكون سوى إنسان عادي وهذا مالا يستطيع تحمله.

لا شك أني أشرت أثناء حديثي عنه البارحة إلى أنه كان ثائراً أيضاً ضد ألقاب النبالة، وضد ما تحاط به السلالة والمستوى الاجتماعي من تشريفات. لقد كان كذلك بمعنى من

المعاني... لكن ليس تماماً. لا أريد القول بأنه لم يكن منسجماً مع ذاته بل كان له انسجامه الخاص، وإذا كان يستاء أحياناً كثيرة من عائلته العثمانية فلأنه كان يلومها على انهيارها.

هل كان يتطلع إذاً إلى الماضي أكثر منه إلى المستقبل؟ ليس سهلاً أن نجزم. لكن، في كل الأحوال، مما نصنع المستقبل إن لم يكن من توقنا إلى الماضي؟

أين هو ذاك الزمان حيث كان الناس من مختلف الأجناس يعيشون جنباً إلى جنب في مدن المشرق البحرية ويخلطون لغاتهم، هل أصبح ذكرى من الماضي أم هو رؤيا للمستقبل؟ والذين مازالوا متعلقين بهذا الحلم هل هم ماضويون أم رؤيويون؟ أنا عاجز عن الإجابة. ولكن هذا ما كان والدي يؤمن به: عالم بلونٍ مزيجٍ، عالم يمكن للتركي والأرمني أن يعيشا فيه أخوة.

لو يعيدوا له عالمه كما كان، لقضى وقته يصلّي للسماء حتى لايتغير شيء. ولكنه كان يعلم استحالة الأمر، فقضى طوال حياته في معارضة أميرية لاتنتهي. لو لم يكن أميراً لما صار ثورياً. لم يكن يرغب بعالم يتقدم بثبات على سكته، بل كل ماينحرف عن سكته، إذا جاز القول، كان يفتنه: الفن المخرّب والثورات المدمرة والاختراعات الجريئة والنزوات والشذوذات وحتى الجنون.

لكن الأفكار الأكثر ثورية كانت تعزز لديه، في بعض الأحيان، ميولاً فطرية أرستقراطية لا تلين.

هكذا ـ وليس هذا سوى مثالٍ ـ لم يرغب أبداً بأن يرتاد أطفاله المدرسة، بل أراد لنا اتباع الطريق نفسه الذي اتبعه هو، مربون ومدرّسون منزليون. وإذا لفت أحدهم انتباهه،

أحياناً، إلى أنّ ما يفعله يتعارض مع آرائه الطليعية، كان ينكر ذلك بحدة مؤكداً أن الرجال يولدون متمردين، وأن المدرسة تحولهم إلى كائنات خاضعة ومنقادة وقابلة للترويض. لا يمكن لقادة المستقبل الثوريين أن يتبعوا مثل هذا الطريق! لا يمكن تركهم يغرقون في هذا القطيع البشع! أراد لأطفاله مدرّسين لاتقبل بهم أية مدرسة. فالمدرّسون الحقيقيون هم أولئك الذين يدرّسون حقائق مختلفة، كما قال. يخيل لي أن والدي كان يحاول تقليد أفضل ماعرفه في شبابه، ذاك التواطؤ بين الذكاء والطيبة مع نوبار وبقية أعضاء حلقة فن التصوير الضوئي. أراد استرجاعها وتوريثها لنا، ونجح بجزء من ذلك، إذ لم يكن مجيء المدرسين كل صباح مبعث خوف لي، فمازلت أذكر بعض نقاشاتنا وبعض ما كنا نتبادله من أسرار وربما تشكل شيء يشبه التواطؤ مع واحد أو آخر.

وهنا يتوقف الشبه بين منزليّ كتابدار، منزل أضنة والمنزل القريب من بيروت. فإذا كان الأول قد عاش خارج العالم، ضمن أسوار مغلقة ترتاده ثلة من رجال لا يقهرون فقد كان الثاني، بعكسه تماماً، قفيراً تحت الشمس. قاعة استقبال مفتوحة وذراعان مفتوحتان، مائدة مفتوحة لضيوف يوم واحد كما للضيوف الدائمين، وهم رسامون خارجون على القواعد الفنية، وشاعرات شابات وكتّاب مصريون عابرون ومستشرقون من مختلف الأجناس. صخب لاينقطع.

بالنسبة لي كطفل، كان يمكن لذلك أن يكون عيداً مستمراً، لكنه كان عذاباً، لا بل لعنة مستمرة! فقد كنا في حالة غزو دائم، من الفجر وحتى الليل، من قبل رجال مدهشين بعض الأحيان، مرحين أو رجال علم، لكن في معظم الأحيان من قبل

طفيليين تافهين، ومن مزعجين ومن نصابين جذبتهم ثروة أبي، وبحثه المندفع عن كل جديد وعجزه عن التمييز.

أما أفراح طفولتي فقد كنت أجدها خارجاً، في رحلاتي النادرة والنادرة جداً بعيداً عن المنزل العائلي.

أفضل الذكريات التي بقيت لي من ذلك العصر عندما ذهبت لثلاث سنوات متوالية لقضاء عطلة الصيف مع جدي لأمي في قرية تقع في قمة جبل ليس بعيداً عن ذلك المكان الساحر، الذي يسمونه عندنا قناة باكيش، وهي قناة باخوس. حيث كنا في كل يوم، بعيد استيقاظنا، نصعد أنا وجدي على الأقدام إلى قمة الجبل، مصطحبين عصي المشي فقط، والقليل مما يسكت جوعنا من بعض الثمار وبعض لفائف الطعام.

بعد ساعتين من التسلق، كنا نتوقف عند كوخ لراعي ماعز، قيل إنه بني أيام الرومان، لكنه لا يحتفظ بأية عظمة من الماضي فهو عبارة عن مأوى حجري تافه بابه منخفض لدرجة أني وأنا ابن عشر سنوات كنت مضطراً لأن أنحني كي أتمكن من عبوره. يوجد في الداخل كرسي بارجل مخلخلة وقش ممزق ورائحة الماعز. لكنه كان، بالنسبة لي، قصراً، بل مملكة. ما أكاد أصل حتى أدخل إليه، بينما يجلس جدي في الخارج على حجر مرتفع مستنداً بيديه على عصاه. كان يتركني لأحلامي يا الله كم كنت سَكِراً، كنت أمتطي الغيوم، كنت سيد العالم، ممتلئاً بكل أفراح الكون المتوهجة.

وعندما كان الصيف ينتهي وأعود إلى الأرض، كانت سعادتي تبقى ساكنة هناك في الأعالي في ذلك الكوخ. كل ليلة كنت أنام في منزلنا الواسع، تحت الأغطية المطرزة، محاطاً بالسجاد والسيوف المرصّعة والأباريق العثمانية، إلاّ أنني ما

كنت أحلم إلا بذلك الكوخ، كوخ الرعاة. وحتى الآن، وأنا على منحدر حياتي، عندما يحدث أن أحلم بأرض طفولتي، لايظهر أمامي إلا ذلك الكوخ.

لقد ذهبت إليه ثلاثة أصياف متتالية، عندما كان عمري عشر سنوات، وإحدى عشرة، واثنتي عشرة. ثم انقطع السحر. إذ تعرض جدي لبعض المشاكل الصحية ونُصح بالابتعاد عن تسلق الجبل. مع ذلك كان يبدو لي قوياً، بشعره الشديد السواد، وشاربه الكث الشديد السواد أيضاً، لكنه كان جدّاً، ولم تعد تناسبه صبياناتنا. واضطررنا لتبديل مكان اصطيافنا لنذهب إلى الفنادق الفخمة التي تضم المسابح والكازينوهات والأمسيات الراقصة، لكنني فقدت مملكة الطفولة.

لم يكن والدي يذهب معنا في العطلة. التي كانت تعني الابتعاد عنه تماماً. وعند خروجنا كان القلب يزداد طرباً كلما ابتعدنا عن المنزل. أما هو، فكان يبقى مع شعوره بالازدراء تجاه ذلك «الانتجاع»، وتجاه سكان المدن الذين يهربون من حرارة الأجواء الساحلية إلى الجبل في موعد محدد.

من يدري، ربما كان على حق، فكلما تقدمت في العمر كلما وجدته على حق في كل الأمور. وافترض أن هذا ينطبق على كل الناس. وبدأت شيئاً فشيئاً أحذو حذوه في نزواته الخاصة. ربما بسبب ماورثته من الطباع أو الندم. ولكني في أمرٍ واحدٍ مازلت حاقداً عليه، هذا الأمر هو ما كان يدفعني للهرب منه باستمرار: رغبته بأن يصنع مني زعيماً ثورياً كبيراً. لم يكن طموحه غبياً كطموح بعض الأهل لأبنائهم. بل كان نوعاً من الهوس الذي يجعلني أبتسم الآن. بينما لم يكن

ليجعلني أبتسم إلاّ ما ندر في مرحلة طفولتي ومراهقتي. وفيما بعد، في سن النضوج، بقيت تلك الرغبة تلاحقني كاللعنة.

أتدري، كان والدي مثالاً لما ندعوه عادة: المستبد المستنير. مستنير، لأنه أراد لنا تربية الرجال الأحرار. مستنير، لأنه وفر لابنته التعليم الذي وفره لأبنائه، مستنير أيضاً لشغفه بالعلوم المعاصرة والفنون. لكنه مستبد في طريقته بالتعبير عن أفكاره بصوت عال وواضح، لا يقبل النقاش. مستبد، بشكل خاص، في متطلباته تجاهنا وتجاه مستقبلنا. ولاعتقاده بأن طموحه كان نبيلاً لم يتساءل إنْ كان لأطفاله الرغبة أو القدرة على الالتزام به.

في البداية، مُورس الضغط على أبنائه الثلاثة، وبالتساوي تقريباً. لكن، شيئاً فشيئاً، نجح أخي وأختي بالتحرر، تاركاني أتحمل وحدي، مدى الحياة، الثقل المضني للهوس الأبوي العظيم.

عند وفاة أمي، في أيلول 1922 ، بعد ولادتها الثالثة مباشرة، كانت أختي قد تجاوزت السابعة بقليل. لكنها أصبحت رغم ذلك سيدة المنزل. كانت قد كلفت نفسها عناء شرح الأمر لي بعينين جافتين: ذهبت أمي في رحلة طويلة، وحتى لا أسبب لها الألم في تلك البلاد البعيدة، حيث كانت، علي أن أنام بهدوء، أما هي، فأعتقد أنها كانت تعود إلى سريرها لتبكي من أعماقها.

من بيننا نحن الثلاثة، كانت الوحيدة التي عرفت منذ طفولتها كيف تأخذ مكانها. بإمكاننا القول إن أبي كان السطح الحامي لها بينما كان السقف الخانق بالنسبة لي. إذاً في الوقت الذي كانت فيه الكلمات ذاتها، ونبرة الصوت الأبوي ذاتها، تقويها وتعطيها الثقة، كانت تخنقني أو تحيرني.

وما زلت أذكر ذاك المشهد الذي تكرر أمام ناظري آلاف المرات، بشكل مماثل.

عندما يستيقظ والدي في الصباح، لم يكن يُظهر نفسه أمام أحد، حتى أمامي، قبل أن يحلق ذقنه ويمشط شعره ويرتدي ثيابه ويتعطر ليصبح جاهزاً للخروج. كان يبدأ باستقبال مزينه الخاص، ومن ثم، بعد أن يصبح جاهزاً، يفتح باب غرفته منادياً أختي لتقف له «مرآة»، أي بمعنى آخر، يقف أمامها صامتاً، منتصب القامة كأنه أمام مرآته. حيث

تراقبه وتصلح له ربطة عنقه، وتنفض خيط الغبار عن سترته متفحصة عن قرب بعض البقع.

كانت خلال تجهيزه تبدي بَرْطَمةَ ارتيابٍ لتعطيه في النهاية إشارة الانتهاء بحركة من رأسها دون أي استعجال. بينما يبدو هو كأنه ينتظر الحكم دون إلحاح.

عند انتهاء هذا الطقس كان يغادر غرفته. كانت خطواته الأولى مترددة، ليستعيد بعدها، شيئاً فشيئاً، خطواته الثابتة إلى الصالة حيث تنتظره قهوته.

قلت سابقاً، جاهزاً للـ «خروج»، لم يكن ذلك سوى طريقة للتعبير. والتعبير الأصح هو: «للجلوس». لم يكن أبي ليخرج إلا قليلاً، بل كان في العادة، عند استيقاظه، يُخرج رأسه فقط من النافذة المفتوحة في الطابق الأعلى مستنشقاً هواء الصباح، يجول بنظره على البحر والمدينة والصنوبر، لم يكن ذلك سوى نظرة خاطفة يلقيها ليتأكد أن كل شيء مازال موجوداً. ثم يعود إلى الأسفل ليجلس في الصالة. لم يكن أوائل الزوار ليتأخروا أبداً، بل كانوا أحياناً يصلون قبله وينتظرونه.

أفترض، أنه خلال حياة أمي، كانت هي من يجعل نفسه «مرآة له» كل صباح. وعندما أخذت أختي مكانها في هذا الطقس، صار لها هيبة على أبي، لم أكن حتى لأحلم بالحصول عليها. وقد وصلت هذه الهيبة حداً جعله يمتنع عن فرض أي أمر عليها.

وبدأ أخي الأصغر، مثلها، يحرر نفسه من نفوذ والده،

ولكن بأسلوب آخر أكثر مكراً. فكان يبذل كل مابوسعه، لإحباط والدنا، ومنعه من دفعه إلى أعلى. كان مقتنعاً بأن أباه يكرهه منذ مجيئه إلى هذا العالم لأنه تسبب بوفاة أمنا. لايمكن لأب أن يتخذ عن قصد موقفاً دنيئاً كهذا. لكن عندما يشعر الطفل أنه غير محبوب منذ ولادته، فهذا يعني أنه غير مخطئ تماماً.

ظهر الاختلاف باكراً بيننا وبين أخي، وأعني بكلمة بيننا العائلة كلها. كان الجميع نحيفاً أهيف القوام مع نزعة فطرية إلى الوقار والأناقة. كان قوام أبي ممشوقاً لولا كرش الوجاهة الذي لا غنى عنه للرجال الناضجين الناجحين. وكذلك كانت أمي ونوبار وجدتيْ وأختي وأنا نفسي، كلنا كان لنا القوام نفسه تقريباً أي باختصار المظهر العائلي نفسه. إلاّ أخي الذي كان منذ نعومة أظفاره بديناً، كان شرهاً كخنزير وبقي كذلك.

يبدو لي بأني لم أعلن حتى الآن عن اسمه الأول: سالم، الذي كان السبب الرئيسي لحقده! في الواقع لا يختلف هذا الاسم عن غيره من الأسماء، بل إنه الاسم الوحيد من بين أسمائنا الذي لم يبطل استعماله، فاسمي لا يوجد في العالم من يحمله غيري ورغم انقضاء سبع وخمسين سنة لم أستطع الاعتياد عليه فأميل ـ عندما أقدم نفسي ـ لإخفائه.

عندما التقينا البارحة قلت، كتابدار فقط أليس كذلك؟ لم تكن تستطيع التنبؤ باسمي الأول الذي... أطلقه علي والدي: عصيان! نعم، عصيان! «اللاخضوع»، «التمرد»، «العصيان»، أرأيت في حياتك أباً يسمي ابنه «عصيان»؟ عندما كنت في

فرنسا كنت ألفظه بسرعة، وكان الناس يجدون أحياناً قرابة له مع اسم شاعر اسكتلندي فكنت أهز رأسي بجبن حتى لا أضطر لشرح نزوات أبي.

لكن، لننس ذلك. أردت فقط أن أقول لك إن اسمي الأول كان ثقيلاً. وكذلك كان اسم أختي - عفَت، على اسم جدتي - نادراً في بيروت، وكان أكثر الناس يظنون أن اسمها إيڤيت.

من المعروف أن البلاد كانت ترزح تحت سيطرة الانتداب الفرنسي بين الحربين العالميتين. والأصح أنها وُضعت حديثاً تحت سيطرة الانتداب الفرنسي بعد أربعة قرون من السيطرة العثمانية. وفجأة، لم يعد أحد يريد الاستماع إلى التركية!

بإيجاز لم تكن بالنسبة لنا، نحن الذين ننتمي رغماً عنا إلى العائلة العثمانية، اللحظة المناسبة للاستقرار في لبنان. ما العمل؟ نحن لم نختر شيئاً، التاريخ اختار لنا. لا أريد أن أبدو ظالماً أو جاحداً. فإذا كان صحيحاً أن الناس في بيروت كانوا يفضلون التكلم باللغة الفرنسية ونسيان التركية، إلا أنهم لم يدعونا نشعر ولو لمرة واحدة بأننا غير مرغوب بنا. بل على العكس، كان يسليهم ويمنحهم شيئاً من الفخر أن «الاحتلال» الذي كان بالأمس، عاد بشكل ما ليسكن بينهم كضيف. كنت أعامل دائماً ومن قبل كل الناس، الأقرباء والأجانب، كأمير صغير. لم أشعر أبداً بأنه علي إخفاء أصلي إلا على سبيل التواضع أو خوفاً من فرض نفسي عليهم.

ولكني كنت أتكلم عن شيء آخر... آه، نعم، عن اسم أخي سالم. كنت أقول إنه أقل ندرة من اسمي. بل كان من الأسماء

الشائعة، ذات الوقع اللطيف على السمع. لكن كما تعلم، هذا الاسم يعني «سليم»، أو ماشابه ذلك، وهو يستحضر ظرفاً مؤلماً عند طفل توفيت والدته وهي تلده.

كان أخي يعتقد بأنه سمي كذلك ليذكّروه دائماً، وطوال حياته، بأنه بقي بعد موت أمه، وربما لمعاقبته لأنه «قتلها»...

لم تكن تلك نية أبي على الإطلاق! كل ما كان يريده من هذا الاسم هو الاحتفال بالحدث السعيد الوحيد لولادة مأساوية، وهو أن الطفل جاء معافى على الأقل. إن تسمية الأطفال بأسماء تعبر عن آراء الأهل وطموحاتهم أو ما كان يشغلهم في تلك اللحظة عادة مكروهة جداً. يجب أن يكون الاسم الذي يطلق على الشخص الصفحة الأكثر بياضاً ليكتب عليها، خلال حياته، ما يستطيع كتابته. إذاً، كان اسم أخي، برأيي فكرة غير سعيدة. ولكن، من المؤكد، إنه لم يكن هناك أية نية بالقصاص أو القدح، فقد كان لأبي أصلاً، الطموحات الجامحة نفسها لي ولسالم.

حاول أخي المستحيل ليخرج من اسمه وأهمل دراسته، كما كان سيئاً مع مدرّسيه الذين كانوا رغم ذلك رجالاً رائعين، ليس كلهم بالطبع، بل أغلبهم. كان ينتقم لنفسه بالتهام الطعام، قلت ذلك سابقاً. بل وفعل ما هو أسوأ من ذلك.

في الثانية عشرة من عمره، مثلاً، سرق اثنتين من المخطوطات الرائعة التي تعود للقرن السابع عشر والمزينة بالمنمنمات. وباعها لتجار العاديات، مرتباً الأمور بحيث يتم اتهام ابن البستاني. شعر أبي بإهانة كبرى عندما اكتشف الحقيقة. ولأول مرة في حياته ضرب أحد أبنائه بتلك القسوة، فقد جلده بحزامه حتى نفر الدم من جسمه.

بل وأقسم أنه سيطرده من المنزل ويعطي غرفته لابن البستاني كنوع من تصحيح الأمور. إلاّ أن الصبي وأهله رفضوا ذلك. وبدلاً من طرده من المنزل طرد أبي ابنه الأصغر من أحلامه المستقبلية. ولعله كان يظن بأنه يعاقبه بذلك، لكنه كان قد حرره في حقيقة الأمر.

ولكن، للأسف، أصبحت أحلام أبي كلها تقع على عاتقي.

وأي أحلام! إذا أردت وصفها بشكل تقريبي ساخر، أستطيع القول إنه كان يحلم بعالم لايوجد فيه سوى رجال لطفاء وكرماء، لباسهم مميز، يحييون المرأة باحترام شديد يطردون بظهر يدهم كل اختلافات الأصل واللغة والمعتقدات، ويعشقون كالأطفال فن التصوير الضوئي والطيران والراديو، والتصوير السينمائي.

قد تعتبر ما أقوله ضرباً من الضحك العصبي أو من التهكم المعيب، لأن هذا العالم الذي كان يحلم به. هذا القرن العشرين، والذي هو استمرار لأنبل ما في القرن التاسع عشر، حلمت به أيضاً. وإذا كنت ماأزال أحتفظ بشجاعة الحلم، سأحلم به أيضاً. وهنا نتشابه. كأب وابن، إذا سامحتني على هذه التفاهة. أما عندما كان يبدأ حديثه قائلاً: إن العالم يحتاج لإيقاظه وإنارة دربه، بعض الرجال المميزين، الثوريين، الذين يثبتون أقدامهم في الشرق ويتطلعون إلى الغرب، فكنت لا أوافقه تماماً على ذلك.

أما هو، فكانت نظرته تتجه إليّ، ففهمت بأنني الرجل المرسل الذي يُنتظر منه اجتراح العجائب.

في بعض الأحيان كان نوبار وأبي يجلسان كعجوزين سقيمين بسيطين: ستكون ثورياً عظيماً يا بني! ستغير وجه

العالم! وأمام نظرتهما تلك لم يكن لدي سوى رغبة واحدة: الهرب وتغيير اسمي وسمائي. كيف أشرح لهما بأن تلك العاطفة التي يكنانها لي، وتلك الثقة، وذلك الاحترام السابق لأوانه، يرعبني ويشلني؟ كيف أشرح لهما بأنه قد يكون لدي مشاريع مستقبلية أخرى؟ ليس أقل كرماً من مشروعهما. وأستطيع أن أؤكد ذلك، أني أنا أيضاً، كنت أريد تغيير العالم بطريقتي. بينما كان أبي يدفعني إلى قراءة سيرة الفاتحين وأعظم الثوريين، مثل الاسكندر وقيصر ونابليون وصن يات صن ولينين، دون نسيان سلفنا سليمان الكبير، وأبطالي الخاصين. مثل باستور وفرويد وبافلوف وخاصة شاركو.

هكذا أكون قد استعدت اهتمامات جدي لأبي الذي كان طبيباً، أليس كذلك؟ بل وطبيب أمراض عصبية مثل شاركو الذي التقاه يوماً، كما قيل لي، خلال إقامة في سويسرا. إن وجود جدة مختلة عقلياً خلال طفولتي قد عزّز، وبالتأكيد، فضولي لدراسة طب الأمراض العقلية والعصبية.

كنت قد اتخذت قراري وأنا في الثانية عشرة من عمري. وكان ذلك نوعاً من العهد الذي قطعته على نفسي، والذي كنت أرسخه دائماً في كل ليلة من ليالي غرفتي المظلمة. سأصبح طبيباً! وكنت أبقى صامتاً كلما تكلم أبي معي عن طموحاته، دون أن أجعله يشعر بما كان يعتريني من مشاعر، بينما كنت أردد في نفسي وبقوة: سأصبح طبيباً! لن أصبح فاتحاً أو زعيماً ثورياً. سأصبح طبيباً! التردد الوحيد الذي كان ينتابني يتعلق بالغاية النهائية للعلم الذي أنوي تحصيله. ماذا سأصبح؟ كنت أحياناً أرى نفسي طبيباً ممارساً، أكرس نفسي لسكان الأدغال مثل الدكتور شفايتزر أو العكس

أحياناً، أرى نفسي باحثاً أو مكتشفاً، أجلس في أحد المخابر منحنياً فوق الميكروسكوب.

لم أكلم أحداً عن ذلك في البداية، ولا أستطيع القول كم من الوقت بقي ذلك السر في داخلي. يبدو لي أني بقيت سنتين أو ثلاث قبل أن أهمس به لأختي حتى لاتخونني وكي تساعدني في الوقت نفسه. قالت لي: «كن واثقاً من أمر واحد عندما تأتي اللحظة المناسبة، لن تفعل إلا ما صممت على فعله. لاتفكر بكيفية إقناع أبي، اسأل نفسك ماذا تريد، تأكد مما تريد، أما بالنسبة لوالدك فسأتكفل بالأمر إن أنت أردت».

وبدأتْ بإقناعه، فحاولتْ إقناعه أولاً بإدخالي مدرسة حقيقية، لآخر سنتين دراسيتين لي، تستطيع منحي شهادة معترفاً بها. إلاّ أنها لم تستطع تحقيق ذلك فوراً، فدعم نوبار خطوتها واقتنع أبي أخيراً. بل إنه وجد في ذلك تعزية كبيرة: وبفضل التدريس الذي تلقيته من قبل أساتذتي، تفوقت في صفي ومنذ دخولي إلى المدرسة، وكان ذلك سهلاً بالنسبة لي، اللغات والآداب والخطابة والعلوم والتاريخ... نجحت في كل تلك المواد بسهولة وهذا ما كان يؤكد صحة رؤى أبي الغريبة، لقد حصلت بفضله على تعليم استثنائي ومن المحزن أني استخدمته بشكل رديء.

حصلت في القسم الأول والثاني من البكالوريا على أفضل معدل في البلد، دون حاجتي لأن أكدّ أكثر من غيري، كان ذلك عام 1936 أو 1937 وظهر اسمي في الصفحات الأولى للصحف. كان أبي يشعر بالنصر، فقد تقدم ابنه على الآخرين! بالنسبة لي، إذا كانت النتائج قد دفعتني لإكمال دراستي فإنها

جعلتني أرغب أكثر من أي وقت بمتابعة الدراسة خارج المنزل بعيداً عن المتطلبات الأبوية الضاغطة، فكرت شيئاً فشيئاً بمونبيلييه، لأنَّ كلية الطب فيها ذائعة الصيت.

وفي هذه المرة أيضاً «جنَّدت» أختي نفسها لإقناع أبي. فعلت ذلك بلباقة، وكانت حجتها: الطب هو الطريق المثالي لمن يريد تغيير الناس. فظهرت أمامه مباشرة صورة العالِم، الحكيم، المخترع، والمنقذ، وسيكون الناس جاهزين لإعطاء الثقة التامة له في كل الأمور. لقد أزفت الساعة. سيستطيع أن يتحول بشكل طبيعي ليصبح زعيماً للرجال.

قد تكون دراسة الطب الطريق الأكثر ذكاءً للوصول إلى المستقبل الذي يحلم به من أجلي؟ لم يكره أبي تلك الفكرة، لذا منحني بركته لأنطلق في نهاية تموز على متن الباخرة *شامبوليون* المتوجهة إلى مرسيليا.

ما كادت أبنية مرفأ بيروت تغيب في الأفق حتى جلست على كرسي طويل، منهكاً، مرتاحاً، حراً. كان أبي يعتقد بأني ذاهب لأصنع قدري كزعيم ثوري، لكن لم يكن لدي سوى رغبة واحدة: الدراسة، الدراسة. طبعاً أسترخي قليلاً من وقت لآخر. لكن دون أن يكلمني أحد عن الثورة والنضال ونهضة الشرق والمستقبل المشرق!

قطعت على نفسي وعداً بأن لا أقرأ حتى الصحف.

مساء الخميس

لم أكن أرغب بمقاطعة رواية «عصيان» لأذكر ما كان يراودني من ذكريات. ومع ذلك، كان حديثه يعيد صوراً إلى مخيلتي.

لقد عرفت منزله المبني من الحجر الأمغر على تلّة الصنوبر. لم أدخله أبداً، إلا أنني كنت أمر أمام سياجه كل يوم في الباص الذي يقلني إلى المدرسة. أتذكره جيداً، لم يكن يشبه أي منزل آخر، فهو لم يكن بناء عصرياً حقاً ولا جبلياً، ولا عثمانياً. كان خليطاً عجيباً بدون طراز، بناء واضح، لكنه كان متناسقاً بشكل عام بقدر ما أستطيع الحكم الآن... أذكر أيضاً سياجاً مغلقاً عادة، يفتح أحياناً لتدخل سيارة (DeSoto) سوداء وبيضاء، وحديقة مشذبة لا وجود لأي طفل يلعب فيها.

تعود ذكرياتي إلى منتصف الخمسينات. كان العصر الذي يحدثني عنه «عصيان» بعيداً جداً. لكنني سبق لي أن قرأت في مجلات قديمة، كما سمعت أكثر من مرّة اسم دار كتابدار يعود خلال الأحاديث التي كانت تدور حولي. لقد بقي ذلك المنزل في الذاكرة كمكان ذي شأن في الحياة الفنية في المشرق، مابين الحربين. فقد أقيمت فيه حفلات افتتاح لمعارض فنية وسهرات موسيقية وأمسيات شعرية ومما لا شك فيه معارض صور فوتوغرافية أيضاً.

لم يحدثني محاوري عن داره بشكل وافٍ، إذ لم يشغل كل هذا الفيض من ذاكرته، كما يبدو، سوى حيزٍ صغير فقط. لقد

أصمه الضجيج وأعمته الأضواء فانغلق على نفسه حالماً بالسفر.

استغرقت جلستنا الأولى خمس ساعات تماماً، وكان يحدث أحياناً، وبصيغة الحوار، جدل حقيقي، مع أنني نادراً ما صغت أسئلتي. كان في أغلب الأحيان يملي فقط وأنا أنقل النص الذي أعده سابقاً في رأسه. ثم تناولنا في بار الفندق وجبة خفيفة صعد بعدها إلى غرفته للقيلولة. كنت أعتقده منهكاً وسيعطيني موعداً في اليوم التالي، لكن على العكس من ذلك اقترح أن نلتقي مساءً بعد الساعة السادسة.

لقد فقدت أنا نفسي في الغرب عادة القيلولة، لذا خرجت لأجلس في أحد المقاهي، أنظم ملاحظاتي قليلاً، ثم عدت لأطرق بابه في الساعة المحددة.

كان مرتدياً ثيابه، ينتظرني متجولاً في الغرفة، وبدت جمله الأولى جاهزة.

في فرنسا، كنت أستطيع أخيراً تحقيق أحلامي الخاصة، تناول الطعام على طاولتي الخاصة، وأنا لا أقول هذا بالمعنى المجازي فقط. أتذكر المرة الأولى التي جلست فيها لتناول الطعام على مصطبة إحدى الحانات الصغيرة وتحت أفريز. كان هذا في مرسيليا، بعد وصول المركب بقليل، وقبل أن أستقل القطار للذهاب إلى مونبيلييه. كانت الطاولة صغيرة ذات خشب سميك، وتحمل آثار سكين. قلت لنفسي: السعادة! السعادة بأن يكون الإنسان بعيداً! السعادة في ألّا يجلس الإنسان على طاولة العائلة! لا مدعوون يحاولون الظهور من خلال ثرثرتهم أو معارفهم، لاحضور لشبح الأب، لا نظرة تغوص في نظرتي، في صحني وفي أفكاري. لم أعش طفولة

تعيسة، لا أبداً. فقد كنت مدللاً محمياً من العوز. إنما دائماً تحت ثقل نظرة، نظرة محبة قوية، نظرة أمل، لكنها نظرة متطلبة ثقيلة ومضنية.

كان ذلك اليوم في مرسيليا، يومي الأول على تراب فرنسا، شعور بالخفة. مرت ثلاث فتيات قريباً جداً مني، أمام المصطبة، كن يرتدين فساتين واسعة وقبعات غريبة من القش، وكأنهن قد هربن من عيد ما أو من لوحة، كن يضحكن. لم تنظر إليّ أية واحدة منهن، إلا أنه كان لدي انطباع بأنهن كن يتنكرن ويتبخترن من أجلي.

قلت لنفسي وبثقة إني سأتعرف على امرأة أكثر جمالاً من الفتيات الثلاث. أجمل فتاة على الإطلاق. سنحب بعضنا، وسنبقى لساعات متعانقين، وسنتنزه على الشاطئ متشابكي الأيدي. وعندما سأصعد إلى المركب بعدما أتم دراستي ستمسك بذراعي، ورأسي يميل إليها كي أتنشق بعذوبة رائحة صِدارها.

من كان ليتوقع أني سأعود من فرنسا بعد ثماني سنوات على المركب ذاته دون شهادة الطب، لكِنّي متوّج بهالة القديس المتمرد... كان هذا حلم أبي وليس حلمي!

حصلت في مونبيلييه بسرعة على سمعة «الطالب المجتهد» بين طلاب الطب. لم أدرس أكثر من الآخرين، لكني درست بشكل أفضل. علمني أساتذتي الصرامة، وألّا أكتفي أبداً بنصف فهم. خذ الوقت الكافي، لكن افهم واستوعب. وفضلاً عن ذلك كنت أتمتع بذاكرة لاتخطىء،

ويعود فضل ذلك في جزء منه إلى أساتذتي، كل ما أدرسه لا أنساه أبداً.

لا أروي هذا تباهياً، وعلى أية حال، ماذا يعني أن أكون متألقاً في دراستي، ما دمت لم أصبح طبيباً أبداً؟. إذا كنت أتكلم عن الدراسة فلكي أوضح بأنني ومنذ لحظة وصولي قد اكتسبت بعض الاحترام. كنت إلى حد ما العبقري الغريب، وأصغر زملائي سناً وأنال رغم ذلك أفضل العلامات دائماً. كنت من جهة أخرى بشوشاً، مبتسماً، خجولاً دون إفراط، ورفيقاً جيداً بشكل عام. كنت سعيداً جداً في هذا العالم الجديد، وفي الحقيقة، لا شيء كان يبهرني، لكن كان لدي طائفة من الاندهاشات الصغيرة.

عماذا كنا نتحدث؟ عن دروسنا غالباً، وعن الأساتذة والتلاميذ ومشاريعنا في العطل. كنا نتحدث بالتأكيد عن الفتيات لأننا كنا بحكم العادة بين صبيان. وكنت أصمت فوراً مذهولاً بعض الشيء. ما كان بوسعي أن أقول؟ كان الآخرون يسردون مغامراتهم الحقيقية والوهمية، ولم يكن لدي سوى أحلامي والرغبات التافهة لمن هم في عمري. كنت أستمع إليهم، أضحك معهم، وأحمرّ خجلاً أحياناً عندما يتحدثون ببعض الدقة عن أجساد النساء.

لم أكن أتدخل أبداً عندما كان يتحدث رفاقي عن «الظرف الراهن». تتدفع أسماء لا أعرف أكثرها... دالادييه، شوتان بلوم، ماجينو، سيغفريد، فرانكو، آثانيا، ستالين، شامبرلين، شوشنيغ، هتلر، أورسي، بينيس، زوغو، موسوليني... كنت أعرف القليل عن هذا العالم لكنني كنت واثقاً أن معرفتي به

أقل من معرفة الآخرين. كان الجميع واثقين بما يدّعونه. أما أنا، الغريب، القادم الجديد، فقد كنت أكتفي بالإصغاء. متنبهاً أحياناً، سارحاً بأحلامي أحياناً أخرى، وذلك تبعاً لكثافة الأحداث وتشابك القضايا. كان التوتر يتصاعد ثم يهبط فيما بعد تبعاً للمؤتمرات العالمية والبيانات الملهبة وتحركات الجيوش بشكل خاص.

لا، بالتأكيد لم أكن لامبالياً، وكيف أستطيع أن أكون كذلك، كنت أعرف من الأمور أكثر مما كنت أظهره لرفاقي. لكن كانت لديهم طريقتهم في النقاش، كانوا في بلدهم... ثم كان لدي عادة الإصغاء بصمت، فعلى طاولة العائلة، كنت محاطاً دائماً برجال أكبر مني وأكثر خبرة وثقة بالنفس. وإذا كان لدي رأي في ما يقولون، أصوغه في رأسي. بالإضافة إلى ذلك، كنت أغتاظ كثيراً عندما كان أبي يطلب مني فجأة: «وأنت يا «عصيان» ما رأيك بهذا؟». لأنه حينها، كالسحر، لاأعود أفكر بشيء، يخيم السواد على عقلي ولايعود هناك أي ترابط بين الكلمات، فاتفوه بالتفاهة. ويعود الضيوف للنقاش فيما بينهم.

في المقابل كان لدي، في مونبلييه، مجالي الذي يصغي إليّ فيه رفاقي والذي حصلت فيه على بعض الاحترام. عندما كنا نتحدث عن دراستنا التي كانت المحور الرئيسي لاهتماماتنا، كان رأيي راجحاً، يحترمه الآخرون، حتى لو كانوا أكبر مني سناً. عند التحدث في البيولوجيا أو الكيمياء، لم يكن هناك أي فرق بين غريب وابن البلد...

هل تألمت لكوني غريباً؟ في الحقيقة، لا. وإن أعطيتك

هذا الانطباع، فلأني لم أعبّر بشكل جيد، فكوني غريباً كان حقيقة من حقائق وجودي التي عليّ مراعاتها. مثل كوني ذكراً بدلاً من أنثى ولدي من العمر عشرين عاماً بدلاً من عشرة أو ستين لم يكن ذلك بحد ذاته أمراً فظيعاً، بل كان يعني أن أقول أشياء أو أقوم ببعض الأمور بدلاً من غيرها. لديّ أصولي وتاريخي ولغاتي وأسراري، وعدد لايحصى من مواضيع الفخر ولربما أيضاً سحري الخاص... لا، لم يكن يزعجني كوني غريباً أبداً، بل كنت بالأحرى سعيداً لكوني لست في منزلي.

كنت أحياناً أحنّ لبلادي، هذا أكيد. لكن ليس لمنزل العائلة. لم أكن في عجلة للعودة إليه. وهكذا في الصيف الأول كان متفقاً أن أعود لأمضي فيه شهراً أو شهرين، لكن عند اقتراب العطلة، كتبت إلى أبي لأقول له أني سأتوجه على الأغلب لزيارة المغرب والجزائر. كانت لدي رغبة في اكتشاف تلك الأقطار التي كنت أشعر بها قريبة مني والتي لم أعرفها إلا من خلال الكتب والصور. إلا أنني لم أذهب إليها أبداً، فقد تعرضت لمشاكل صحية أجبرتني على البقاء في غرفتي طوال الصيف.

مشاكل غريبة في الحقيقة. كانت تنتابني في بعض الأحيان نُوب سعال وصعوبة في التنفس ليلاً. لم يفهم الأطباء شيئاً، كانوا يتكلمون أحياناً عن الربو، وعن السل أحياناً أخرى. لم يقتنعوا أبداً بأنه لم يكن لدي أي شيء من هذا قبل مجيئي إلى فرنسا. ولوهلة تساءلوا إن لم يكن كل هذا مصطنعاً.

لم يكن كذلك أبداً، لا أبداً، ستفهم ذلك... لكن دعني أتابع في رأسي أولاً وقائع ذاك العصر، سأفعل ذلك بسرعة. ابتعدت الحرب عن ميونخ في أيلول 1938 . واقتربت من براغ في آذار 1939 . ما عاد أحد يشك في ذلك. وكان أغلب الشباب من حولي يتنافسون حماساً ليتكلموا عن قوة جيشهم وعجز جيش العدو الذي سرعان ما سينفّس ويظهر على حجمه العادي. كان من السيئ قول شيء آخر.

هل كنت أريد قول شيء آخر، أنا نفسي؟ بصراحة، لا، ليس في ذلك الوقت. أعترف بأنني كنت أصغي إليهم بسرور، وبأنني كنت سعيداً بمشاركتهم إيمانهم. مثلهم كنت واثقاً بالجيش، ومثلهم بكيت في حزيران 1940 ، عند الاجتياح الألماني. كنت منهكاً. فجأة ما عدت غريباً على الإطلاق. كان ثمّة جنازة وكنت فرداً من عائلة المتوفى. كنت أبكي وأحاول مواساة الآخرين، بينما الآخرون يحاولون مؤازرتي.

عندما تكلم «بيتان» أصغينا إليه. قال ما معناه: لقد جرت الأحداث كما لا نشتهي ونحن نجتاز اليوم اختباراً شاقاً، لكنني سأبذل ما بوسعي لكي أجنبكم الأسوأ. هكذا فهمناه.

أما فيما يخص ديغول، فلم أسمع نداءه، ذلك اليوم المشهور من حزيران، كما لم يسمعه أحد من أصدقائي. لكننا عرفنا مضمونه بسرعة، في اليوم التالي على ما أعتقد. لم نشعر حينذاك بأن علينا الاختيار، فمن جهة، يجب إنقاذ مايمكن إنقاذه، ولهذا من الأفضل كسب الوقت مع المنتصر، وهذا ما كان يفعله بيتان. ومن جهة أخرى، يجب التحضير للثأر القادم بدعم من الحلفاء، دون تسوية أو تنازل، وهذا ما كان يفعله ديغول في لندن. كانت تلك الرؤية تشد قليلاً من

عزيمتنا، نحن الذين أعلنّا الحداد. كم استمرت؟ بالنسبة لبعضنا أربع سنوات، ولبعضنا الآخر أيام.

بالنسبة لي، استمرت فصلاً، ذاك الصيف وحتى تشرين الأول. مازلت أذكر ذلك الحادث الذي قلب حياتي. في مشرب البيرة في مونبلييه، الذي يدعى «بالون دالزاس». جلسة نقاش حول كأس من البيرة، كان بامكاني مرة أخرى أن أكون مجرد مشاهد صامت، ولكني لم أعرف كيف أصمت في ذلك اليوم. كلمة إضافية، نظرة إضافية، كأس إضافي... من يستطيع معرفة مكائد القدر؟

كنا ستة أو سبعة حول الطاولة. وقد أُعلن للتو في «ڤيشي» القانون المتعلق بوضع اليهود الذي حدَّد من بين أمور أخرى المجالات - مثل التدريس - التي سيُبعدون من الآن فصاعداً عنها. كان أحد الطلاب، يوضح إلى أي درجة كان ذلك القانون حاذقاً. مازلت أذكر ذلك الطالب، أذكر وجهه، فقد كان أكبر منا سناً، له لحية صغيرة ويحمل دائماً عصا بيده. لم يكن من أصدقائي الذين ألفتهم، لكنه كان ينضم إلينا أحياناً بعد المحاضرات. وحسب قوله، طلب الألمان من «بيتان» أن يدعهم يدخلون «المنطقة الحرة» «ليهتموا» بأمر اليهود الذين يعيشون هناك. اشتم المارشال رائحة المناورة، فقطع عليهم الطريق وأعد بنفسه ذلك القانون.

ولسروره بمنطقه، أفرغ الشاب كأساً من البيرة، طالباً كأساً أخرى بحركة من إصبعه، ثم استدار نحوي وراح يتفرسني. لِمَ أنا؟ لم أكن أجلس في مواجهته، لكن شيئاً ما في عيني جعله يتكدر. «ما رأيك يا كتابدار؟ لانسمعك أبداً! تكلم ولو لمرة واحدة، اعترف بأنه حاذق!».

وبدأ الآخرون ينظرون إلي بإلحاح، حتى رفاقي الأكثر قرباً باتوا يرغبون بمعرفة مايخفيه صمتي. إذاً حتى لا أفقد مكانتي، تكلمت «لمرة واحدة»، مستخدماً الصوت الأكثر تواضعاً، وقلت هذا تقريباً: «إذا فهمتك جيداً، فإن هذا شبيه برجل يدخل الآن إلى هذه الحانة مزوداً بهراوة ليصرعك. أراه يقترب، فأتناول هذه الزجاجة وأحطم جمجمتك. يرى الرجل بأنه لايستطيع فعل شيء هنا، فيهز كتفيه ويرحل، وانتهت القصة».

ولأنني كنت أتكلم دون أن أبتسم وبصوت خاضع ومتردد كصوت تلميذ يجيب مدرّسه، لم يفهم محاوري فوراً بأنني كنت أسخر منه. وكان قد بدأ يقول: «نعم، برافو، هذا...». عندما بدأ الآخرون يقهقهون من حولنا، احمرّ خجلاً وتشنجت يداه على الطاولة. لم يثر أي شجار، لا، بل تفوّه بقذارتين، ثم حرّك كرسيه محدثاً جلبة وأدار لي ظهره. وانسحبتُ بعد ذلك بقليل.

لم يكن ذلك سوى شجار صبية، أليس كذلك؟ لكنّه هزّني تماماً. لدي شعور بأني تكلمت مستخدماً مكبراً للصوت، وبأن المدينة بأكملها سمعتني.

ربما يشعر شخص آخر بالراحة لأنه أفرغ «ما في جعبته» كما يقال... ليس أنا! كنت ساخطاً، ساخطاً على نفسي، كنت هكذا مع نفسي غالباً، أبقى صامتاً وقتاً طويلاً من الزمن، لدرجة أن أنسى طعم الكلام، وفجأة ينهار الحاجز فأصب كل ما كبتّه، ثرثرة لايمكن كبحها، أندم عليها قبل أن أعود للصمت من جديد.

في ذلك اليوم في أزقة مونبيلييه، لم أتوقف عن توبيخ نفسي. كان علي أن أضبط نفسي! عليّ أن أتعلم السيطرة على مشاعري! لاسيما في زمن الحرب عندما يكون الناس مضطربين. كنت أمشي في المدينة ولا أرى أي شيء أو أي شخص أمامي من شدة ندمي.

كنت قد استأجرت غرفة في عليّة رحبة وقليلة الأثاث لأحد المنازل، لدى سيدة تدعى بيروا وكنت، وأنا أصعد الدرج الذي لاينتهي وأضع المفتاح الضخم في القفل، أوبخ نفسي أكثر فأكثر. لن أذهب إلى تلك الحانة بعد الآن! لن أسمح لنفسي أبداً بالدخول في شجار مماثل! ألم أقطع على نفسي وعداً بأن أكرس كل وقتي للدراسة، للدراسة فقط. لقد أخطأت حين نسيت أنني في بلد غريب. والأكثر من ذلك، بلد مهزوم، نصفه محتل، منهك وحائر.

كنت قد فتحت لتوي وبغضب درس علم الخلايا، مصمماً أن أغرق نفسي فيه. عندما طُرق بابي. كان أحد الذين لمحتهم ذلك اليوم في الحانة، جالساً على طاولة مجاورة لطاولتنا، يرافقه ابن صاحب الحانة، قال: «لقد تبعتك منذ خروجك من الحانة». كانت عنده على الأقل فضيلة الصراحة. «لقد سمعت نقاشكم، اعذرني، كنت قريباً جداً، وأنتم تتكلمون بصوتٍ عالٍ في موضوع يهمني... ويهم كل واحد منا، كما أفترض».

لم أقل شيئاً. بقيت متحفظاً، أراقبه. وجهه نحيف وشعره أشعث شديد السواد. تنشب من وسطه خصلة تشبه العرف، يلهو بسيجارة من ورق أصفر، لم يشعلها، بل كان يسحقها أحياناً بين أصابعه، ويعضها أحياناً أخرى. آنذاك كان عمري إحدى وعشرين عاماً، بينما عمره يقارب الثلاثين.

«لو أردت التدخل في الحديث لعبّرت عما قلته للتو بالطريقة نفسها، وكلمة كلمة». كان وجهه يشع بابتسامة مشرقة لكنها عابرة. «لكني أفضل الصمت في الأماكن العامة على الأقل. إن هؤلاء الذين يتكلمون بصوت عال يحرمون أنفسهم من العمل. في هذه الأوقات العصيبة، على المرء أن يزن كلامه ويعرف إلى من يوجهه، وأن يعرف في كل لحظة ماذا يريد وإلى أين يذهب. مازال كل شيء ممكناً، لم نخسر شيئاً بعد، لكن بشرط أن نبقى متضامنين وحذرين».

قدم لي يده وقدمت له نفسي:

«اسمي كتابدار».

«نادني برتران!»

أبقى يدي في يده طويلاً كمن يؤكد اتفاقاً ضمنياً. ثم فتح الباب ليخرج.

«سأعود لأراك ثانية».

لم يقل لي الكثير، ومع ذلك كانت زيارته القصيرة تلك تاريخ دخولي المقاومة. أتعلم ما كان الكلام الأكثر قيمة والذي بقي في ذاكرتي حتى هذا اليوم، وبنبرته الأصلية؟ «نادني برتران!» لقد أعطيته اسمي الحقيقي، بينما لم يعطني سوى اسم مستعار. كان في الظاهر يتخفى: لكن الحقيقة،

كانت على العكس تماماً، إذ كان يفضح نفسه، فبكلمته «نادني...»، كان يريد القول: إن هذا ليس إلا اسماً حركياً ناديني به أمام الآخرين وكأنه اسمي الحقيقي. أما بالنسبة إليك، وقد أصبحت من الآن وصاعداً واحداً منا، فلست بحاجة لأن أقدم الكذبة كحقيقة.

لم أكن قد فعلت شيئاً بعد، لكني شعرت بأنني تغيرت. كان لدي شعور بالسير بشكل مختلف في الشوارع، بأني أرى وأُرى بشكل مختلف، بأني أعبّر عن نفسي بشكل مختلف. كنت أسرع بعد الدروس بالعودة إلى علّيتي لأنتظر برتران، وكنت أتخيل كل صرير لخطوة على الدرج الخشبي، حركة باتجاه الباب.

لم أنتظر طويلاً. فقد أتى إليّ في اليوم الثالث. جلس على الكرسي الوحيد وأنا على السرير. «الأنباء ليست سيئة إلى هذا الحد فالطيارون الانكليز يصنعون المعجزات». وأعطاني بعض أعداد الطيارات المسقطة وهذا ما أبهجنا كلينا. كما أنبأني بأن الانكليز قد قصفوا شيربورغ، ولم يكن يبهجه ذلك إلا قليلاً. «عسكرياً، كان ذلك ضرورياً بالتأكيد، ولكن يجب ألا يخطئ شعبنا عدوّه...». ثم طرح عليّ بعض الأسئلة عن أصلي وعن أفكاري. ضمنياً، كنت أعرف تماماً بأن ذلك نوع من امتحان الدخول، إلا أنه صاغه وبكامله كحديث بين أصدقاء يريدون التعرف على بعضهم البعض.

أحد أجوبتي جعله يرتجف. ربما صغته بأسلوب أخرق. فقد قلت له إنّ النزاع الدائم بين فرنسا وألمانيا لا يعنيني، أو في جميع الحالات ليس كافياً لإثارتي. كنا في عائلتي ندرس

تقليدياً الفرنسية والألمانية في الوقت نفسه وذلك منذ أن تزوج جد جد جدي الأكبر من مغامِرة بافارية، ولدينا الاحترام ذاته للثقافتين كلتيهما. أعتقد بأني تكلمت تاركاً نفسي تنقاد وراء قولي، ومتجاوزاً أفكاري بعض الشيء، إن كلمات الاحتلال والمحتل، لم تكن تثير لدي الانفعال المباشر نفسه الذي يمكن أن تحدثه لدى الفرنسي. لقد أتيت من منطقة في هذا العالم، حيث لايوجد، وخلال التاريخ بطوله إلا احتلالات متتابعة، كما أن أسلافي قد احتلوا، ولعدة قرون، أكثر من نصف حوض المتوسط. وما كنت أمقته، بالمقابل، هو الحقد والتمييز العنصريين. أبي تركي وأمي أرمنية، وإذا استطاعا أن يقفا جنباً إلى جنب في وسط المذابح، فذلك لأن رفض الحقد كان يجمع بينهما. وعنهما ورثت هذا، هذا هو وطني. لقد كرهت النازية، ليس في اليوم الذي غزت فيه فرنسا ولكن في اليوم الذي غزت فيه ألمانيا. ولو أنها ظهرت في فرنسا أو روسيا أو حتى في وطني فسأكرهها القدر نفسه.

وقف برتران وشدّ على يدي للمرة الثانية، قائلاً «فهمت!»، بصوت منخفض ودون أن ينظر إليّ، كما لو كان يقدم تقريراً لسلطة خفية ما.

لم يقل لي شيئاً عن نشاطه، عن تنظيمه إن كان عنده تنظيم، أو ماذا ينتظر مني. ولم يقل أبداً هذه المرة إن كان سيعود لرؤيتي. وكما ترى، كانت بداياتي في المقاومة فاترة جداً.

عاد بعد شهر، وعندما لمته بلطف لأنه تركني بدون

أخبار، ابتسم ابتسامة رضى، ثم أخرج من جيبه علبة تحوي أوراقاً صغيرة يميل لونها إلى الأزرق، لم أكن أعرف أنهم يطلقون عليها اسم الفراشات. أعطاني واحدة منها لأقرأها، وكانت تقول ببساطة «في الأول من تشرين الثاني، أسقط طيار فرنسي طائرة مائية ألمانية، مع أي جهة أنت؟» وفي الأسفل، عند الزاوية إلى اليمين كلمة «حرية» مع إشارة تعجب ومحاطة بهلالين، حتى يُفهم جيداً بأنها لاتدل فقط على الصرخة، بل هي توقيع أيضاً.

«ما رأيك؟».

وبما أني كنت أبحث عمّا أقول أضاف: «هذا ليس سوى بداية».

ثم شرح لي الطريقة التي علي أن أبدأ بها. دُسّ الأوراق الصغيرة سراً في صناديق الرسائل أو تحت الأبواب وفي كل مكان تقريباً، لكن ليس في الكلية، ليس بعد، أو في الحي الذي أسكن فيه وذلك حتى لا أثير الشكوك. كنت أعتبر تلك المهمة الأولى تدريبياً، الأهم هو ألاّ أُكشف. «يوجد مئة فراشة، ضعها في جيبك، وزعها حتى آخر واحدة منها، وبشكل خاص، لاتُعِدْ أية واحدة منها إلى منزلك. لكنك بلى تستطيع الاحتفاظ بواحدة منها، واحدة فقط، لكن وسّخها لتبدو كأنك التقطتها من الشارع. ولاتعد إلى منزلك أبداً مع رزمة. أما تلك التي لم تتوصل إلى توزيعها، فارمِ بها».

اتبعت تعليماته بحرفيتها، ولم تسر الأمور بما لا يرام. ومرة بعد أخرى، كان برتران يعطيني فراشات أو منشورات بنصوص أكثر إسهاباً، وكان يجب توزيعها أو لصقها على

الجدران، وهذا ما لم يكن يسرني كثيراً، لأنه يحتاج للغراء ومهما بلغت مهارتنا كنا نلوث كل شيء خاصة الأيدي والثياب، فلو قبض علينا لكانت أدلة الجريمة لاصقة بنا، بشكل أو بآخر. لم أكن أحب ذلك كثيراً، لكنني لم أتوان عن القيام به. لقد قمت بكل شيء تقريبياً فيما يخص العمل الدعائي، ومنها الكتابة بالطبشور بشكل سري على جدران المدينة وهذا أيضاً يترك آثاراً على اليدين وفي عمق الجيوب.

من يصدق أنني عند مجيئي إلى فرنسا، قطعت وعداً على نفسي بألا أقرأ حتى الصحف! لقد تسرعت كثيراً في القَسَم. فبحكم نشأتي وتربيتي لم أكن أستطيع البقاء لامبالياً حيال ما يجري. لكن كان لا بدّ من بعض الظروف أيضاً. وهكذا وبعد الشجار الذي حدث في مشرب البيرة، صممت، قلت لك، على ألّا أسمح لنفسي أبداً بالتورط في نقاش مماثل، وجهزت نفسي لاتخاذ قرارات رسمية... إلى أن جاء برتران. إنها المصادفة أليس كذلك؟ أو إذا أردت، العناية الإلهية. لو لم يكن وقتها في المشرب لقضيت الأشهر التالية غارقاً في دراستي. كان يجب أن يحضر إلى تلك الحانة ويجلس على الطاولة المجاورة ويستمع إلى حديثنا، وأن يتبعني، وأيضا أن يجد الكلمات المناسبة لـ «يجندني» بلطف. لو سألني إن كنت أريد الالتزام، لطلبت منه فرصة للتفكير، وربما انتهيت إلى الرفض. لكنه تصرف بمهارة لدرجة أنني لم أطرح على نفسي، في أية لحظة هذا السؤال بوضوح: هل أنا بصدد الانخراط في شبكة للمقاومين؟

كان كل شيء يتقدم معه بدفعات غير محسوسة. وفي أحد الأيام، بعد أن أصبح لي مجموعة من العمليات الصغيرة، مرَّ إلى منزلي وثرثرنا بأشياء متعددة، ثم قال لي وهو يتهيأ للخروج : «عندما سأتكلم عنك لرفاق آخرين، من الأفضل ألّا أستخدم اسمك الحقيقي. ماذا سندعوك؟» أعطاني انطباعاً بأنه يبحث عن اسم ما في رأسه. وفي الحقيقة، كان ينتظر اقتراحاً من قبلي، فقلت: «باكو». من الآن فصاعداً بات لي اسم حركي.

باكو، نعم، مثل اسم المدينة، لكن دون أية علاقة بها. كان في الحقيقة اسماً أحبه، أطلقه عليَّ جدي نوبار، هو فقط ولا أحد غيره. في الأصل، كان يدعوني أباكا ويعني بالأرمني مستقبل، وسيلة للتعبير عن كل الآمال التي وضعها بي، هو أيضاً! ومن ثم ومن ملاطفة لأخرى أصبح الاسم «باكو».

الآن، لكل الناس في الشبكة التي يترأسها برتران أسماؤهم الحركيّة ومهماتهم المحددة. لقد انتهى العصر المتلعثم للفراشات والكتابات على الجدران، وانتقلنا إلى مرحلة أعلى، فقد أصبح لدينا صحيفتنا الخاصة، صحيفة حقيقية، كتابة وطباعة ونشراً، كل شهر وربما أقل من ذلك إذا اقتضت الأحداث.

كان عنوانها «حرية!»، كذلك كان اسم الشبكة. في تلك الأوقات المظلمة والكئيبة كنا بحاجة إلى الشعار الأكثر ضياءً.

حين صدور العدد الأول كان علي الذهاب لاستلامه في ليون، في شقة فخمة وسط المدينة. يرافقني أحد الرفاق برونو، ابن صاحب الحانة. جريء جداً وناضج، له أنف

مكسور كأنف مصارع، وكان المشي إلى جانبه يعطيني إحساساً مبهماً بالطمأنينة.

وابتداءً من العدد الثاني، وجدنا وسيلة أخرى للتوزيع، فهناك شاحنة لنقل البيرة ستنقل رزم الصحيفة حتى «بالون دالزاس»، لقد كانت وسيلة مبتكرة. كنا نصل إلى الحانة... أقول «نحن» لأنه كان يوجد بالإضافة لي، ثلاثة طلاب آخرين، كان برتران قد جندهم في مونبيلييه، وهي مجموعة صغيرة فعّالة بما فيه الكفاية لكنها سرعان ما ستتفتت. كنا نصل إذاً إلى الحانة فيشير إلينا برونو وندخل إلى القبو، حيث يأخذ كل واحد منا ثلاثين أو خمسين نسخة، ومن ثم نخرج دون أن يلاحظنا أحد.

طُبِّق هذا الأسلوب المبتكر دون صعوبات خلال سنة كاملة. وكنت أسمع الناس في الجامعة، وفي كل أنحاء المدينة تقريباً، يتحدثون عن «حرية!» ويعقبون على مواضيعها، ويسألون بعضهم بعضاً إن كانوا قد وجدوا العدد الأخير منها في صناديق رسائلهم. كان الرأي العام يتحرك وشعرنا به. كان بيتان لايزال محترماً من قبل أغلبية الناس، لكن لم يكن أبداً احتراماً لنظامه أو وزرائه. وكان الذين يدافعون عنه يضطرون للقول إنه لم يعد حراً في تحركاته، وإن كِبر سنه وجداول خدمته تبرر له بعض التجاوزات.

كنت أعتقد بأن لا أحد خارج المجموعة يرتاب بأنشطتي. إلا أنني فقط وفي أحد الأيام، عند وصولي إلى «بالون دالزاس» لأستلم العدد الأخير كعادتي، رأيت شاحنة

البيرة محاطة بثلاث سيارات من الشرطة، وعناصر تضع على رأسها الكبّية(*)، تروح وتجيء ناقلة الرزم. كانت الحانة تطل على حديقة عامة صغيرة مغروسة بأشجار الدلب، يضع صاحب الحانة الطاولات تحتها عندما يكون الطقس جميلاً وهادئاً. كان من الممكن الوصول إليها عبر ستة أزقة مختلفة. وكاحتياط أولي، كنت أتجنب المجيء من الزقاق ذاته دائماً.

وفي ذلك اليوم، اخترت ممراً مطلاً من بعد كافٍ على الحانة، وهذا ما سمح لي بمراقبة ما يجري، في الوقت المناسب، وأن أعود أدراجي دون أن أُكشف. عدت مباشرة وبدأت السير ببطء، تسارعت خطاي. كنت أركض تقريباً.

كان يعتريني، عدا الشعور بالخوف ومرارة الخيبة، شعور بالذنب. تنتابنا هذه المشاعر في مواقع كثيرة، إلا أن شعوري في ذلك اليوم كان أكثر من شعور عابر. كنت أتساءل دون توقف إنْ لم أكن أنا من كشفته الشرطة وتتعقبه الآن. وإن لم يكن قد تم كشف مخبأ الحانة بسبب خطأ مني.

لِمَ أنا؟ لأن حادثاً وقع قبل عدة أسابيع أقلقني في ساعته، إلا أنني قررت ألاّ أوليه أية أهمية.

عند خروجي من منزلي، بعد ظهر أحد الأيام، التقيت وجهاً لوجه شرطياً ببزته النظامية وهو يقوم بالمراقبة بشكل فاضح. اضطرب عندما رآني وحاول الاختباء تحت الدرج. احترت في أمره وقلت إن عليّ أن أتيقظ إلاّ أنني انتهيت بهزّ كتفي غير مكترث. لم أتحدث عن هذا مع برونو أو مع برتران،

(*) قبعة فرنسية الأصل.

لكنني نادم على ذلك الآن، فقد سبب لي هذا عذاباً حقيقياً.

إذاً وفي ذلك اليوم، وأنا أبتعد عن الحانة، توجهت تلقائياً إلى الحي الذي توجد فيه غرفتي التي استأجرتها والواقعة قرب ساحة المسرح وهي الساحة التي يدعونها في مونبيلييه «البيضة».

ولكن، هل كان هذا أفضل ما يمكنني فعله؟ في الواقع، كنت أستطيع الاختيار بين ثلاث طرق كرد فعل على ما حدث.

أستطيع الاختفاء في الحقل، ثم الإسراع باتجاه المحطة لأستقل أول قطار وأهرب دون وجهة محددة، وذلك أفضل من اعتقالي.

كما أستطيع أيضاً أن أهدأ أو أدخل إلى غرفتي متخلصاً من كل ورقة خطرة، وأستعيد حياتي الطبيعية آملاً بأن أحداً لن يذكر اسمي وبانه لن يتم التعرّض لي.

ويوجد أخيراً حل وسط: أدخل إلى غرفتي وأرتبها، ثم أحزم بعض الأمتعة التي يمكن أن أحتاجها وأقول للسيدة بيروا، المالكة، بأنني مدعوّ من قبل أصدقاء إلى الريف، وهذا ما سيسمح لي بالابتعاد ثم العودة بعد عدة أيام دون إثارة الشك باختفاء مفاجيء.

وأخيراً توصلت لأن أختار الموقف الثالث كحل وسط بين الهلع والثقة المفرطة. مشيت بشكل متعرج قليلاً على الطريق وذلك كي لا أجعل مهمة من يتبعني سهلة، ثم دُرْتُ حول «البيضة»...

رأيت على بعد بضعة أمتار من منزلي شرطياً ببزة رسمية

يدخل إلى البناء، كان لدي الوقت الكافي لأتعرف عليه من الندبة الداكنة التي تعلو وجهه والممتدة من الفك حتى زاوية العين، إنه الشرطي نفسه الذي رأيته المرة السابقة! درت على أعقابي، واتجهت مباشرة إلى المحطة.

إلى أين أذهب؟ لم يكن لدي سوى عنوان واحد، وهو عنوان الشقة البرجوازية في ليون، التي ذهبت إليها منذ عدة أشهر مع برونو لكي أستلم الصحيفة. كان يسكنها زوجان شابان، دانييل وإدوارد، وبقليل من الحظ، قد يكونان هناك، ويعيدان الاتصال بيني وبين برتران وبقية أعضاء الشبكة.

كانت التاسعة تماماً عندما طرقت بابهم ذلك المساء. دعاني الرجل إلى الدخول بحركة مرتبكة، فذكّرته بلقائنا السابق شارحاً له ما حدث. هزّ رأسه، كان لطيفاً لكنْ جافاً قليلاً وقلقاً، ولاسيما بشأن معرفة ما إذا كان قد تبعني أحد. وكان جوابي «لم أشعر بذلك». مطّ شفته كأنّه يقول: «الشعور غير كافٍ أبداً»، ثم دخلت زوجته فيما بعد وهي أكثر بشاشة «عليك ألا تقلق بسرعة، كل شيء سيكون على ما يرام، لم تتناول عشاءك كما أظن...». كانوا ثلاثة على الطاولة: مضيفاي وفتاة شابة.

قدّمت الشابة نفسها، كان اسمها مركّباً لفظته بشكل ملتو، من الواضح أنه اسمها الحركي، ثم قدمت نفسي بدوري «باكو». قالت مضيفتنا: «باكو، اسم جميل».

«اختاره لي جدي، وهو تصغير لكلمة تعني «مستقبل». كان مقتنعاً بأن ترداد هذا الاسم سيكون رجاءً موجهاً إلى العناية الإلهية لكي تمنحني المستقبل الأفضل».

قالت الفتاة بدهشة «هل تريد القول بأنه اسمك الحقيقي؟»

«لا، الاسم مزيف لكن القصة حقيقية».

ولعدة ثوان، كان الجميع يحدق بي، ثم بدأنا نضحك من قلوبنا. وبعد ذلك، قالت الضيفة: «لم أضحك هكذا منذ أشهر».

قالت ذلك وهي مستمرة في الضحك، إلاّ أنَّ الآخَرَين توقفا عن الضحك فجأة.

كان الحديث، وحتى انتهائنا من وجبة الطعام، يدور حول الحدث الرئيسي في تلك الفترة: معركة سيباستيبول وإعلان برلين عن إخماد كل مقاومة روسية في المدينة. كان مضيفاي متفقين على القول إنه رغم التقدم الألماني فإن فتح الجبهة الشرقية المتزامن مع دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب، والذي ستبدأ مفاعيله بالظهور، يسوّغ كل الآمال. وتنبأت من خلال بعض طروحاتهم، بأنهم ذوو ميول شيوعية، وهذا ما أدهشني قليلاً، إذ أن صديقنا المشترك برتران، كان ديغولياً كاثوليكياً، ولم يكن يتكلم عن الشيوعية إلا ببعض الحذر.

بعد انتهاء العشاء، دخل إدوارد إلى غرفته، وقادتني دانييل إلى الغرفة التي سأنام فيها حيث كانت على السرير بيجاما تعود لإدوارد ومنشفة نظيفة. ثم اقترحت علينا، أنا والضيفة، تناولَ كأسٍ من الكونياك في الصالون.

لقد أثارت تلك الشابة اهتمامي، إذ كانت رقيقةً، شعرها قصير شديد السواد وعيناها خضراوان فاتحتان مشدودتان قليلاً تضيقان عندما تضحك. وجه شاب وناعم وحول عينيها كانت تظهر كلما أغمضتهما، حزمتان من التجاعيد الصغيرة كأشعة شمس مضاعفة. كنت أحاول قدر الإمكان ألا أنظر إليها كل الوقت، لكن لم يكن سهلاً بالنسبة لي النظر إلى شيء آخر، فكنت أتنقل بنظري ودون توقف، من عينيها إلى شعرها ومن شعرها إلى عينيها. كان يشع منها مزيج من الثقة بالنفس والعذوبة.

كانت تتكلم الفرنسية بشكل صحيح ولكن بلكنة أوضح من لكنتي، لم أتمكن من معرفة أصلها تماماً. كنت أرغب أن أسألها من هي، من أين أتت، لم هي في هذه الشقة، في ليون... لكننا لا نطرح هذا النوع من الأسئلة في الوضع الذي نحن فيه. تكلمنا عن سير الحرب، وضع الرأي العام، روح المقاومة، وعن بعض العمليات النوعية، أما فيما يخص شخصياتنا، فقد اقتصرنا على ذكر أسمائنا الحركية والتنبؤ من خلال أقوالنا ولهجاتنا مكان نشأة كل واحد منّا، وبلده ومقاطعته ووسطه وطائفته.

وصلنا في حديثنا إلى المعركة في شمال أفريقيا وإلى أنباء حديثة جداً تقول بأن موسوليني يحضّر نفسه للدخول ظافراً إلى مصر. أما مضيفتنا التي كانت تتثاءب منذ لحظة، فقد انسحبت بدورها قائلة: «لستما مضطرين للنوم مباشرة، تستطيعان إنهاء كأسيكما بهدوء».

حين خرجت ران الصمت على المكان وبدا صعباً أن نعيد وصل الحديث، لذلك قلت وكأنني أقرأ في كتاب: «في اللحظة التي انسحبت فيها دانييل أخذت معها الحديث سهواً».

فسمعت الضحكة ذاتها التي أطلقتها جارتي على مائدة الطعام، ضحكة فرحة وحزينة في الوقت ذاته، طليقة ومحتبسة. آه إنها أعذب موسيقى في الكون! وتلك العينان اللتان تغوصان في ذاتهما!

قالت فجأة: «بِمَ تفكر؟»

كنت أحتاج كثيراً من الوقاحة لأجيب ببساطة: «بكِ» لكن

كان من الأفضل أن أجيب بطريق غير مباشر:

«إني ألعن هذه الحرب، إذ ماذا لو كنا في هذا الصالون، نشرب هذا الكونياك ونتحدث بأمور وأخرى، دون هذا الكابوس الذي في الخارج، دون هذا الخوف، دون أن نكون ملاحقين...»

قالت: «أنت تعرف، لو لم نكن ملاحقين لما كنا هنا، في هذه الشقة، نشرب هذا الكونياك معاً...»

ساد الصمت فأخفضت عيني لأنها هي التي كانت تحدق بي في تلك اللحظة، وغصت بنظري في القطرة البنية في قعر كأس النبيذ.

فجأة كانت هذه الكلمات وبكل بساطة:

«اسمي الحقيقي كلارا، كلارا إيمدن».

كيف أعبر عما كانت تعنيه لي تلك الجملة في تلك الظروف؟ لقد كنّا بمخالفتنا لقواعد الحذر ندخل في سرّية ثانية سرّية حميمية هذه المرة. غرق كل واحد منّا في أريكته، لكن عبر التفكير، وعبر النظر قليلاً، انجذب واحدنا نحو الآخر.

كشفت عن اسمي بدوري، اسمي الكامل، والكثير من الأمور عن عائلتي وأصلي ودراستي وطموحاتي وأمور أخرى كثيرة، لم أكن قد تحدثت عنها بتلك الطريقة إلى أحد، ولا حتى لنفسي. وبكل صدق، كان بعض ما قلته مدفوناً في نفسي واكتشفته خلال حديثي معها تلك الليلة.

ثم تحدثت عن نفسها وعن طفولتها وعن مدينة غراز في النمسا حيث ولدت، وعن عائلتها. ضحكنا في البداية معاً،

وأبحرنا بأفكارنا واستحضرنا أسلافنا ذوي الميول الغريبة والمهن العجيبة، وكذلك الأسماء التي كانت، ومن بعيد، مبعثاً للحلم: لوبلين، أوديسا، فيتز، بيلسين وميميل، لكن، فجأة، بدأت تتحدث عن شيء آخر، عن أماكن أخرى لم تكن أماكن إقامة أو رحيل، بل أماكن تؤدي إلى الجحيم. كانت الرحلات قد انقطعت كما انقطعت الطرق بين الريف والمدينة ولم تعد القطارات تنتقل من محطة إلى أخرى. تشوّشت جغرافية المكان بحيث لم أعد أستطيع تحديد الأمكنة ولا رؤية الوجوه، كنت أتخيل فقط رجالاً ببزّاتهم الرسمية وآخرين بوضعية السجناء، في منظر عام للسجون والأسلاك الشائكة.

لقد فقدت كلارا كل أثر لأهلها.

يجب ألا يُعتقد بأننا لم نعرف شيئاً في ذلك العصر عن معسكرات الاعتقال، فقد كانت صحيفتنا «حرية!» تهاجم وباستمرار الحملات والمجازر. كنا نعرف الكثير من الأمور، وأكاد أقول إننا كنا نعرف كل شيء تقريباً. كل شيء عدا الأمر الأساسي، كل شيء عدا ذلك الأمر المبهم والذي يصب فيه كل شيء، ذلك الأمر الذي لم يخطر على بالنا قط لأنه كان يبدو بشعاً جداً، حتى بالنسبة للنازية: إرادة الإبادة الشاملة. حتى كلارا التي شهدت كثيراً من الويلات، لم تتحدث عن هذا، كانت تستحضر مشهد التعذيب الأكثر وحشية في التاريخ، لكنها لم تتحدث عن «حل نهائي». لا بد أن يكون في داخلنا شيء من الوحشية حتى نستطيع تخيل احتمال مماثل.

لقد فقدت عائلتها كلها بكل معاني هذه الكلمة، فالبعض

مات وتفرق الآخرون في أماكن الرعب. وربما نجا بعضهم، هذا ما كانت ماتزال تأمله.

عندما اعتقلت عائلتها، كانت عند صديقة كاثوليكية خبأتها ونجحت بتهريبها إلى سويسرا.

أجل في سويسرا. ومن هناك ورغم أنها كانت في أمان تام، اختارت المجيء إلى ليون. فهي لم تكن تتحمل فكرة أن هناك من يقاوم وثمة من يموت من أهلها المقربين جداً، بينما تكتفي هي بالعيش في أمان. وهكذا اتصلت بأحد رجال شبكتنا الذي أمّن لها العبور.

في الليلة التي التقينا فيها كانت تنتظر أوراقاً شخصية، إلى أين ستذهب؟ وبأية عملية ستقوم؟ هنا تتوقف المصارحات. كل شيء عن الماضي ولكن لاشيء عن المستقبل. لكن كان من الواضح أنها أتت من سويسرا الحرّة إلى فرنسا المهزومة لكي تقاوم.

«غداً، سيأتي أحدهم لرؤيتي وتسليمي أوراقي، وأعتقد أنه يريد أن يطرح عليك بعض الأسئلة قبل تجهيز أوراقك. ويبدو أنهم يلقبونه بـ: جاك أبي الأوراق المزيفة».

عندما طرق الباب، في السابعة صباحاً، كنا مانزال، أنا وكلارا نثرثر ولم يكن أحد منا قد تحرك عن أريكته.

أراد الرجل مقابلة كل منا على حدة، ثم رحلت بعد ذلك مباشرة، افترقنا بقبلتين على الوجنتين كرفاق، مع عبارة «إلى اللقاء» مبهمة ومعلقة بحبال المصادفة.

طلب مني جاك أبو الأوراق المزيفة صورة فوتوغرافية، ومعرفة بعض التفاصيل بهدف إعداد هويتي الجديدة، فبالإضافة إلى العمر والبيانات الشخصية، هناك مثلاً اللكنة والدراسة اللتان يجب أخذهما بالحسبان، كما سألني علاوة على ذلك إن كنت مختوناً.

دوّن بعض الملاحظات في مفكرة وتوارى، ثم عاد بعد ثلاثة أيام مع أوراقي وتوضيحات دقيقة تتعلق بحياتي المستعارة، فقد جعلني أولد في بيروت عام 1919 لأب ضابط في الجيش الفرنسي وأم مسلمة، وهذا ما كان يسمح لي بتفنيد مختلف خصوصياتي. الاسم: بيكار، الاسم الأول: بيير إميل. أما مسحة العبقرية فتبدت في المهنة التي اختارها لي: كهربائي وبشكل أكثر دقة «مُصلّح أجهزة طبية»، إذ وجدوا لي رب عمل قرب تولوز، وهو رجل من المقاومة يُصنّع الأجهزة المعدّة للمشافي والعيادات الطبية، ومستعد ليعلن أني أعمل معه وأسكن عنده وأن عليّ التنقل باستمرار لتلبية رغبة زبائنه في إصلاح الأجهزة وتأكيد صلاحيتها وصيانتها في كل جنوب فرنسا. لقد كان ذلك غطاءً ذكياً ومقنعاً: ذهبت لأرى رئيسي الذي علمني حِرَفياً كيفية عمل الأجهزة ونصحني بأن أحفظ عن ظهر قلب ملخصات استخدام الأجهزة.

كان برتران بذاته صاحب فكرة الغطاء تلك، وقد

استوحاها كما يبدو لي، من نشاطي في مونبيلييه. بدا مسروراً أيضاً من الأسلوب الذي اتبعته في مواجهة الخطر، وقرر بأنني مناسب لدور عامل الارتباط أي ببساطة للبريد.

ما الذي كنت أقوم به في الواقع؟ لقد كان من الضروري تأمين الاتصال بين القيادة العامة في شبكتنا ومسؤولي المناطق ومختلف مجموعات المقاومة المعزولة، وكذلك إيصال الأوامر والتوجيهات والطلبات والمعلومات والمستندات والأوراق المزوّرة ونادراً، سلاح يدوي ومشط ذخيرة. إذاً، كنا بحاجة لعدد من الشبان الموثوقين والنشيطين والذين يحسنون التصرف. ويبدو أنني كنت أحمل تلك الصفات، فابتدع لي برتران ذلك الغطاء المثالي. هكذا أستطيع أن أتجول في البلاد طوال الوقت حاملاً محفظة مليئة بالنشرات الدعائية وملخصات استخدام الأجهزة. ولكي يكون الحظ إلى جانبي، كنت أرصد في كل جولة لي، عيادة طبية أستطيع الذهاب إليها لفحص الأجهزة، هذا ما كان يؤدي بي غالباً لإنجاز بعض الإصلاحات الحقيقية.

عليّ القول بأن نظام عملي كان فعّالاً، فإنْ وجدتُ رسالة هامة يُعهد بها إليّ، إلى باكو...

لا، ليس بيكار بل باكو، فبيكار هو اسمي الرسمي الذي كان يحرص الجميع على مناداتي به بين الناس، ولكن عندما يذكر اسمي وسط التنظيم أو في وثيقة ما، يجب ألا يذكر اسم بيكار. لم يكن أحد يعرف بأن بيكار هو باكو ذاته، الأسطورة باكو..

أقول هذا على سبيل المزاح، لكن كانت في وسطنا الصغير جداً، حقيقة، أسطورة صغيرة وهي أنّ: باكو يستطيع

نقل أي رسالة لأي مُرسل إليه كما يستطيع اجتياز أي حاجز مراقبة واضعاً وردة في فمه، من طراز غافروش...

ورغم ذلك، يجب إعادة مآثري المزعومة إلى مستواها الحقيقي: لم أشارك ولو لمرة واحدة في معركة حقيقية، لم أحمل قطّ قطعة سلاح خاصة بي، لأن ذلك يجعل تنقلاتي أكثر خطورة ولذلك عندما سألتني البارحة إذا كنت قد «حملت السلاح»، لم أستطع وبصدق القول «نعم» ولاحتى «دخول المقاومة»، فلم تكن تلك هي الكلمات المناسبة. كنت أستقل القطارات كثيراً وأشعر أحياناً بأنني أمضيت فترة الحرب، داخل القطارات مع خرجي... لقد كنت بالمختصر المفيد ساعي بريد، البريد السري.

كانت مساهمتي نافعة على ما أعتقد، رغم تواضعها، وهي تلائمني. وأياً كان موقف أبي فأنا لم أعرف أبداً كيف ألعب دور «الزعماء» أو الأبطال، لم أكن يوماً سوى فتى ينفذ الأوامر بنزاهة، وعاملٍ متطوعٍ والمقاومة كما تعرف، بحاجة إلى عنصر من هذا النوع...

إذا خيبت ظنك فأنا أفهم لماذا، قد يستطيع بعضهم إعطاءك روايات حماسية، أما أنا فلم أشارك إلا بعملية وحيدة، كانت مذهلة حقاً، أحدى العمليات الأكثر بطولة في ذلك العصر، ولكنني لم أكن فيها سوى منتفع دون ممارسة أدنى دور. لهذا أرجوك ألا تضيفها إلى أفعالي.

كان ذلك في تشرين الأول من عام 1943 وكنت قد أمضيت أكثر من خمسة عشر شهراً في عملي «كمراسل» دون مشاكل.

أعطاني برتران الذي التقيته في مرسيليا، رسالة عليَّ إيصالها إلى ليون بسرعة وتسليمها إلى ضابط قديم في الكلية الحربية، التحقَ بالمقاومة مؤخراً، الرسالة صادرة من الجزائر حيث يوجد الجنرال ديغول.

عند وصولي إلى العنوان المطلوب، لم ألحظ أي شيء يدعو للقلق، لذا صعدت الدرج المغطى بالسجاد الأحمر حيث ميزت آثار وحلٍ، لم يكن ذلك شيئاً غير طبيعي لأن المطر لم ينقطع طوال النهار. ورغم ذلك اتخذت احتياطاتي كما كنت أفعل أحياناً. كان الضابط يقطن في الطابق الثالث، بينما توقفت في الطابق الثاني، أخرجت الرسالة من حقيبتي لأدسّها تحت ممسحة الأرجل، بحيث أستطيع دائماً استرجاعها خلال عشر ثوان في حال تحققي من «خلو الطريق». الحقيقة لم تكن الطريق كذلك.

لأن الرجل الذي فتح لي الباب كان يرتدي ثياب الميليشيا ويحمل مسدساً في يده.

«هل الدكتور موجود؟»

«أي دكتور؟»

«الدكتور لوفيفر، جئت لأصلح جهاز تخطيط القلب، إنه ينتظرني».

«لايوجد هنا دكتور لوفيفر»

«آه، حسناً، لقد قيل لي الرقم 10 ، الطابق الثالث»

«هنا الرقم ثمانية»

«اعذرني لقد اختلطت علي الأمور...»

ظننت أني سانجو بنفسي عندما طلب مني الرجل فتح حقيبتي، كنت أعلم أنها لاتحوي أي شيء يعرضني للخطر. كان يلقي نظرة خاطفة نعسة على موجودات الحقيبة، عندما صدرت صرخة من الداخل «أدخله».

كنت أستطيع الجري ولكن كان أكثر حكمة أن أتظاهر بالبراءة حتى النهاية. دخلت وكان الضابط الذي جئت لرؤيته جالساً على كرسي مقيد اليدين وفوهة مسدس تتجه نحو رقبته.

«أتعرفه؟»

«كلا، لم أره أبداً.»

كان يقول الحقيقة، وربما لم يكن ينتظرني ولايعرف إلا بشكل مبهم من أكون. ورغم ذلك طرقت بابه ولم يكن للميليشيا أية رغبة بالاعتقاد أنه مجرد خطأ بسيط.

قادونا، أنا والضابط إلى سجن يوجد فيه حوالي ثلاثين معتقلاً، عرفت بينهم بعض الوجوه إلا أنني تصرفت كأنني لا أعرف أحداً، وبريء تماماً، لقد كنا بين أيدي الفستابو.

كنت أتهيأ للاستجواب الحقيقي. وأطرح على نفسي دون توقف، السؤال الذي يطرحه كل شخص على نفسه في هذه الحالة، سؤال طرحته على نفسي ألف مرّة منذ اللحظة التي التحقت فيها بالعمل السري: هل أنا قادر على الصمت تحت التعذيب؟ وعلى ألا أكشف عشرات العناوين التي أعرفها والتي لو فعلت لدمّرت كل شبكتنا واعتقل المئات من رفاقي؟ فجأة، باتت ذاكرتي التي كانت دائماً حليفاً هاماً لي في الحياة،

عدواً. لو أستطيع فقط إخمادها وإفراغها وجعلها صفحة بيضاء!

لم يكن لدي سوى وسيلة وحيدة للدفاع: إنكار كل شيء. أنا مصلح للأجهزة الطبية، نقطة، هذا كل شيء. فمع انقطاعات التيار، تتعطل الأجهزة غالباً، لذا لدي الكثير من العمل. بالتأكيد، كانوا يستطيعون الذهاب إلى رب عملي في تولوز محاولين إجباره على الكلام، لكني لم أكن مهماً كثيراً بحيث يذهبون بعيداً من أجلي.

نمت ليلة في السجن، وفي اليوم التالي بعد الظهر، أُمِرَ خمسة عشر منا بالصعود إلى إحدى الشاحنات، اعتقدت بأنهم يأخذوننا إلى المكان الذي سيجري فيه التحقيق، مكان لم نصل إليه أبداً.

لم يكد يمضي على خروجنا سوى بضع دقائق، حتى حدث تراشق بالنار. لقد هوجمت الشاحنة وسط مدينة ليون من قبل المقاومين. عرفت بعد وقت طويل تفاصيل كثيرة، ولكن لا أذكر من تلك اللحظة سوى ذلك التراشق الكثيف والباب الذي انفتح، وذلك الصوت الذي يصرخ: «اخرجوا فأنتم أحرار! اركضوا! تفرقوا!» خرجت وركضت منتظراً في كل خطوة أن أُحصد بإحدى الرشقات لكن ذلك لم يحدث. احتميت بضعة ثوان في الكنيسة ثم اتجهت نحو شارع مزدحم. أصبحت خارج الموضوع، للحظة فقط، لأنهم كانوا قد أخذوا مني كل أوراقي ولا أعرف إلى أي عنوان يمكنني التوجه دون أن أعرض رفاقي للخطر.

لحسن الحظ كنت قد دسست بعض المال في جواربي، فدفعت باب مطعم صغير مصمماً على تناول أفضل الوجبات

قائلاً لنفسي إن المستقبل سيبدو لي أقل حلكة إذا امتلأت معدتي.

كنت الزبون الوحيد، ولم يكن موعد تناول أية وجبة، فالوقت متأخر جداً لتناول وجبة الغداء، كما إنه باكر قليلاً على وجبة العشاء. ورغم ذلك، أخذتُ إحدى لوائح الطعام الموضوعة على خزانة الأطباق قرب المدخل ودخلتُ. اخترت ثلاثة أطباق واعدة، وحالما تقدم صاحب المطعم باتجاهي قلت:

«أريد أن أتعشى، هل أتيت باكراً جداً؟»

«المطعم مفتوح».

«نعم، أريد...»

وعددت بتلذذ أنواع الطيّبات التي أغوتني، فكان صاحب المطعم يستمع إليّ دون أن يقاطعني أو يسجل شيئاً، بل كان يظهر ابتسامة رضى كما لو أن مجرد ذكر تلك الأطباق يسرّه وعندما انتهيت من الطلبية، بقي واقفاً مع الابتسامة ذاتها. ولكي أستعجل الأمور قلت وأنا أتنحنح:

«هذا كل شيء».

انتفض الرجل وانتصب كمن يتهيأ لتقديم تقرير ما.

«لم أستلم شيئاً منذ أربعة أيام وليس لدي سوى حساء العدس وبعض الخبز اليابس».

لقد بدا لي حزيناً جداً بحيث شعرت أني مجبر على التخفيف عنه:

«هذا جيد، حساء، هو بالضبط ما أريده».

لم يكن بإمكاني الوقوف والخروج مباشرة!

وأتى الحساء يتصاعد منه البخار، فملأت منه رئتي، تناولت الملعقة الأولى، عدس، وفي الواقع لم يكن أي عدس، عدس بالكمون! مرشوش بالكمون وبكثرة كالعدس الذي يصنع في منزلنا. قلت لنفسي هذا غريب، هل من الممكن أن تكون وصفة طعام ليونية؟ لا، إن هذا المذاق لايمكن أن يخدعني، أنا أعرفـ تماماً من أين يأتي. رغبت بسؤال صاحب المطعم، وتهيأت لمناداته، ثم تراجعت، ماذا أستطيع أن أقول له؟ إني وجدت في حسائه نكهات بلدي؟ ومن ثم من أي بلد أتيت؟ ولم تركتها؟ ومنذ متى أنا في ليون؟ آه، لا، لن يكون هذا، فإن كان هناك شيء محظور في وضعي هذا، أنا الهارب الذي لايملك أية أوراق، فهو تبادل الحديث مع مجهول! وحول موضوع هويتي الشخصية، ابتلعتُ أسئلتي سعيداً بتذوق الحساء، وأنا أغمس فيه أطراف الخبز اليابس.

ذهب صاحب المطعم وأتت زوجته بعد قليل، لتأخذ صحني الذي كنت قد أفرغته حتى آخره، لدرجة أنني نظفته حتى بات لامعاً، ودون أن أطلب منها، أعادته ممتلئاً.

«شكراً إنه لذيذ».

قالت: «إنه وصفة طعام من قريتي».

يا إلهي! تكلمت بلكنتي: لكنة البلد القديمة! تولدت لدي الرغبة بسؤالها من أي قرية هي. لا، لا أملك الحق، يجب علي أن أتماسك. لذلك كررت بصوتي الحيادي جداً:

«شكراً، إنه لذيذ».

عدت بعدها لتناول الطعام، مثبتاً ناظري في قعر الصحن متوقعاً عودتها باتجاه المطبخ، لكنها لم تتحرك، لقد بقيت تحدّق بي. كنت مقتنعاً بأنها فهمت كل شيء. من أين أتيت ولماذا لا أجرؤ على التفوّه بشيء. للحظة، رفعت عيني، كانت تحضنني بنظرتها المليئة بالحنان الذي لاحدود له. لم ينظر إليّ أحد بتلك النظرة الأمومية الطويلة أبداً. كنت أرغب بالبكاء على كتفها.

ومن ثم، لكأنها تسمع أسئلتي الصامته، بدأت بالكلام. كان زوجها عسكرياً سابقاً في جيش المشرق مع الجنرال غورو، لم يكن معسكره بعيداً عن القرية التي كانت تعيش فيها، كان يأتي أحياناً ليشتري بعض البيض من مزرعة أهلها. كانا يتبادلان الكلام أحياناً وكذلك الإشارات بالأيدي. تزوجا بعد الحرب مباشرة وأقاما عشر سنوات في بيروت قبل أن يستقرا في فرنسا عام 1928 ويفتحا هذا المطعم.

خلال حديثها، لم أتوقف عن التكرار لنفسي: من الممكن أن تكون تلك المرأة وزوجها أهل «بيكار»، أهلي السريين، أهلي المستعارين! احتبست أنفاسي كطفل مسحور، ولم أكشف عن شيء، لكن عينيّ لم تهربا، لقد بقيتا في عيني تلك الأم العابرة. ولو سألتني لرويت لها كل شيء، لكنها لم تسألني عن شيء، قالت فقط تلك الجملة التقليدية: «ليحمك الله» ثم اختفت.

لم تظهر مرة ثانية، وحتى نهاية الوجبة قام زوجها بخدمتي. وهو أيضاً كان يبتسم بتواطؤ دون أن ينبس بكلمة. لكن تلك المرأة وظهورها القصير جعلني أتغير، فلم أعد فاراً

أو ملاحقاً، لقد كنت أندفع بعيداً فوق كل مخاوفي في تلك اللحظة، بعيداً فوق شخصيتي، ومن لحظة لأخرى كانت آفاقي تتوسع.

نتيجة لهذا توصلت للاقتناع بأن الأمور لم تكن سيئة إلى هذه الدرجة. لقد كنت ملاحقاً بلا شك، لأني كنت حراً! في ذلك الصباح، كنت أنتظر الأسوأ، العذاب والإهانة والموت، بينما كنت في المساء أجلس حراً، في مطعم أطلب فيه الطعام، أشرب وآكل وأتمتع. وبعدها والأهم من هذا، بل الأكثر أهمية إن جرؤت على القول، كنت بصدد كسب الحرب! إذ عُلم قبل أيام أن كورسيكا قد تحررت وحدث انقلاب على موسوليني في إيطاليا. فانضمت البلاد إلى معسكر الحلفاء معلنة الحرب على ألمانيا النازية. وفي الشرق، اتخذت روسيا موقع الهجوم واستعادت القوقاز وهي اليوم تتقدم باتجاه القرم. أما الأميركيون فقد نشروا من جهتهم وعلى كل الجبهات، جهازهم العسكري الرهيب، بينما يُعدون على شواطئ انكلترا للإنزال. أما في فرنسا، فقد أصبح الرأي العام إلى جانبنا وبقوة. من المؤكد أنه بقي لدى الناس بعض التسامح نحو الماريشال العجوز، كانوا لايزالون يبررون له أحياناً، إلا أنهم لايؤيدونه مطلقاً. وأصبحت المقاومة يوماً بعد يوم أكثر قوة، وأكثر جرأة، وتشهد على ذلك العملية الجريئة التي خلصتني.

في نهاية وجبة الطعام طلبت القهوة، كنت رجلاً آخر، فاتحاً جديراً باسلافي، كنت أدندن بشفاهي المطبقة، لقد رحل الخوف وأمسكت بمقود القلق وبقي الفرح لكوني حراً.

وددت لو أبقى طويلاً في هذا المطعم المتواضع فقد شعرت بأنني في أمان تام. بالإضافة إلى ذلك، لم أكن أعرف أبداً، أين أذهب وأي باب أطرق دون أن أضع مجموعة شبكتنا في خطر. ما كان بإمكاني أن أستقل القطار. ودون أوراق شخصية لن أنجو من أول حاجز للتفتيش.

أتؤمن بالحظ؟ أو بالعناية الإلهية؟ لدينا العديد من الأمثال التي تقول بأن الإنسان لايموت إلا إذا نفد زيت قنديل حياته أو شيء من هذا القبيل. لابد من الإيمان وبعمق بأنه كان مايزال في قنديلي بعض الزيت، إذ من أرى عند خروجي من المطعم؟ جاك! جاك أبو الأوراق المزيفة! تلاقت عيوننا ثم تنافرت. كان في عينيه وميض من الدهشة وفي عيني بريق من السعادة. تبعته، لم يذهب بعيداً. دخل المبنى المجاور للمطعم وصعد إلى الطابق الثاني، حيث يوجد «مَشغلةُ» الذي يعمل فيه ثمانية أشخاص بلا انقطاع. لم أكن بحاجة لأن أشرح له الوضع الذي كنت فيه، فقد كان يعرف كل شيء. عرفني الرفاق عندما خرجت من الشاحنة ولكن بسبب نيران المعركة، لم يكن لديهم الوقت للاهتمام بي. كان جاك واثقاً من أنني لم أذهب بعيداً.

كنت بطبيعة الحال أحتاج أوراقاً جديدة وهوية شخصية جديدة حتى انطلق ثانية على الطرقات. ولكن، خطرت لمنقذي

فجأة فكرة أفضل: استخدامي. لقد أُسند إليه الكثير من العمل الذي لم يكن قادراً على إنهائه. بدأ وحده ثم ساعده سبعة رفاق من مختلف الأعمار، وسيكون مُرحباً بواحد آخر. «بشرط ألاّ تَكْتب بخط طبيب»، وضعني تحت الاختبار وطبّقت ما يريده تماماً. يبدو أنه كانت لديّ مواهب مميزة في التزوير «لكن للأسف مع مبادئ أخلاقية صارمة لدرجة لن تسمح معها لنفسك باستخدام تلك المواهب زمن السلم. الكمال لله». كانت تلك آراء جاك الذي علمني الكثير من الأشياء لكني تمنيت لو تعلمت منه أيضاً، وبخاصة مزاحه الثقيل.

سأحتفظ دائماً بذكرى دافئة لمشغل الأوراق المزيفة. مقرٌّ يشبه قرية نمل صامتة تنفذ مهمة حيوية، فلم يقتصر عملها على تزوير الوثائق، بل كان عليها اختراع عالم موازٍ وتدبيره وجعله مقنعاً أمام عدو قوي جداً. لولا العمل الدقيق الذي كان يقوم به جاك ورفاقه، لما تمكنت المقاومة من عمل أي شيء. ولما كانت فكرة التنظيم السري واردة أصلاً. ومع ذلك، بقيت أسماؤهم مجهولة. كيف تفسر وجود أشخاص يهبون أنفسهم على نحو كامل لمهمة قاسية كتلك، معرضين حياتهم وفي كل لحظة للخطر دون أن يأملوا بأدنى مردود مادي أو معنوي؟ وكان بعض هؤلاء الرجال، لايؤمنون حتى بوجود الله ليأملوا بالتعويض في الآخرة.

هل كنت فخوراً بمشاركتهم مصيرهم؟ نعم، أنا فخور ولا أتردد في قول ذلك أبداً! عندما كنت ألتقي من وقت لآخر، بعد الحرب، بمن يهتم بهذا الجانب السري من المقاومة، تراني أُمضي الساعات شارحاً له وبالتفصيل كل ما كنا نقوم به.

وبالعكس، كنت أغتاظ عندما يُطلب مني وللمرة الألف، رواية هروبي «المجيد». إذ ما الذي فعلته حقيقة؟ الجري لمسافة ستين متراً، تناول وجبة طعام لذيذة، لقاء كالمعجزة، ألهذا كنت بطلاً! وآلاف المرات التي خاطرت فيها بحياتي حاملاً بيدي ريشة النسخ أو ناقلاً رسالة...

لاحظ، لازلت أفلسف الأشياء. آلاف الأعمال المختزلة إلى الهباء وعمل مضخم ألف مرة. فأنا لست خاسراً في المحصلة.

للأسف لم أر ثانية ذَيْنِك الزوجين، صاحِبَيّ مطعم الحساء بالكمون. ففي بداية الأمر، لم أكن أترك المشغل قط، كانوا يحملون لي الطعام إلى المشغل وحيث كنت أنام أيضاً. وبعد عدة أشهر، بدأت الخروج والمخاطرة بنفسي قليلاً في الشوارع، لكني كنت أتجنب المرور أمامهما. في ذاك الوقت، وفي الوضع الذي وضعت نفسي فيه، كان من الأفضل، إنْ كانت لدينا عواطف تجاه شخص ما، تجنب إظهارها، حتى لا أسبب له المشاكل. لم أمر أمام ذلك المطعم، إلا بعد التحرير. ويبدو أنه كان مغلقاً منذ عدة أشهر. وقال لي أحد الجيران إن «الملازم» عاد إلى موطنه قرب غرونوبل.

بالنسبة لي، بقيت في مشغل الأوراق المزيفة دون أن أتحرك حتى التحرير. حيث احتفلنا وفتحنا بضع زجاجات من الشمبانيا، كان جاك الواثق بالنصر قد وضعها في الثلاجة قبل عدة أسابيع. كانت سعادتنا مشوبة بشيء من الحزن، إذ مع نهاية العمل السري تنتهي مغامرتنا الجميلة. نادراً ما

يحدث في الحياة أن يكون المرء صبياً شريراً لهدف نبيل.

ذهبت بعدها إلى مونبيلييه، ولكن ليس مباشرة، فقد احتفظ بي برتران في ليون لمدة ثلاثة أشهر، وذلك للقيام بمهمّات مختلفة. وعندما استطعت أخيراً العودة كان ذلك بمثابة عودة أولى إلى موطني، لقد كانت لدي رغبة شديدة بالذهاب إلى حيث عشت قبل الحرب، عندما لم أكن بعد باكو.

بالتأكيد، حصلت مع الوقت على بعض الأخبار. فقد عرفت أن برونو ووالده أوقفا في حادثة شاحنة البيرة، لكنهما لم يُمضيا في السجن سوى شهرين فقط. إلا أنهما اعتُقلا من جديد بعد سنة من خروجهما لأسباب أكثر خطورة ونقلا إلى معسكرات الاعتقال، وعاد الأب لكن دون برونو، وسميت الحديقة الصغيرة جانب الحانة باسمه.

أول مكانٍ ذهبت إليه كان الحانة، وعندما رآني صاحبها ضمني إلى صدره طويلاً كأنه وجد ابناً آخر. حتى ذاك الوقت لم نكن قد تصافحنا غير مرتين أو ثلاث مرات ولا أذكر أني سبق ووجهت له الكلام إلّا، ربما، لطلب كأس من البيرة أو لدفع الحساب. زوجته هي الأخرى كانت قد ماتت أثناء الحرب. من يدري، ربما تنبأت أن ابنها لن يعود أبداً

بعد أن تركت الحانة، ذهبت إلى المرأة التي كنت أسكن عندها، السيدة بيروا التي ضمتني بدورها بين ذراعيها. وأعلمتني أن قصصاً تنتشر في المدينة تتعلق بقضيتي، وهو أمر تأكدت منه فيما بعد، يوم عودتي إلى كلية الطب. لم أعرف إن كان ذلك بسبب اختفائي المفاجىء أو بسبب أصلي أو

بعض الشائعات أو الأحداث، ولكن بدا لي أن كل الناس مقتنعون أن المدعو كتابدار قد أصبح من أبطال المقاومة. ونسبوا لي مجموعة من الأعمال المسلحة الظافرة التي كان بعضها مختلقاً وبعضها الآخر، في غالبيته، مستنداً إلى وقائع حقيقية، لكن مع مبالغة كبيرة لدوري فيها.

وبالعودة للسيدة بيروا، فقد أبدت ـ بعد أن أفرغت ماعندها من حكايا بشأني ـ دهشتها من أن أحداً لم يأت رغم كل ماروي في المدينة عن نشاطاتي لسؤالها عني.

«أتريدين القول إن أحداً لم يأتِ لتفتيش البيت بعد ذهابي؟»

«لا أحد».

«لا الميليشيا ولا الشرطة ولا الألمان؟»

«لا أحد قلت لك، كل أغراضك محفوظة في القبو ولم يلمسها أحد. لقد أخرجتها فقط لكي أستطيع تأجير الغرفة، فأنت تعرف...»

هذا يعني بالنسبة لي أن السلطات لم تكن قد كونت أفكاراً خاطئة عن أهميتي أو بالأحرى، عن أهميتي الضئيلة. ولكن بالنسبة لمؤجرتي، وتبعاً للنبرة التي استعملتها في تلميحاتها، فقد كان هذا، وبالعكس، الدليل الأعظم على المهارة الأسطورية التي ألصقوها بشخصي: باكو الذي لايمكن القبض عليه.

ومع ذلك، قد تقول لي وذاك الشرطي الذي كان يختبئ في المبنى الذي أسكنه، ذلك اليوم المشهود الذي هربتُ فيه، تماماً، سأصل إليه. ألم أقل لكم سابقاً إن للسيدة بيروا فتاة

تدعى جرمين، صهباء الشعر وجميلة بعض الشيء ولكنها لم تكن ذات سمعة جيدة؟ لم يكن علي أن أذكرها، إنه حيائي الشرقي... لقد كان رفاقي يحدثونني عنها غالباً ويزعجونني ويسألونني إن كنت قد... في الواقع، لقد كنت خجولاً جداً مع النساء ولا يمكن تصور نفسي محاولاً أمراً ما، فعندما كنت ألتقي بجرمين، أحياناً، ألقي عليها التحية بابتسامة لطيفة فتبادلني بابتسامة مماثلة، ثم أتابع صعودي الدرج ووجنتاي متورّدتان قليلاً.

قالت لي السيدة بيروا ذلك اليوم: «حسناً، أتعلم أن ابنتي تزوجت أثناء غيابك؟ أريد أن أعرفك على صهري، سيكون سعيداً بمصافحة رجل مثلك».

دخلت إلى غرفة الجلوس، وتستطيع تخيل ما حصل بعدها. كان زوج جرمين يرتدي البزة الرسمية للشرطة، وكانت لديه ندبة على إحدى وجنتيه، تمتد من الفك حتى زاوية العين، وقف وقدم لي يده مع ابتسامة عريضة.

«التقينا مرة أو مرتين على الدرج، في الوقت الذي كنت أغازل فيه جرمين، لقد أخفتني خوفاً يومها...»

وهكذا، لقد هربت من أجل لاشيء! فلو لم أرَ ذلك اليوم شرطياً يتخفى في مدخل المبنى، لاتخذت حياتي مجرى آخر.

إلى الأفضل أم إلى الأسوأ؟ بما أننا مانزال أحياء لنطرح على أنفسنا هذا السؤال، هذا يعني أنه لم يكن قط إلى الأسوأ.

لكن مفاجأة أخرى كانت تنتظرني. فبينما أصعد الدرج مع صاحبة المنزل كي ألقي نظرة حنين على غرفتي القديمة،

أمتلأ مِنْخِراي على الدرج فجأة، برائحة عفن قوية ولم أعد أستطيع التنفس جيداً. انتبهت لحظتها بشيء من الإندهاش إلى أنني لم أعانِ من أي مشكلة تنفسية أو رئوية منذ تركت تلك العليّة، مثلما لم أكن أعاني منها قبل ذلك. إن رائحة العفن القوية هذه بالإضافة لرائحة تشبه إلى حد ما رائحة الرماد القديم تنشقتها عند وصولي، ثم مع مرور الزمن توقفتُ عن تنشقها. وها هي من جديد تكاد تخنقني.

قلت للسيدة الطيبة وكأنني في نَفَسي الأخير:

«سأنزل».

أغلقت الباب بالمفتاح ناظرة إليّ بقلق.

«مازالت لديك نوبات الربو كما أرى».

«من وقت لآخر».

«لَستَ الوحيد! فالشاب الذي استأجر الغرفة بعدك، يعاني من نوبات الربو أيضاً ولمرتين اضطررت لاستدعاء الطبيب ليلاً».

أضافت:

«الغرفة شاغرة في الوقت الحاضر، فإذا أردت يمكنك النوم فيها هذه الليلة، ليس كمستأجر ولكن كضيف!»

«أنت امرأة طيبة، لكن يجب عليّ أن أعود بالقطار هذا المساء إلى مرسيليا».

بالطبع كنت أكذب، إذ إنني لن أغادر قبل الغد، إلا أنني دفعت سابقاً في تلك العليّة الملعونة أكثر مما يتوجب علي دفعه...

أمضيت الليل ساهراً في غرفة أحد الزملاء من طلاب

الطب محاولاً إقناعه أنني لم أنجز كل تلك المآثر التي نسبتها إليّ الشائعات، إلا أنه كان جهداً ضائعاً...

لابد من القول إن ثمّة ظرف أضرّ بي ـ أو خدمني، حسب وجهة النظر التي نتخذها، فقد حدث سوء فهم أعطى مصداقية للشائعات المبالغ فيها.

غداة التحرير، عقدت مئات الاجتماعات على كل المستويات، بين فصائل المقاومة المختلفة بالإضافة إلى السلطات التي اتخذت مكانها وذلك لحلّ بعض المسائل: التطهير وما صاحبه من تعسّف، مصير المنقولين إلى معسكرات الاعتقال، تجريد المقاومين من أسلحتهم، التموين، الخ. وفي إحدى هذه الاجتماعات، وبما أن أيّاً من مسؤولي شبكة «حرية» لم يكن مستعداً طَلَبَ مني برتران الحضور وتسجيل ما يقال. وبعكس تنبؤاته، قررت بعض الحركات الأخرى أن ترسل قياديين من الدرجة الأولى. بالإضافة إلى ذلك، كان مصورو الصحافة من مدينة ليون موجودين. والسبب في ذلك أنهم قد أوقفوا في الليل أحد كبار المتعاونين مع العدو. وفجأة اكتسب الاجتماع الروتيني أهمية بنظر الرأي العام. وهكذا وجدت صورتي في الصفحة الأولى من صحيفة «التقدم»، كأحد زعماء المقاومة السريين.

ما كان أحد في مونبلييه يريد الاقتناع بوجود سوء تفاهم ما: حاول أن تنفي بطولاتك، ستحتفظ بسمعتك الجيدة وسيعتبرون ذلك نوعاً من التواضع. وهذا ما يصبح، حسب قولهم، الفضيلة الأسمى للأبطال.

صباح الجمعة

أنا مقتنع أن «عصيان» كان صادقاً في تقليله من قيمة مآثره، كانت الفكرة التي يمكن أن نكوّنها عنه «كزعيم»، شيئاً لايطاق بالنسبة إليه منذ طفولته. لذلك كان يستفيض بالرأي المخالف بحيث أن نفيه الحاد يضع مستمعيه في حالة من التردد والشك.

كان هذا على الأقل رد فعلي. بعد أن تركنا بعضنا مباشرة ولدى مراجعتي لما كتبته، رغبت برؤية الأشياء عن قرب. فذهبت إلى جنوب فرنسا باحثاً عن الذين شهدوا ذلك العصر المضطرب وعرفوا رجال المقاومة آنذاك والحملات والشوشرات وشبكات المقاومة. وخلال شهر مليء باللقاءات المدهشة والاستجوابات الساذجة والتقاطعات، أوصلني كل ذلك إلى اليقين بوجود أسطورة تتعلق باسم «باكو» في بعض الأوساط، وأن دور هذا الأخير في المقاومة لم يكن خلال ذلك الوقت مجرد «ساعي بريد».

لكن هل هذا هو الأمر الأساسي حقاً؟ لم تكن أهمية الدور وفي كل الأحوال سوى أمرٍ تقديريٍّ. لقد قدم لي الرجل الحقيقة من جهته، أي الاعمال والمشاعر المرافقة لها. عندما يسرد شخص ما حكايته، ألن تكون الموضوعية، أسلم طريق للكذب؟

لقد قطعت عهداً على نفسي بألاّ أسعى وراء التحقيق والتعمق في البحث. وأن أكتفي فقط بكلامه وبدوري كمستولِدٍ للحقائق والأساطير. إنه لتناقض جميل!

ـ وصلنا إذاً، إلى اللحظة التي تركت فيها فرنسا عائداً إلى وطنك. أعتقد أنهم كانوا بانتظارك في بيروت.

لم أفصح لأي إنسان عن اسم السفينة التي سأعود على متنها، لكن الله وحده يعلم، كيف علم أبي وعلمت بالتالي المدينة كلها. كما كانت قد انتشرت إشاعات كثيرة تتعلق بعملي في المقاومة، حتى اسمي الحركي، باكو كانوا يتهامسون به.

باكو وجاك وبرتران والأوراق المزيفة والحرب والمقاومة. لم أكن قد بلغت من العمر عند عودتي، سوى سبعةٍ وعشرين عاماً ومع ذلك كانت ثمة حياة كاملة ورائي، ومازال أمامي حَيوَات أخرى، ربما.

الوصول إلى المرفأ. الحشد المجتمع على الرصيف. عيناي الدامعتان لحظة عبور جسر السفينة. الفتاة ذات الشعر الأشعث وهي تقترب مني لتضع إكليلاً من الزهور حول عنقي. وأنا أنحني. وساعداها العاريان يلامسان وجنتيّ. ثم أرفع رأسي. أصوات غريبة تتمازج خلفي. ومصوّر يشير إليّ ألاّ أتحرك، وأن أحافظ على ابتسامتي وأثبت نظري في العدسة. تجمد كل الناس وحبسوا أنفاسهم لثوان طويلة، فساد الصمت، ليعود المشهد إلى الحياة وببطء، حركة تلو الأخرى، وتصاعد الضجيج من جديد، تعييش وتصفيق. وهذا أبي الذي يتقدم واضعاً على رأسه طربوشاً، طربوش العيد. تباعد الحشد كي يفسح له المجال، فالتقت عيناي بعينيه. بدت لي تلك النظرة التي كانت تثقل كاهلي سابقاً خفيفة جداً. نزع

والدي طربوشه وأخذني بين ذراعيه وشدني بقوة. فعاد التصفيق من جديد، ثم أبعدني ناظراً إلى وجهي، أما أنا فقد قرأت في عينيه شيئاً آخر، شيئاً لايتعلق بفرح اللقاء، شيئاً لا يتعلق بالفخر. وعندما جذبني إليه من جديد غمغمت بسؤال ما، فأجابني: «فيما بعد، سأشرح لك كل شيء في المنزل».

كنت قلقاً كأي إنسان يجد نفسه فجأة وسط فرح عارم لايستحقه بالكامل. ذاك الشعور بأن المصيبة تترصدنا كخصم غيور عند المنعطف القادم. لكن إلى جانب تلك الهواجس، كان ينقص ذلك الحشد العديد من الناس.

من كل عائلتي، لم يكن هناك إلا والدي. أين الآخرون؟ وأولهم جدي، أفضل مصور في البلاد والذي كان يحضر كل المناسبات ليقف أمامنا يصفّنا وينتقدنا ويبهرنا بضوء آلة تصويره. لاشيء في هذا العالم كان ليجعله يفوّت هذه الصورة!

نعم، إن مايبدد فرحتي بتلك الصورة، هو غياب المصور! وعند صعودي إلى السيارة التي أقلتني، كنت مازلت أبحث عنه بعينيّ.

«أين جدي، إني لا أراه؟»

«لقد رحل نوبار».

يا له من تعبير أسود عندما يخص رجلاً في الستين من عمره. لم أكن أجرؤ على قول أي شيء خوفاً من سماع الكلمات التي كنت أخشاها. مؤجلاً الحقيقة والدموع عدة ثوان.

أضاف والدي: «لقد رحل إلى أميركا مع جدتك وخالك آرام».

كنت مرتاحاً وفرحاً تقريباً كما لو أن جدي قد عاد إلي. ألا يحلم الإنسان بعد موت عزيز عليه أن يكتشف فجأة أن كل ما رآه وما سمعه لم يكن سوى كابوسٍ؟ شعرت في ذلك الحيز من الثانية بحدوث معجزة كهذه.

لكن هذا لم يبدد حيرتي تماماً، فقد كنت أعتقد بأن نوبار قد تخلى منذ زمن طويل عن مشاريعه المتعلقة بالهجرة.

لكن، فجأة ظهر أمر مقلق آخر.

«وعقّت، أين هي، لم أرها أيضاً؟».

«أختك في مصر، لقد تزوجت منذ بداية الحرب ولم نستطع إخبارك بذلك».

«من هو زوجها؟»

«أنت لاتعرفه، محمود ابن عائلة مرموقة من حيفا، عائلة الكرملي. كان يعمل هنا في مصرف إنكليزي، لكنهم نقلوه إلى القاهرة. كان والده يعمل في مصرف عثماني في اسطنبول. صهرنا صبي شجاع ونزيه ولطيف لكن قليلاً... مثل هذا».

عند تلفظه بتلك الكلمات الأخيرة، قام والدي بحركة كنت أراه سابقاً يقوم بها من حين لآخر. يدير راحتيه ووجهه باتجاه السماء ثم باتجاه الأرض، ومن جديد باتجاه السماء، لمرتين أو ثلاث مرات متتالية وبسرعة كبيرة كما لو أنه يقلد سجوداً. كان ذلك أسلوبه لقول بعض الأمور مثل «عابد متزمت» أو «ضفدع جرن الماء المقدس»... يجب ألا يؤخذ هذا الأمر على محمل الجد، فكل شخص يراه يتمتم مسبحاً بمسبحة الصلاة، كان يتعرض لهذه السخرية من فاقد الإيمان.

«أختي ليست تعسة على الأقل؟»

«لا، هي من اختارته وأعتقد أنهما متفاهمان، لاتخش شيئاً على عفت فهي تعرف كيف تجعله يحترمها. ليست هي من يسبب لي الهموم...

تكلمت عن الهموم؟ إن ما عانيته خلال السنوات الأخيرة أكثر من الهموم، لا أريد أن أفسد فرحتك بالعودة ولكن يجب أن تعرف: لقد تعرضنا لمصيبة كبرى، ففي هذا اليوم أشعر بأول لحظة فرح منذ أربع سنوات. سترى، سيعج منزلنا بالناس من الآن وصاعداً».

كما عرفته دائماً. سخرت بيني وبين نفسي بنوع من السخط المتهكم. هذا الضجيج، هذا الذهاب والإياب الذي لاينقطع، لا أحتفظ منه بذكرى طيبة.

بالنسبة لوالدي، كان الأمر مختلفاً تماماً، فقد امتلأت عيناه فجأة بالدموع، وانضغطت يداه الواحدة على الأخرى من الغضب:

«منذ أربع سنوات، لم يعبر أي شخص عتبتنا، كما كان يحصل في طفولتي في أضنة: أصبحنا كالمجذومين!».

وضعت يديّ بيديه وكانت عيناي قد تغشيتا؛ كنت حزيناً قبل أن أعرف أية نكبة أصابتنا.

«أخوك... سالم... ملعون اليوم الذي ولد فيه!»

«لاتقل هذا!»

«لماذا يجب علي ألا أقول هذا؟ لأنه من لحمي ودمي؟ إن كنت مصاباً بورمٍ ينخر جسمي، هل يجب أن أحبه لأنه من لحمي ودمي؟».

لم أُرد مقاطعته. كانت اعتراضاتي من قبيل الشكل فقط، فأنا نفسي لم أحمل يوماً عاطفة قوية تجاه أخي.

قبل الحرب وعند رحيلي، لم يكن سالم إلاّ مراهقاً بديناً وكسولاً، متمرداً على الدراسة ذا طبيعة مشاكسة لاشيء يُنكِّهها، وكان الجميع مقتنعين بأنه لن ينجح في أمر. فبأي مستقبل يمكن التكهن له؟ غير أنه سيبدأ بتبديد حصته من الثروة، وبعد ذلك وبالتأكيد، سيعيش على حساب أخيه أو أخته.

كنا جميعاً لانقدره حق قدره، أقصد لم نكن نقدر بشكل صحيح قدرته على الأذى. فالحرب توقظ، كما نعرف، لدى بعض الأشخاص، الذكاء والطاقات ويكون ذلك أحياناً، دفعاً للأفضل، وغالباً للأسوأ.

في سنوات الصراع تلك، انتشر القحط والتقنين في البلاد كما في أرجاء العالم، وكذلك التهريب وكل أنواع التعامل غير

المشروع. وكان بعضهم يمارسها من أجل البقاء وبعضهم الآخر من أجل الثروة. مارس أخي تلك التجارة بدوره، ولكن ليس من أجل البقاء ولا من أجل الثروة.

كان غالباً ما يتغيب، فهو يستطيع الخروج في أية ساعة من النهار أو الليل عبر باب خلفي، لأن غرفته متطرفة عن المنزل نوعاً ما، ووالدي لا يلاحظ شيئاً. لو كانت أختي ماتزال تعيش معهم، للاحظت بالتأكيد أن شيئاً ما يحدث. وربما لم يكن سالم ليتورط كثيراً، لكنها رحلت ولاشيء يمنعه من متابعة انحداره.

في يوم من الأيام حصل ما كان لا بد أن يحصل: تمركز جنود من الجيش الفرنسي حول البيت من كل جهاته، طالبين من السكان عبر مكبر الصوت عدم المقاومة والخروج مرفوعي الأيدي.

كان هجوماً نظامياً، كأنهم يريدون سحق موقع للعدو. لم يفهم والدي شيئاً، فصرخ من نافذة غرفته قائلاً بأن هناك خطأ ما، ثم رأى بخوف، الجنود يُخرجون من عليّتنا أكياس خيش وصناديق وصفائح معدنية وعلب كرتون. كما وجدوا منها في المرآب الذي ما عاد يستخدم والخزانة الموجودة تحت الدرج الداخلي، كذلك في غرفة أخي وفي خزانته وتحت سريره. لقد حوّل ذلك الشخص، بيتنا إلى مستودع للمهربين، ولم ينتبه أبي للأمر. كما كان سالم قد رتب الأمور ليكدس بعض البضائع في محل تصوير جدي الذي تم اجتياحه في اليوم نفسه وبالطريقة ذاتها.

ما جعل الأمر أكثر سوءاً أيضاً، هو أن معركة نشبت قبل يوم جنوب العاصمة، بالقرب من خليج صغير يستخدمه

المهربون عادة. قُتل أحد موظفي الجمارك وجُرح اثنان من المهربين واعتُقلا، وخلال التحقيق الذي جرى ليلاً، توصلت السلطات إلى اسم أخي. لقد كان ـ يا لوصمة العار على منزل كتابدار النبيل! ـ أحد قادة العصابة. لقد كان بين الذين ينتظرون البضائع على الشاطئ وهم الذين أطلقوا النار على موظفي الجمارك قبل هروبهم. هل هو من أطلق النار؟ لقد نفى الأمر، ولم يستطع أحد إثبات ذلك. كانت هناك بنادق في المنزل، لكنها ماتزال في صناديقها، لم يستخدم أي منها. كما لم يُعثر على سلاح الجريمة قطّ.

وجد الجميع أنفسهم في السجن، أخي وأبي وجدي وخالي آرام أستاذ الكيمياء في الجامعة الأميركية، عالِم حقيقي مقيم في سماوات تراكيبه، وكان أقل فهماً من أبي لما يحدث له. كان في السجن أيضاً البستاني وابنه.

كرر أبي: «لم يُحرم أخوك من أي شيء، لِمَ فعل بنا هذا؟»

كيف يمكن الشرح له عما حرم منه أخي؟ أنا نفسي، ألم أشعر بأنني سجين في ذلك المنزل دون أمل بالهرب؟ ألم أرغب بتقويض كل شيء، الأثاث والزائرين والجدران؟ ما الذي منعني؟ كنت بالطبع أعرف أنني محبوب، وبأنني موضع تفانٍ بلا حدود وهذا ماحثني على الابتعاد إلى أقصى مكان ممكن، لكن لأعود رجلاً مكتملاً متأكداً من طموحاتي وقادراً على تحقيقها. فلو لم أكن متأكداً من أنني محبوب، لما توقفت المرارة عن النمو في داخلي، ولكنت قررت، يوماً، ونتيجة للحرب، أن أقوم بعمل ما مثل الاغتيال أو الانتحار. فتصرفات سالم السيئة تشبه هذا العمل أو ذاك.

اغتيال وانتحار ناجحان تقريباً، ففي سنوات الحرب، لايُعبث بأعمال التهريب، لاسيما إذا كانت تتضمن تجارة الأسلحة والذخيرة. ولحسن الحظ، كان الضابط الفرنسي المكلف بالملف، الكولونيل ديلوار، يعرف والدي جيداً، فقد أتى أكثر من مرة إلى منزلنا قبل الحرب لحضور المعارض أو للمشاركة في النقاشات. تلميذ قديم لمدرسة اللغات الشرقية، ورجل مثقف وجامع للصور الفوتوغرافية القديمة. لم يكن يجهل قط أيّ كائنَيْن ظريفَين ومسالمَين هما أبي ونوبار، ويعلم أيضاً أية نكبة كان أخي بالنسبة إليهما منذ طفولته. جنّد نفسه إذاً لتحرير الرجلين بأقصى سرعة. لكن بعد أن أمضيا رغم ذلك، خمسة وثلاثين يوماً في السجن! أما الآخرون ومنهم خالي آرام، فقد أفرج عنهم بعد عدّة أشهر، باستثناء أخي طبعاً، لكن الكولونيل نجح في إنقاذه من الإعدام بحجة عمره، إذ لم يكن قد تجاوز عامه العشرين وقت الحادثة. كان هناك ثلاثة أحكام بالإعدام على المهربين، بينما حُكِمَ على سالم بخمسة عشر عاماً من السجن، خُفضت إلى ثُلثيها بسبب الإعفاءات المتتالية.

مثلت هذه الحادثة بالنسبة لأهلي أسوأ ما كان من الممكن أن يصيبهم. عاش كل الناس الذين كانوا يترددون على منزلنا قبل هذه الأحداث، ولأشهر طويلة، حالة خوف من الاعتقال. إذا كان منزل كتابدار ملجأ للمهربين ومستودعاً للبضائع غير الشرعية، أفلن يصبح كل هؤلاء الذين يترددون على ذلك المنزل، موضع شبهة؟ بعد خروج والدي من السجن، تجرأ قليل من الناس، القليل جداً منهم، على المجيء وتهنئته بالإفراج عنه، فشعر والدي تجاه هؤلاء الأشخاص النادرين الذين «يعدون على أصابع اليد الواحدة» بعرفان جميل دائم.

أما الآخرون الذين كانوا سابقاً دائمي التواجد حول مائدته فقد أقسم على ألّا يراهم أبداً.

في ذلك الجو، صمم جدّي لأمي على الرحيل إلى أميركا، إذ إن ابنهم الذي تأذى من قضية سجنه لسبب مهين جداً، لم يعد يجرؤُ على المثول أمام طلابه. فقدم له رئيس الجامعة كتاب توصية يجزيه بالمديح، استطاع من خلاله الحصول على الموافقة للسماح له بالهجرة مع كل عائلته. لقد كان لاختصاصاته الكيميائية النادرة، الأهمية الكبيرة زمن الحرب، لذا ولدى وصوله إلى الولايات المتحدة، جُند في مصنع للمتفجرات في ديلاوار.

بقي والدي وحيداً بعد ذلك، دون أختي ونوبار ودوني، دون ذلك الحضور الكبير للناس من حوله، وحيداً مع أمه العجوز المجنونة، التي كان يعتني بها بنفسه على الرغم من وجود ممرضة تعتني بها وتخدمها كمرافقة.

لا أعتقد أنه كان سيعرف كيف يعيش في ظل تلك المهانة لو لم يزره الكولونيل ديلوار بعد عدة أشهر من خروجه من السجن، حاملاً إليه النبأ الأكثر تعزية وهو أنّ ابنه البكر عصيان صار بطلاً صغيراً في المقاومة.

كيف علم الضابط بهذا الأمر؟ بمساعدة بعض الظروف. فقد التحق ديلوار بقوى فرنسا الحرة التي انتزعت المشرق عام 1941 من البيتانيين وبمساعدة الإنكليز. بعد انتهائه من عملية المهربين، كُلف بمهمة سرية في مقاطعة بروڤانس، وخلال تلك المهمة، التقى برتران فتحدثا عن ذكريات البلد القديمة وماضيها والعائلة العثمانية وجاء ذكر اسمي خلال الحديث.

لكني أعود إلى والدي. بالنسبة له، كان التحاقي بالمقاومة وضمن هذا السياق، يأخذ مدلولاً لم يخطر بذهني في ذلك اليوم، يوم وصولي إلى المرفأ.

لقد اعتقدت دائماً أنه سيكون سعيداً بموقفي بسبب معتقداته الراسخة وذلك الحلم المخادع الذي كان ينميه دائماً ليحققه من خلالي «زعيم ثوري»، لم يمت ذلك الحلم، مازال يحمله في أعماقه، لكنه دُفن تحت انشغالاته الأكثر إلحاحاً. مارآه بي، ذلك الوقت، كان أولاً، إعادة رد اعتبارنا. ألم يلطخ أخي اسمنا ومنزلنا؟ لقد أزال التحاقي بالمقاومة هذه الوصمة. ألم يؤد هذا العار لأن يبتعد الناس عن منزلنا؟ إن عودتي بهذا المجد ستردهم إلينا. كان جاهزاً بعد ذلك لاستقبالهم دون ضغينة ولكن برغبة الثأر من القدر فقط.

كان اليوم التالي لعودتي مناسبة لقيام احتفال كبير، فقد عجّ منزلنا بالزائرين الذين أتى بعضهم مدعواً بينما أتى الآخرون دون دعوة. وانتشروا في قاعة الاستقبال الكبيرة وفي الرواق وعلى الأدراج الداخلية بينما تنزه بعضهم في الحديقة متحدّثاً بأحاديث جانبية مثيرة للضحك.

كان والدي يمشي متبختراً، وأنا نفسي، وفي تلك الظروف، لم أعد أستطيع النفي بقوة أني كنت ذلك البطل الذي يؤمنون به. لم يكن مطلوباً مني مطلقاً ذلك اليوم إظهار موهبتيّ اللياقة والتواضع، ولا تقييم مقدراتي بحق قدرها، بل كان المطلوب إعادة الشرف المداس إلى والدي وإلى منزلنا، بالتأكيد لم أتفوه بأمور مغلوطة ولا مزخرفة فالتفاخر لم يكن يوماً جزءاً من عيوبي الكبيرة. لا، لم أكن أكذب قط، لكنني لم أكذّب شيئاً بالمقابل، تركتهم يقولون

وتركتهم يعتقدون، كنت سعيداً بسماع ضحكة والدي التي عادت إلى سابق عهدها.

بعد عشرة أيام فَقَدَ والدته، فقد بلغت عفّت التعسة السابعة والثمانين من العمر، ومنذ عدّة أشهر لم تبارح فراشها.

«لو توفيت السنة الفائتة لكنت دفنتها لوحدي». تلك كانت أول فكرة ترد إلى ذهنه. في البداية، نعم، كانت نوعاً من العزاء، لكنها لاتعارض أبداً الشعور بمحبة الوالدين. ثم بدأ بالبكاء.

كانت تربطه بتلك الأم التي عرفها دائماً كمريضة عقلية روابط خفية، هو وحده من يدركها. كنت شاهداً أحياناً على مشاهد مشوشة لم أجرؤ على الاستفسار عنها. فقد استشارها، مثلاً عندما كان عليه أن يقرر ما إذا كان سيسمح لي بالذهاب لمتابعة دراستي في فرنسا أم لا. لم تكن تلك المرة الأولى، لكني أتذكر ذلك بوضوح لأنه أصر على أن يحدث بحضوري.

همس في أذنها بضع كلمات، كان لجدتي مظهر من يصغي بانتباه، ثم فتحت فمها كأنها تريد الكلام، لكن فمها بقي مفتوحاً لفترة طويلة، مدوراً مع ظلال سوداء ودون أي كلام. كان والدي ينتظر بصبر، ثم أرسلت بضعة أصوات غامضة، كانت بالنسبة لي شبيهة بالقرقرة أو اللهاث. كان والدي يصغي إليها هازاً رأسه بوقار. ثم جاء إليّ قائلاً إن جدّتك لاترى أي مانع بذلك. هل كانت تلك تمثيلية هزلية؟ هذا مابدا لي، لكنها لم تكن كذلك، أؤكد ذلك، فلم يكن والدي يريد على الإطلاق جعل عفّت العجوز عرضة للسخرية، بل هكذا كان يستشيرها، وكان ذلك بالنسبة له الجسر الوحيد الذي

يصله بوالدته، ويجب الإقرار بأن لهما لغة خاصة يفهمانها.

لم يكن الوحيد الذي بكاها، فقد افتقدتها أنا نفسي فجأة. لتلك السيدة النبيلة والمجنونة منذ سبعين عاماً حضور مبارك في المنزل. كانت ظاهرة ذات مظهر شبحي وطفولي، ومحبة للترنم. بفضلها كنا فيما يتعلق بالحياة والزمن والحكمة والمنطق فلاسفة للشك والسخرية بالفطرة.

لقد عاشت متوارية، ولم يرض والدي أن يدفنها دفنة عار، فقد رغب أن يجمع في جنازتها كل أصحاب المقامات العليا في البلد ومن كل الطوائف. كانت مآثري المزعومة وعودتي المجيدة قد جعلت الأمر ممكناً من جديد. ولهذا تكلمت للتو عن «عزائه». ولم يغفل الخطباء المعزّون عن لفت الانتباه إلى أنها ولدت ابنة حاكم وتوفيت جدة بطل.

كان والدي مشتتاً، كما بدا لي، بين حزنه لفقدان والدته وشعوره بالرضى لأنه استطاع أن يقيم لها في اللحظة الأخيرة جنازة جديرة بمكانتها. كنت أراقبه يستغرق أحياناً في التأمل مكوراً كتفيه، محاولاً وببعض الصعوبة ألا ينتحب، وأحياناً أخرى يجول بنظره بين الحشد والشخصيات الهامة ثم يقف منتصباً بوضعية الخاشع الكئيب. ولم تكن تلك ردة فعل والدي في الحالة العادية، لهذه الدرجة كانت جراحه عميقة...

غداة الدفن، كنت جالساً إلى يمينه في الصالون الكبير لتلقي العزاء، عندما همس في أذني بأن «غريبة» تطلب رؤيتي وانها بسبب الظروف لاتجرؤ على الدخول.

كانت الغريبة، كلارا.

رغبت بضمها بين ذراعي وشدها بقوة إلى صدري، لكن لم يكن هناك مايسمح بذلك. لا علاقاتنا السابقة في تلك الليلة الوحيدة التي تحدثنا فيها جالسين على كرسيّينا الخاصّين قبل رحيل كل واحد منا في طريقه؛ ولا الظروف الراهنة: حالة العزاء، والمنزل الذي يعج بالزائرين المتشحين بالسواد. لم يكن بمقدورنا حتى أن نعبّر عن مدى فرحنا باللقاء. وبدأت بالاعتذار «لقدومها المفاجىء»، لاسيما في يوم حزين كذاك اليوم، فاقترحتُ عليها المشي قليلاً في الحديقة.

كانت في بيروت لفترة قصيرة، فقد رست سفينتها مساء اليوم الفائت في مرفأ بيروت، وستتابع سيرها هذا المساء إلى حيفا عبر الطريق البري. لم تكن واثقة من أنها تريد البقاء في فلسطين فقد جاءت مرافقة لخالها العجوز.

وكما لو كنّا نخاف التحدث عن أنفسنا، جعلنا الحديث يدور حول الخال. «أخبرني أهلي أنه مذ كان في العشرين من عمره كان يتصرف كعازب عجوز، فهو صبي وحيد، وُلد متأخراً بعد ست فتيات وورث ثروة أغنته عن العمل طوال حياته».

قلت بصوت منخفض مشيراً بعيني إلى المنزل: «مثل أبي».

«إلا أن خالي ستيفان لم يرغب أبداً بإزعاج نفسه بعائلة،

لقد كان من ينظم حياته، في منزله في «غراز»، أحد كبار الخدم المدربين الذي كان يعرف في أية ساعة يشرب قهوته، وكم هي كمية الويسكي التي يشربها مساءً. لم يتحدث والدي الذي تعب طوال حياته عن الخال إلا وأظهر حالة من الامتعاض، ولم تحاول والدتي الدفاع عن أخيها الذي كان يعتبر مثلاً سيئاً للأطفال. كما كوّن كل يهود «غراز» عن ستيڤان تيميرل فكرة سيئة والتي كان بدوره يبادلهم إياها. لم يكن لديه أي صديق يهودي وكان فخوراً بذلك.

عندما علمت أنه نُقِلَ إلى معسكرات الاعتقال تساءلت كيف يمكنه البقاء على قيد الحياة في المعسكر. كان من المنطقي أن يقضي قبل الجميع، لكن ما حصل هو أن الجميع ماتوا، كل أهلي إلاّ هو: الخال ستيڤان.

أجهل كيف بقي حياً فهو لا يتكلم أبداً عن الموضوع، ولا أرغب بدوري بإيقاظ الكابوس لديه. لا أكلمه إلا عن السنوات السعيدة، ولا شيء عن الماضي. يتولد لدي في حضوره، إحساس مستمر بتصفح ألبوم العائلة الخيالي وهو «ينظر» دون قول أية كلمة أو إظهار أي انفعال كان، سواء كان انفعال فرح أو دهشة أو تأوه حزن، لاشيء. أقول لنفسي أحياناً، إنه ربما عاش فقط بفضل، أجل بفضل الخمول. الآخرون لهم شهوات ورغبات وطموحات وآمال تسبب لهم الحزن إن لم تتحقق. أما هو فلم يكن لديه أي شيء من هذا، لاينتظر أي شيء، لا شيء غير ما يُقدم له. ولحسن حظي لم يُقدم له أحدٌ الموت وهو الآن كل من بقي لي كعائلة ولا أدري إن كان بالنسبة لي، جَداً شاباً أو ابناً عجوزاً، إنه الاثنان معاً».

كما قالت لي: «عندما وجدته بمساعدة جمعية مهتمة بالمعتقلين، سألته عما ينوي القيام به. لم يكن يفكر بالعودة إلى غراز نهائياً، كان يريد الرحيل إلى فلسطين، وها أنا آخذه إليها.

تركته جالساً على ترّاس أحد الفنادق يشرب كأساً مضاعفاً من الويسكي. فقد تصادق مع النادل، وهذا الصباح فاجأتهما يتحدثان حديثاً طويلاً، في حين لا يجد أبداً ما يكلمني عنه، لابد أنهما تحدثا عن قبعات النساء قبل الحرب وعن الويسكي المقطر جيداً».

لم تجد كلارا أية صعوبة في الوصول إلى منزلي. «أشعر بأن كل الناس يعرفونك في هذه المدينة».

أخبرتها قليلاً عن عودتي والاستقبال الذي حظيت به والأسطورة الصغيرة، فأظهرت حماساً أكثر مني وقالت: «مغامرة جميلة!» هززت كتفيّ ثم استحضرنا سوية ذكرياتنا كـ «مناضلين قديمين».

استمرت نزهتنا ساعة وأكثر، وكنت أستطيع أن أمشي هكذا أياماً بلياليها دون الشعور بالتعب. كانت كل كلمة نقولها عن نَفسينا وعن الآخرين وعن صفحات التاريخ التي انقلبت وتلك التي ستفتح وعن مسار العالم، تقربنا من بعضنا بعضاً. وكما في ليون من أربع سنوات مضت، كنت أشعر أننا ـ رغم المسافة التي تفصل بيننا ـ متلاصقان! ومع ذلك فإن أيدينا المتأرجحة تكاد لا تتلامس.

في تلك اللحظة، لم أكن أقول لنفسي «أحبها» لم أقلها

لنفسي. وبالأحرى لم أقلها لها. ما سأقوله يبدو مضحكاً لصدوره عن رجل عجوز: كان لدي كل عوارض الحب العنيف، لكني كنت عاجزاً عن التعبير. يبدو لي أن الإنسان يحتاج في تلك اللحظات إلى نوع من الأصدقاء الحميمين الذين حتى لو سخروا منه واتهموه عن نية سيئة بأنه عاشق، فإن تلك الكلمة ستجعله يطرح السؤال على نفسه وبنفسه، وعندئذ يكون الجواب حاسماً.

لكنها نظرت إلى ساعتها كما لو كانت تمزق شراييني. كنت أشعر بألم عضوي جهة القلب، فقلت بصوت متوسل: «ليس بعد!» فعادت إلى السير والتحدث.

بعد عدة دقائق، نظرت إلى الساعة من جديد وتوقفت.

«لا أستطيع ترك خالي لوحده طويلاً، أما أنت فالناس ينتظرونك...»

كنا أمام المدخل الرئيسي للمنزل وكان هناك زوار آخرون. لم نستطع حتى تبادل ولو قبلة واحدة، فلم نكن في فرنسا... لذا شددت على يدها فقط ثم نظرت إليها وهي تبتعد.

عدت إلى الصالون لأجلس إلى جانب والدي، فاقترب مني الناس الذين أتوا في غيابي وأخذوا أماكنهم في كل محيط الصالون، ليعانقوني الواحد تلو الآخر قائلين لي بعض الكلمات الخاصة بذلك الظرف الحزين. حاولت أن أكون ودوداً مع كل منهم، لكن عقلي كان بعيداً عنهم. ما زلت أفكر فيها طبعاً، لكني لم أكتف بأن أعيش اللحظات العذبة أو أتأوه على رحيلها. شعرت بالغيظ وقلت في نفسي افترقنا في المرة

الأولى كُلٌّ في طريقه متّكلين على المصادفة لكي تجمعنا من جديد. لقد كانت الحرب والعمل السري ولم نكن نقدر على فعل أي شيء آخر. أما اليوم فقد وجدنا بعضنا وكان ذلك كمعجزة. وها نحن نفترق مستسلمين مرة أخرى إلى المصادفة.

وإذا خذلتنا المصادفة؟ وإذا لم أستطع رؤيتها أبداً؟ ألا يكون تصرفي تصرف مغفل إن تركتها ترحل هكذا؟ مصافحة! وربما تكون حياتي وسعادتي قد ذهبتا إلى الأبد، وأنا أراقب، بلا ارتكاس.

لن أستطيع حتى الكتابة لها فهي لاتعرف بعد أين ستقطن في فلسطين، ولا كم من الوقت ستبقى. ربما هناك وسيلة لإيصال رسالة إليها لكننا لم نكلف أنفسنا عناء التفكير في هذا. عندما كنا معاً، تكلمنا عن أشياء أخرى ـ بشكل خاص عن خالها ـ كما لو أننا سنتسكع سوية حتى نهاية العمر. ثم انفصلنا خلال عدة ثوان حتى لانجعل وداعنا مؤلماً أكثر.

كلما فكرت أكثر ازداد حنقي، جاهداً ألّا يبدو علي شيء...

فجأة ووسط جملة ما، وقفت وغمغمت ببضع كلمات اعتذار وجهتها لمحدثي في تلك اللحظة ثم إلى والدي وخرجت راكضاً تقريباً. صعدت في سيارة «إلى فندق تدمر، قرب المرفأ!»

في الطريق، خلال تبادلي الحديث بشكل آلي مع السائق، حاولت تحضير ما سأقوله لكلارا لأسوّغ تلك الزيارة المفاجئة. وفي الفندق، خلال انتظاري على أسفل الدرج

بينما يطرق صبيُّ الفندق بابها طالباً منها النزول، كنت ماأزال أحضر جملتي فقد أردت الظهور أمامها بأقل قدر من البلاهة.

عندما نزلت قلقة بعض الشيء، لم أجد أفضل من القول: «لقد نسيت أن أطلب منك وعداً بالكتابة لي!» يجب عليَّ الاعتراف بأن ذلك التصرف كان أحمقَ تماماً، على كلٍّ هذا أفضل، كلما ظهرنا حمقى في مثل هذه الظروف كلما كنا أكثر تأثيراً.

أصغت كلارا إليّ مقطبة تهز رأسها كما لو أني أنبئها بشيء خطير جداً، نظرت إلى اليسار ثم إلى اليمين، لا أحد يرانا. لذا طبعت قبلة على شفتي، قبلة عابرة كنقرة عصفور.

عندما استيقظت من المفاجأة، كانت تصعد الدرج راكضة.

فرحلتُ.

يا إلهي كم كانت السماء زرقاء ذلك اليوم!

كتبت لي رسالة بعد شهرين، مؤلفة من سبعٍ أو ثمانيَ صفحات، لكنها أصابتني ببعض الخيبة. لا ليست الخيبة تماماً، بل يمكن القول بأنها لم تشبعني وأعلم السبب. لقد تصرفت وكأن تلك القبلة لم تكن مطلقاً. بل وثمة ما هو أسوأ: فخلال تنزهنا في الحديقة، بدأنا، نرفع الكلفة فيما بيننا بشكل عفوي، أما في هذه الرسالة، فقد كتبت لي «Sie sind» بدلاً من «du bist»(*)، وبذلك نكون قد رجعنا خطوة إلى الوراء...

نعم، لقد كتبت باللغة الألمانية بينما كنا معتادين على التحدث بالفرنسية منذ أن التقينا في مدينة ليون، كانت تعابيرها صحيحة مع بعض الأخطاء من حين لآخر. أما الكتابة، فكان من الأسهل لها أن تكتب بأسلوب غوته من أن تكتب بأسلوب شاتوبريان.

قالت لي إذاً «أنتم» كما لو أنها نادمة على تلك القبلة... أضف إلى ذلك، لم يكن في رسالتها أي شيء شخصي، على الأقل لاشيء عنا نحن. فقد تحدثت عن خالها وعن الصعوبات التي تعرضا لها في الحصول على منزل يناسبه. هل كان يأمل بالحصول على منزل شبيه بمنزله في غراز؟ لم يعرض عليه

(*) فعل الكينونة في الألمانية sein : يصرف بصيغة المتكلم للمخاطب بـ: du bist = أنت. وفي حال الاحترام والمجاملة يصرف بـ: Sie sind = أنتم.

سوى شقة في طابق أرضي من بناء شيِّد بسرعة تضم غرفتين ومطبخاً يُستخدم أيضاً كقاعة طعام وحماماً مشتركاً مع عائلات أخرى. وتقع تلك الشقة في حي من أحياء حيفا تحتدم فيه المعارك بين اليهود والعرب، إذ لايمر يوم دون معارك أو اعتداءات. لم تكن كلارا تتوقع هذا القدر من العنف فقد حدثتني في رسالتها مرتين أو ثلاثاً عن سوء فهم تراجيدي لابد من إزالته.

لم تتوقع أنه بُعيد سقوط النازية، سيتواجه شعبان كرههما هتلر ويصلان إلى حد الاقتتال. كل منهما مقتنع بأنه صاحب الحق والضحية الوحيدة للظلم. اليهود، لأنهم عانوا من أكثر ما يمكن لشعب أن يعانيه من أذى، من محاولة إبادة وأنهم مصممون على القيام بكل شيء حتى لايتكرر ذلك معهم أبداً. بينما يعتبر العرب أنفسهم ضحية لأنه ألقي على عاتقهم مسألة التعويض عن ذلك الأذى بشكل من الأشكال، رغم أنه لم يكن لهم أية علاقة بالجريمة المرتكبة في أوروبا.

كانت كلارا تقيّم الأمور في رسالتها بهدوء ودون أي تحيّز، في حين أن الأحقاد كانت في ذروتها عند اليهود كما عند العرب. ولم تكتفِ بالتحليل، بل كانت تتصرف وتقاوم كما كانت في الحرب، إلا أنها في هذه المرة كانت تقاوم الحرب.

في الحقيقة، عندما تكلمتُ عن بعض الخيبة فيما يتعلق بتلك الرسالة الأولى، أردت أن أقول بالتحديد بانني كنت أنتظر رسالة حب أو على الأقل رسالة تتناول علاقتنا الوليدة، بدلاً من رسالة من «رفيقة السلاح».

بدت لي كلارا عميقة التأثر بالقتال الذي يدور من حولها، وبدت مصممة على النضال بكل قواها لكي «تتجاوزه». كما

أعلمتني بشيء من الفخر أنها انضمت إلى مجموعة من المناضلين تطلق على نفسها اسم لجنة PAJUW وهي الأحرف الأولى لاتحاد العمال العربي الفلسطيني اليهودي، وحدثتني مطولاً عن مشاريعهم التي أعدوها لأهداف نبيلة. ورغم عددهم الضئيل ـ فلم يكونوا سوى زمرة صغيرة شجاعة ـ كانوا يأملون بتغيير مجرى التاريخ.

هل نظرتُ بارتياب إلى هذا الأمر؟ ليس بقدر ما تبديه أرائي اليوم. إذ بعد ثلاثين عاماً من النزاع، بات مجرد التفكير بأن لجنة PAJUW الشجاعة قد وُجدت ذات يوم مدعاةً للابتسام. قد تكون ابتسامة ساخرة لدى بعض الناس لكنها بالنسبة لي، ابتسامة شفقة على الأغلب. لم تكن لدي ردود الأفعال ذاتها في ذلك العصر، فإذا استرجعت أسلوب تفكيري حينها، ولن يكون ذلك امتحاناً سهلاً، أعتقد بأنني سأصفق لمشروع كلارا ورفاقها، لأنه يتوافق مع مبادئي وليس لأنه صادرٌ عنها فقط.

إن اسم تلك اللجنة يكشف أنها ذات اتجاه يساري واضح، ثم ماذا؟ إن الذين كانوا في ذلك العصر يرغبون بمجابهة الحقد العنصري والديني، لم يعرفوا أن يقولوا شيئاً آخر سوى: «يا عمال العالم اتحدوا!» وهذا لم يدفعنا كثيراً إلى الأمام، لكن يبدو أنها كانت الوسيلة الوحيدة للقول: «لاتتقاتلوا فيما بينكم!».

ولكن لنعد إلى كلارا ورسالتها. أجبت عليها بسرعة قصوى، في اليوم نفسه أو اليوم التالي، وخاطبتها بالفرنسية

وبصيغة المفرد على الفور، آملاً أن تنتبه وتحذو حذوي فيما بعد. لكن دون إشارات تدل على الحميمية، فقد رويت لها بدوري ما قمت به منذ عدة أسابيع والذي يتضمن المحاضرات التي تحدثت خلالها عن «حربي».

لم أتحدث عن ذلك بعد، لكن تلك المحاضرات كانت نشاطي الرئيسي إن لم يكن الوحيد، وقد جعلتني معروفاً في كل أرجاء البلاد.

لقد بدأ ذلك مصادفة بسبب ظرف طارئ. فقد كان بالقرب من منزلنا رابطة رياضية وثقافية، عرف مؤسسوها والدي جيداً. وقد قرر هؤلاء إقامة احتفال على شرف «المناضل الشجاع» الذي كان أنا، واستأجروا قاعةً ودفعوا تكاليفها. لكن جدتي توفيت قبل أسبوع من الموعد المحدد، ولم يعد ثمة مجال للموسيقى الراقصة ولا للاحتفال. لذا بدلاً من إنهاء كل شيء اقتُرح علي المجيء والتحدث عن «حربي» بشكل عام، ورواية بعض النوادر والإجابة على بعض الأسئلة. وهذه أمور لا يمنعني ظرف العزاء من القيام بها.

وُضِعَتْ صفوف من الكراسي على الحلبة المعدَّة أصلاً للرقص، وطاولة صغيرة لي مع كأس من الماء.

لم أكن قد أعددت شيئاً، بل بدأت استحضار بعض الذكريات وكل ما يخطر بذهني، متحدثاً بكلمات بسيطة وبأسلوب المصارحة. كان الناس الذين اعتادوا حضور المحاضرات المماثلة صامتين. شعرت من خلال صمتهم وتنفسهم وتأوهاتهم وبعض تعابير الرضى أو الدهشة التي كانت تظهر أحياناً، أن هناك شيئاً ما يحدث بيني وبين هذا الحشد. لقد تلقيت ذلك المساء ثلاث دعوات أخرى للتحدث،

وفي الأسابيع التالية، عشرين، ثلاثين دعوة، من كل أحياء العاصمة والقرى الساحلية الأخرى وبعض قرى الجبل. كان الناس يصغون إليّ في كل مكان، لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات بانتباه شديد، أنا نفسي شعرت هناك بلذّة لم أعرفها سابقاً. فالناس مفتونون وأنا معجب بقدرتي على جعلهم كذلك. ولم أبخل بوقتي أبداً.

أمّا بالنسبة لوالدي، فمع أحلامه التي كان يغذيها من أجلي، لاداعي للقول بأية عينين كان يتأملني طوال تلك اللقاءات. أما الجديد فهو أنني أنا نفسي، بدأت أؤمن قليلاً بقدري كزعيم وقائد للرجال. مقارنة مع ازدرائي لمغامرتي في المقاومة، كانت تجربتي الجديدة تدفعني لأن أعتبر لأول مرة، ودائماً على مضض، أنه ربما بعد كل ما حدث يوجد شيء من الحقيقة في نبوءات والدي التي تتعلق بي كما لدى نوبار. ربما أواجه بالفعل مصيراً قدرياً. أقول ربما، لأن هذه الفكرة كانت تستميلني ولكني أكرر بأنني كنت أقاومها.

قلت لك البارحة ـ أو قبل البارحة؟ ـ بأنني لم أقدر على متابعة الدراسة بعد الحرب، ولعلّ ذلك بسبب تلك النشوة. نعم لا شك أن الأمور بدأت هكذا تماماً. فقد كنت أشعر أن كل الطرق باتت مفتوحة أمامي، كنت أمشي كما لو أن الحواجز لا وجود لها. ومن هنا يبدأ السقوط.

لكني هنا أستبق قليلاً. لم أكن قد بدأت بالسقوط كنت ماأزال أحتفظ بأجنحتي ولم أكن قد استنفدت كل أفراحي.

في يوم ما، خلال إحدى محاضراتي التي أُقيمت في إحدى دور السينما الصغيرة، اعتقدت أني رأيت شخصاً له

نظرة كلارا يجلس في آخر القاعة، لم تكن قد أعلمتني بمجيئها.

لم أعد أستطيع البقاء في مكاني، وكان ذلك سعادة للعاشق الذي كنته ونكبة للمحاضر، فقد كنت أتحدث بشكل يضطرهم لأن يغوصوا في أعماقهم ويبلغوا درجة عالية من التركيز والتضحية الكبيرة بالذات، كأنني ممثل على خشبة المسرح. في ذلك اليوم ما أن رأيتها حتى بدأ ذهني بالشرود، فهناك الكثير من التساؤلات والصور ونفاد الصبر. لذا اختصرت كلامي وأسرعت إلى الخاتمة معتذراً من الحضور لأنني لن أستطيع الإجابة على أسئلتهم. وأوضح منظم المحاضرة: «ظروف عائلية» واعداً إياهم بعودتي.

بعد نصف ساعة، جلسنا في قاعة استقبال منزلنا، قدمتها أولاً إلى والدي الذي تبادل معها الحديث قليلاً ثم انسحب بلباقة.

لقد جاءت بزيارة عمل لصالح صحيفة لجنتها التي سيصدر العدد الأول منها، وقد فكرت بنشر بعض روايات المناضلين العرب واليهود الذين قاتلوا ضد النازية في مختلف البلدان المحتلة. كان الهدف واضحاً: إقناع الطرفين كليهما بوجوب وقوفهما في جهة واحدة ونضالهما سوية من أجل مستقبلهم المشترك. من وجهة النظر تلك، يمكن لشهادتي أن تكون ذات فائدة.

في قاعة الاستقبال، جلست كلارا على كرسي قاسٍ جداً، فاقترحتُ عليها كرسياً آخر، لكنها فضلت الكرسي الذي تجلس

عليه لأنه مناسب أكثر للكتابة. ثم أخرجت مفكرة ووضعتها على ركبتيها. كانت ترتدي تنورة طويلة مكسرة من القماش الأسكوتلندي الأخضر والأسود وقميصاً أبيض، مما يجعلها تبدو كالتلميذة نوعاً ما. أرادت أن أروي لها تجربتي خلال الحرب من البداية إلى النهاية، منذ وصولي إلى فرنسا وحتى عودتي إلى الوطن. بالنسبة لي من المفروض أن يكون ذلك سهلاً باعتبار أنني أروي تلك القصة منذ عدة أسابيع أمام حضور يتزايد يوماً بعد يوم، ومع ذلك، بقيت صامتاً، باحثاً دون جدوى، عن النقطة التي سأبدأ منها.

عندما طال الصمت، أرادت تسهيل الأمور عليّ: «تخيل أنك في قاعة مليئة، وبمواجهة حضور لا يعرف شيئاً عن حياتك مطلقاً وابدأ!».

«حسناً سأبدأ. هذا ليس سهلاً، أن يكون ذلك بين اثنين في قاعة استقبال، لاسيما أنك تعرفين الكثير من الأمور عن ذلك العصر. لكني سأحاول. دعيني أركز لحظة واحدة».

صمت طويل من جديد.

«كلارا، أريد أن تعديني أنه مهما كانت روايتي، فلن تقاطعيني ولا بأية حجة، قبل أن أقول لك: انتهيت. وألاّ تنظري إليّ، بل انظري فقط إلى مفكرتك».

«أعدك!»

كانت تبتسم لتصرفاتي الصبيانية، فقد كنت مرتبكاً وربما مثيراً للشفقة. بعد فترة جديدة من الصمت، قلت كلمات لم أنسها بعد:

«لقد فكرت طويلاً منذ لقائنا الأخير، وأدرك الآن دون

أدنى شك، بأنني مغرم بك. أنت امرأة حياتي ولن يكون هناك امرأة أخرى. أحبك بكل كياني، أحبك في غيابك وحضورك. إن لم تشعري بما أشعر فلن أصر على الأمر، فهذا الشعور على قدر من القوة والعفوية بحيث يجب أن يستحوذ عليك كلياً، فهو ليس رغبة نحصل عليها مع الزمن. إذاً، إن لم تشعري به سنتحدث عن شيء آخر فوراً ولن أزعجك أبداً. ولكن إن كنت تشعرين بما أشعر فأنا أسعد كائن في العالم وأطلب منك: كلارا، هل تصبحين زوجة لي؟ سأحبك حتى النفس الأخير...».

لقد صببت كل شيء دفعة واحدة حتى لاتقاطعني وكي لا أتعثر بالكلمات، لم أنظر إليها ولو لمرة واحدة وعندما صمتُّ لم أنظر إليها أيضاً، فلقد خشيت أن أرى في عينيها ما يمكن أن يشبه اللامبالاة أو الشفقة أو المفاجأة، لأنني وإن كنت أدرك بما لا يقبل الشك أني فاجأتها بكلماتي فإن كل إظهار للمفاجأة من قبلها كان سيدفعني للتفكير بأننا لسنا في الموقع ذاته، وكل ماستقوله بعدها لن يكون إلا كلاماً لطيفاً أو نوعاً من العزاء.

إذاً، لم أنظر إليها مطلقاً، ولو استطعت إبعاد أذنيّ كما عيني لفعلت. لأن ما سأراه في عينيها من مظاهر اللامبالاة والشفقة، كنت أخشى أن أسمعه عبر كلماتها وبنبرة صوتها، لكني سمعت فقط تنفسها الحار وكأنها تتنهد.

«أجل»

قالت: «أجل».

إنها الإجابة الأجمل والأبسط، ومع ذلك كانت آخر إجابة أنتظرها.

كان من الممكن أن تلفظ تلك الكلمة بصياغات ملتوية لتشرح أنه في تلك الظروف، لايبدو لها من الممكن أن... وكنت سأقاطعها فوراً لأقول لها: «لاتتكلمي البتّة!» فتعدني بأن نبقى أصدقاء حميمين، وأرد عليها «بالتأكيد» لكنني لن أرغب برؤيتها من جديد أبداً أو سماع اسمها.

تستطيع، بالعكس، أن تشرح لي بأنها تشعر بما أشعر منذ لقائنا الأول... فأعرف عندئذ ماذا أقول وماذا أفعل.

تلك الكلمة، كلمة «أجل» البسيطة والجافة جعلتني أبكماً.

كنت أرغب أن أسألها: «أجل، ماذا؟» لأنها ربما أرادت وببساطة أن تقول لي: «أجل سمعت»، «أجل إني أدوّن»، «أجل إني أفكر».

ونظرت إليها قلقاً متردداً.

كانت كلمة «أجل» الحقيقية والأكثر نقاءً. قالتها بعينين دامعتين، وابتسامة امرأة معشوقة.

مساء الجمعة

تركت عصيان في تلك اللحظة بحجة أن لدي موعداً لا أستطيع إلغاءَهُ. لقد شعرت بأن علي أن أغادر وأتركه وحيداً مع تلك الصورة التي عادت من جديد أمام عينيه، أتركه يعيش تلك اللحظة ويستعيد تلك الكلمات ويرى أيضاً وأيضاً وجه المرأة التي أحب. وستاتي البقية فيما بعد بسرعة.

فتح لي الباب معبراً عن امتنانه ومشى معي على السجادة الصفراء الضيقة في الرواق المغبر بضع خطوات حتى المصعد.

عند عودتي بعد الظهر، لم يكن فرحه قد خمد بعد، وإن كان قد سألني: «أين وصلت في حكايتي هذا الصباح؟»، فلم يكن ذلك لأنه أضاع الخيط، بل فقط ليسمعني أردد، كما أعتقد:

- إلى حيث تقول لك «أجل!»

إذاً، رفعت غطاء قلمي وفتحت مفكرة جديدة كما فعلت في بداية تلك المشاهد الثلاثة السابقة، وكتبت على الصفحة الأولى وقبل أن أقلبها «مساء الجمعة» بينما بدا الرجل كأنه مازال يبحث عن كلماته.

- هل يمكن أن أطلب منك ألا تبدأ بالكتابة مباشرة؟

فأعدت غطاء قلمي إلى مكانه ورحت أنتظر وأنتظر، كان صوته يأتيني من بعيد.

ـ لقد تعانقنا أنا وكلارا.

أراهن على أنه احمرّ خجلاً عندما أسرّ لي بذلك فقد غضضت الطرف، إذ ليس من السهل أن يقدم نفسه هكذا. وفيما بعد، وبعد جهد، بدأ يذرع الغرفة بخطى رشيقة دون أن يتفوه بأية كلمة، ثم وكأنه انتهى من طوافٍ عذب في داخله واكتشف وجودي، فجأة قال لي مع حركة من كفه:

ـ وهكذا!!

اعتقدت أنه وصل بذلك إلى نهاية القسم الحميمي، فسوّيت صفحات مفكرتي بحركة اعتدتِ عليها وحضرت نفسي لأبدأ بكتابة ما سيمليه عليّ. لكن تردداً ما جعلني أسترد يدي، فقد كان في عينيه بريق جعلني أفكر بانه لم يعد تماماً بعدُ من حجّه الروحي. لذا أغلقت قلمي ووضعته بحركة ظاهرة في جيب سترتي الداخلي، كما أغلقت أيضاً غطاء مفكرتي وشبكت ذراعيّ. ابتسم محدثي وفك ياقة قميصه وتشبثت عيناي على تفاحة آدم وسط رقبته.

يبدو لي بأن استحضار تلك الصفحة من حياته، قد جددت شبابه وبدا عليه قليل من الحماسة والنشاط.

ماذا أستطيع أن أروي من تلك الأسرار دون أن أخونه؟ آه، لم يتكلم شيئاً يبتعد عن ذلك الحياء الشرقي الصارم. ومع ذلك سألوم نفسي إن قوّلته أشياء لم أسجلها في حضرته، وسألوم نفسي بشكل أقل إذا لم أكتب عنها إلّا بشكلٍ عام.

لقد ذهب برفقة كلارا إلى فندق تدمر حيث استاجرث غرفة هناك، كما فعلت في زيارتها السابقة. مرّا في المكان الذي كانت قد طبعت فيه قبلة على شفتيه المندهشتين، ولم يكن هناك، هذه المرّة أيضاً، أي شخص، فأعاد لها عصيان

قبلتها. القبلة ذاتها الشبيهة بنقر العصفور، ثم شبكا أصابعهما وصعدا الدرج ولم تفترق نظراتهما أبداً.

كانت الغرفة تقع في الطابق الثالث ولها نافذة كبيرة، تطل يساراً على أبنية المرفأ ويميناً على الخط الساحلي والامتداد البحري. فتحت كلارا النافذة، فدخل إضافة إلى ضجيج المدينة، بعض الهواء الدافئ. وكانت أيديهما الرطبة، تطمئن كل واحدة الأخرى، وأعينهما مغلقة من الفرح والحياء.

عندما كان يتكلم، لم أكن أكتب بل أراقبه فحسب، لاحظت أنه كان نحيفاً وطويل القامة، لكنه بدا لي هذه المرة وكأنه ممطوط، نعم ممطوط في كل أرجاء جسمه، ساقاه وذراعاه وكل النصف العلوي من جسمه وعنقه بشكل خاص. وبدا لي فجأة ممطوطاً بشكل مضحك قياساً برأسه الأبيض الطفولي الصغير. وربما كان ذلك السبب في تلك النزعة إلى الميل برأسه باستمرار إلى الجانب. كان هناك، أمامي، مثلما رأيته في الصورة سابقاً، الصورة الموجودة في كتاب التاريخ خاصتي...

تابع طريقه إلى جانب حبيبته، غير مكترث بنظراتي.

ـ وفي المساء، خرجنا لنمشي على الكورنيش باتجاه خليج السان جورج وتكلمنا عن الزواج.

نعم، في المساء ذاته، ولِمَ ننتظر؟ كانت السعادة تمر فوق راحتينا كحبل سميك، لذا علينا إغلاق أيدينا والضغط بقوة كي نمسك بها. ولم تعد لقاءاتنا التالية، قضية متروكة للمصادفة كي تعنى بها وتنظمها لنا.

كان لكل واحد منا رغبة وإرادة العيش معاً كل لحظة، في

المستقبل وإلى الأبد وتذليل كل العقبات إن وجدت. وبدا لنا أن لا شيء لايمكن قهره. لابد من اتخاذ بعض القرارات والقيام ببعض الخيارات. وفي البداية، أي زواج سيكون؟ لم يكن في بيروت زواج مدني ولانريد أن نتزوج زواجاً دينياً، كما لا نريد أن نصل إلى سعادة أن نكون سوية عبر كذبة، وكلانا لا نكنُّ للأديان المحيطة بنا تقديراً كبيراً، ولِمَ التظاهر بعكس ذلك؟

إضافة إلى ذلك، أي دين سنختار من أجل احتفال الزواج؟ دينها؟ ديني؟ وكل اختيار يطرح من المشاكل أكثر مما يحل! لا، لدي أفضل فكرة: جاك أبو الأوراق المزيفة.

سألتني كلارا برعب: «أتريد أوراقاً مزيفة للزواج؟». هدّأتُ من روعها. كان جاك في الحياة المدنية مختاراً لبلدة صغيرة في الضواحي الباريسية. ولم يكشف لي عن ذلك إلّا بعد نهاية الحرب وكان يتحضر للعودة إلى تحمل مسؤولياته. مَنْ أفضل منه يستطيع تزويجنا؟ وهو أول من كان سبباً للقائنا عن غير قصد. أليس هو الذي كنا ننتظره تلك الليلة في مدينة ليون؟ وكان قرارنا سريعاً: سنذهب وحدنا إلى فرنسا كي نقوم بمعاملات الزواج، ثم نعود للاحتفال بالحدث مع أهلنا.

لم يتردد والدي لحظة واحدة عندما أخبرته بمشروعنا، فقد قال: «ذكية وجميلة ومحبة... وثورية! ماذا أطلب أكثر؟» كان سعيداً بالنبأ فهو تبنّى كلارا منذ اللحظة الأولى، وأظهرت له بدورها، تقديراً حقيقياً كما لو أنها قد وجدت أباً جديداً مرحاً وصاخباً وحسّاساً.

بقي الخال ستيفان، لم تكن كلارا واثقة من ردة فعله،

وكانت ترغب بالحصول على موافقته احتراماً له. ولكنها قررت ألاّ تعيره اهتماماً إن رفض. واتفقنا على الافتراق لعدة أسابيع كي يستطيع كل واحد منا القيام بالتجهيزات الضرورية مثل إخبار الأهل وإعداد الأوراق الضرورية، ثم نلتقي في باريس في يوم محدّد وساعة محددة ومكان محدد...

وكان الموعد في هذه الحالة، 20 حزيران ظهراً على ضفة «الساعة».

ولِمَ ضِفّة «الساعة»؟ لأنه عندما كنت في «المشغل» في مدينة ليون، روى لي أحد الرفاق قصة جرت أحداثها قبل الحرب، تروي حكاية حبيبين تواجدا على تلك الضفة «بين البرجين» تماماً، وأحضر لي وقتها مخططاً كي يدلني على الموقع على ضفاف نهر السين. مازلت أذكر حركته وربما وجدت فيها إشارة ما. وعندما أردت اختيار مكانٍ لموعدنا، لم يخطر في بالي سواه.

في باريس، تمّ كل شيء وفقاً لما خُطط له وبشكل أفضل أيضاً. اقتربنا أنا وكلارا من البرجين الصغيرين، في اللحظة نفسها هي من جهة من الضفة وأنا من الجهة الأخرى.

كان جاك أبو الأوراق المزيفة ـ لا أقدر على منع نفسي من مناداته هكذا رغم أنه قد عاد إلى ممارسة مهامه وحياته المدنية ـ قد اتصل مع الشاهدَين المتوَقعين. وكان برتران شاهدي بينما كانت دانييل مضيفة لقائنا الأول في ليون، شاهدة كلارا.

كان الجو مظلماً في دار البلدية وكان عدد الاشخاص

قليلاً بحيث اعتقدنا أننا عدنا إلى العمل السري. ولم يكن ذلك مزعجاً لأصدقائي، الذين كانوا يشعرون بغصة عندما يعاودون التفكير بذلك العصر الذي لم يمض عليه زمن طويل، حيث لكل حركة مدلول ما. فالسير في الشارع مثلاً، دون أن يتعرف عليك أحد كان مأثرة متجددة باستمرار، أما اليوم، فالسير في الشارع دون أن يتعرف عليك أحد هو ضيقٌ يومي. فكيف يمكن لإنسان أن يستمتع بطعام لا طعم له وقد كان لأربع سنوات غارقاً في التوابل؟

لم أكن في ذلك العصر أشعر بالضيق مثلهم، فأنا لست شخصية بارزة في المقاومة، بل ـ في أحسن الأحوال ـ مصغراً لشخصية بارزة. لذلك لم أعرف ذلك التقهقر المفاجىء من الحلم إلى الحقيقة، إذ ما أن انتهى العمل السري حتى عدت مباشرة إلى وطني حيث لا وجود لشخص مجهول.

ومن ثم، كانت كلارا. إنْ كانت الحرب قد جمعتنا، ففي السلم رغبت بالعيش معها، إذ أنني لا أدين للغربة إلا بضريبة لقائنا بينما أنا أقدِّس المستقبل، مستقبل سنواتنا المشتركة والمستقبل المباشر أيضاً. والخطوات الأولى برفقة من ستحمل اسمي من الآن فصاعداً. وكل الأشياء التي سنقوم بها سوية لأول مرة قائلين إنها في كل مرّة ستكون المرة الأولى. إنها وعود عاشقين لكنها وعود أكيدة. لم أعانق كلارا يوماً أو أضع يدي بيدها وأنا أشعر بأن ذلك حدث سابقاً أو رأيته سابقاً أو أحسست به سابقاً. يمكن للحب أن يبقى بكراً وكذلك المشاعر، شهراً بعد شهر وسنة بعد أخرى، فالحياة ليست طويلة كفاية كي نضجر منها.

بعد عودتنا من فرنسا، أقام لنا والدي احتفالاً جميلاً، لم يعرفه منزل كتابدار مطلقاً. وكنت قد توسلت إليه قبل رحيلنا، كي لايقوم بأعمال جنونية، فقال ببساطة: «اترك لي هذه المتعة!»، وتركتها له، فقام بكل الأعمال الجنونية التي خشيت أن يقوم بها. إذ تناوبت على العزف فرقتان موسيقيتان، إحداهما شرقية والثانية غربية، كما كان هناك المئات من المدعوين، بالإضافة إلى قالب من الحلوى ضخم جداً، اضطررنا لخفضه إلى مستوى الأرض كي نستطيع إدخاله عبر الباب المرتفع لصالة الطعام. لايمكنني أن أصف بدقة الإضاءة وذلك الفيض من الطعام. ولأول مرة في حياته، سلك والدي الذي استاء دائماً من محدثي النعمة، سلوك محدث النعمة. لكنه أخيراً، كان سعيداً وكذلك كلارا، فماذا أريد أكثر من ذلك؟

وأنا؟ ألم أكن سعيداً؟ لا أريد أن أبدو مقيتاً، لكن الأهازيج لا تفرحني. مع ذلك كنت سعيداً. سعيد أولاً بالحدث الذي يحتفل به بهذا الشكل، سعيد بإمساك يد كلارا من حين لآخر وتبادل النظر معها وسماعها تضحك خلفي وتقول إنه في نهاية هذه السهرة ستلقي برأسها التعِب على كتفي. كنت سعيداً أيضاً برؤية أشخاص لم أرهم منذ زمن طويل، بدءاً من أختي التي جاءت من مصر لتحضر الاحتفال مع زوجها الذي لم أكن قد التقيته قبل اليوم.

كان يوجد بالطبع، الخال ستيڤان الذي كتب له والدي وأرسل سيارة لتقله من حيفا إلى بيروت، فلم تكن المسافة تتجاوز المئة وخمسين كيلو متراً، وتحتاج في ذلك العصر إلى أربع ساعات على الطريق مع التوقف. وصل ظهراً، وكان لدينا الوقت الكافي للتعارف قبل أن يغزو المدعوون المنزل.

هل كنتُ أتخوف من ذلك اللقاء؟ ليس تماماً. لكن كلارا كانت متوترة، فقد كانت متخوفة مما سمعته من أهلها سابقاً. على أي شيء يلومونه؟ ألأنه صبي عجوز وغني، موسوس وكسول؟ كنت متأكداً من أنه سيتفاهم مع والدي، فكلاهما من رجال القرن التاسع عشر الذين لا يتأقلمون مع هذا القرن، ولن يكتشفا في نفسيهما سوى التوق المشترك إلى الماضي.

إن كان هناك ما يخيفني، فهو دخول أختي التي كانت غائبة معظم النهار إلى الصالون برفقة زوجها، ويمكن تصور المشهد: فمن جهة، هناك محمود ابن العائلة الكبيرة المسلمة من حيفا، الذي اضطر لترك مدينته بسبب التوتر السائد بين العرب واليهود، والذي كان من وقتها يشعر أنه لن يستطيع العودة إليها أبداً. ومن جهة أخرى، هناك ستيڤان، يهودي من أوروبا الوسطى، أتى ليستقر بالتحديد، في تلك المدينة. وكلاهما من الأهل المقربين للزوجين الجديدين...

قررت أن أقتصر على التعريف الأكثر إيجازاً: محمود كرملي، صهري. ستيڤان تيمرل، خال كلارا. فتصافحا.

قال والدي بصوت مرتفع وباللغة الفرنسية: «لديكما شيءٌ مشترك، محمود من حيفا، وخال كنتّنا يقطن في حيفا أيضاً».

تبادلنا النظر، أنا وكلارا، وكل منا يمسك بيد الآخر كما لو أننا نريد مواجهة ثورة الغضب بشكل أفضل.

وتابع والدي: «اجلسا بالقرب من بعضكما بعضاً، لديكما بالتأكيد أشياء تقولانها».

كان يصر أليس كذلك؟ لكن لاتظن أن إصراره نتيجة خطأ ما أو قلة في الذوق، بل تحدياً، وبمعنى آخر، كان نتيجة عقلية متحدية. كان في داخله ازدراء كبير لذلك الموقف الذي انتشر كثيراً في المشرق، والذي يدّعي «مراعاة» الحساسيات والانتماءات الدينية. يتضمن ذلك الموقف مثلاً، أن يهمس لمدعويه: «انتبهوا، فلان يهودي!»، «فلان مسيحي!» «فلان مسلم!»، فيؤدي ذلك لأن يكبت كل منهم آراءه التي يرددها دائماً، تلك الآراء التي نقولها عندما «نكون بين ظهرانينا»، ويطلق عوضاً عنها ترهات منافقة يظن أنها تعكس الاحترام الذي نكنّه للآخر، بينما هي في الحقيقة، انعكاس للازدراء والنفور كما لو أننا ننتمي إلى أجناس مختلفة.

وإنْ نتف كل من هذين الرجلين اللذين يجلسان قرب بعضهما، ريشَ الآخر؟ فليكن، فهذا يعني أنهما يستحقانه، وهذا كل شيء. أما هو، فمن واجبه معاملتهما كأناس تورطوا في نهاية الأمر في المغامرة الكبرى ذاتها. وإن لم يكونا جديرين بذلك، فتباً لهما. وإن تخرب الاحتفال نتيجة ذلك؟ فتبّاً أيضاً، إننا ساعتها لانستحق مثل هذا الاحتفال!

كانت ردة فعلنا، أنا وكلارا، هي الخوف من الفضيحة. ولم يكن موقفاً شجاعاً ولكن حاول أن تضع نفسك مكاننا. لم نكن نرغب بتنامي الحقد بين عائلتينا، فزواجنا بحد ذاته، لم

يكن في ذلك الزمن أمراً سهلاً. وكنا بحاجة قبل كل شيء لأن نحمي نَفْسَينا من الأحقاد المحيطة بنا.

لكنها كانت ردة فعل غريزية، فقد كان في نظرتنا التي تبادلناها، أنا وكلارا، تسلية أكثر منه قلق، فانسحبنا دون أية كلمة متراجعين.

عدنا بعد ساعة تقريباً وفوجئنا بوجود الرجلين لوحدهما وفي المكان نفسه، ثم خرجا سوية يضحكان ضحكاً متواصلاً. بالطبع لانعرف سببه ولكننا انضممنا إليه أنا وكلارا، مرتاحين وخجلين من مخاوفنا المفرطة.

وإذ لاحظا بعد برهة وجودنا والحيرة على وجهينا، رفع كل من محمود والخال ستيفان كاسه تحية لنا.

من يراهما، يقول بأنهما أفضل صديقين في العالم، وكنت أرغب ببقائهما هكذا... لكن وللأسف، ربما قد فات الأوان.

انتبه أنا لا أقول إنهما تخاصما. لا، على الإطلاق. كان كل منهما يُظهر مجاملة كبيرة للآخر، وكانا يجلسان على أريكتين متلاصقتين مريحتين، يتبادلان الكلام. كما بدا أنهما يرويان القصص الأكثر غرابة مستخدمين اللغة الإنكليزية كرجال من الطبقة العليا، جالسين في ناديهم. وكان صهري بشكل خاص هو من يروي النوادر ويرافقها بحركات كثيرة وبإيماءات وهمسات يشجعه عليها ما يبديه محاوره من سرور.

لكن الامور فسدت في لحظة ما دون سبب ظاهر، فقد

انضم إليهما مدعوون آخرون مقدمين أنفسهم ومنحنين تبجيلاً، فانسحب محمود معتذراً.

بعد قليل، وبسبب وجود بعض الهواء البارد، صعدت إلى الطابق العلوي لإحضار كنزة صوفية، فوجدت صهري هناك، جالساً على أريكة، في الظلمة، كان متكدراً وأظنه كان يبكي. أردت أن أسأله مابه، لكني تراجعت خشية أن أضايقه، لذا تصرفت كما لو أني لم ألحظه. ولم يظهر بعدها طوال السهرة.

ما الذي يمكن أن يسبب له تلك الحالة؟ وحين عدت إلى الطابق الأرضي تحدثت مع أختي في الأمر فاهتمت له دون أية دهشة، فقد كان زوجها، في الفترات الأخيرة، دائماً هكذا، في كل مرة يتحدثون فيها عن حيفا أمامه، يبدأ متحمساً، فيروي الكثير من القصص عن الماضي، الماضي البعيد، وعن ذكريات طفولته، وتلمع عيناه. كان الجميع يجد متعة في الاستماع والنظر إليه. رغم ذلك، ما أن يسود قليل من الصمت حتى يقطب حاجبيه ويغرق في الكآبة.

لم يتكلم قط عن مزاجه ذاك. لكن، وفي أحد الأيام، عندما اقترحت أختي عليه إصدار كتاب يضم كل ذكرياته التي يمكنه استحضارها بهذا الشكل المذهل، استبعد الفكرة كلياً قائلاً: «ذكرياتي؟ أنا بذلك كمن يرفع كميات من التراب باتجاه الضوء، مثل رفش حفار القبور».

أمّا الخال ستيفان، فقد كان لحديثه مع محمود، وقعٌ مختلف عليه. أقصد الوقع المعاكس. فهو الذي كان بطبيعته صموتاً وغالباً متذمراً، بدا ولبقية السهرة، مندفعاً ومسروراً برفقة الشبان، مداعباً النساء وباحثاً بعينيه باستمرار عن رفيقه المتواري.

في نهاية السهرة، ولدى رؤيته لكلارا، ركض باتجاهها وأخذها جانباً ليسألها بأسلوب سري جداً:

«ألا تعتقدين أنه لابد من إيجاد وسيلة للمصالحة... معهم؟»

«انظر حولك خالي ستيڤان، نحن متصالحون!»

«أنا لا أتكلم عن هذا، أنت تفهمينني تماماً!»

خلال حديثي مع أختي ذلك المساء، ولأول مرة منذ سنوات طويلة، انتهزت الفرصة كي أسألها إن كان زوجها متعبداً ومتزمتاً كما وصفه والدي، فضحكت وأوضحت لي أن محمود شعر بالإهانة في يوم من الأيام، كان فيه والدي يتهجم على الدين، وهذا كل شيء. وهنا الفارق بيني وبين والدي، فربما حدث أن فكرنا في الشيء نفسه، لكني أتجنب قول مايمكن أن يصدم الأشخاص الموجودين أمامي، أما هو، فيندفع إلى الأمام متأكداً من أنه على حق.

أي موقف هو الأفضل؟ أندم في الوقت الحاضر، لأنني لم أكن مثله، ولكن مما لاشك فيه أنني لم استطع أن أصبح الثائر الذي يتمناه لأنني عشت في ظل صوت قوي.

بعد الاحتفال الأول، كان هناك احتفال آخر في حيفا، أقل بذخاً لكنه مؤثر. في البداية، بدا لنا، أنا وكلارا، ذلك الاحتفال غير ضروري لأن الخال ستيفان استطاع الحضور إلى بيروت. إلاّ أن أعضاء لجنة PAJUW ، أصروا على ذلك لأهمية الموضوع بالنسبة لهم، فلم نرغب بمعارضتهم.

تواجد في الاحتفال عشرون شخصاً تقريباً من العرب واليهود، وربما كان اليهود أكثر بقليل من العرب. وألقى نعيم، أحد منظمي الاحتفال، كلمة قال فيها إنه يرى في زواجنا حدثاً هاماً، وفي حبنا تكذيباً للحقد.

كان نعيم شخصاً غريباً وسط تلك المجموعة، بغليونه الذي لايتوقف عن إشعاله والذي تفوح منه رائحة الوشنة الحلبية(*)، وبشعره الرمادي الكثيف. لم يكن عاملاً ولا مثقفاً حقيقياً بل كان صناعياً مفلساً. كان على الآخرين، منطقياً، أن يحذروا منه بسبب ماتقوله كتبهم عن الأصول الطبقية، لكن لم يكن الأمر كذلك مطلقاً، فلا أحد يشك بدوافعه العميقة وإخلاصه، بل ويقر له الجميع، في الاجتماعات، بحق التصدّر. يُقال بأنْ أهله كانوا فيما مضى يملكون نصف المدينة تقريباً وهذا هو الأسلوب الشرقي للقول إنهم كانوا أغنياء، لكن أزمة

(*) الوشنة: نوع من ثمار الكرز

الثلاثينات أفلستهم مثل الكثيرين غيرهم. توفي والد نعيم ووالدته وأعمامه واحداً تلو الآخر، من الكآبة والغيظ، فآلت إليه المهمة الصعبة في تصفية ثروة الأسلاف إرضاءً للدائنين. باع كل شيء وخسر كل شيء عدا مسكن على شاطئ البحر مبني في العصر العثماني، واسع ويبدو أنه كان غنياً فيما مضى لكن صاحبه لا يمتلك القدرة على صيانته، وكان عندما شاهدته في حالة خراب كبير. فالجدران متآكلة وبعضها منهار، وتغزو الأشواك الحديقة، أما الغرف فمفروشة بالحصر والحشايا العتيقة، والقرميد مخلوع، لكنه مازال يحتفظ بطابع نبيل وهادئ وساحر، وفي هذا المنزل، جرى الاحتفال الذي أقيم على شرفنا.

خلال السهرة، سمعنا ولمرتين متتاليتين صوت انفجارات بعيدة. كنت الوحيد الذي تأثر بها. أما الآخرون المعتادون على الأمر فكانوا فقط يتكهنون بلا مبالاة عن مصدر الانفجارات. توقفت الرقصات بضع ثوان فقط، ثم عادت من جديد على صوت الفونوغراف المُستأجر.

كم من الاحتفالات أقيمت ذلك الصيف، أليس كذلك! كنا نتجنب ضمن تلك الزوبعة، أنا وكلارا، طرح السؤال الحاضر في ذهنينا بجدية: أين سنعيش؟ الشيء الأكيد الوحيد، هو أننا سنكون معاً. بالتأكيد، ولكن أين؟

لو كان علي اتخاذ هذا القرار اليوم، لعرفت ما أفعله. كنا رحلنا في نهاية الصيف إلى مونبيلييه حيث أتابع دراستي في الطب وتتابع هي دراستها في التاريخ. وأنا واثق اليوم أنه الشيء الوحيد الذي كان علينا القيام به. لو كان في رأس ذلك

الشاب الذي كنته، صوت العجوز الحكيم الذي أنا عليه اليوم، لقال: «أنقذ نفسك! خذ زوجتك بيدها بقوة واركض! اركضا! وانقذا نفسيكما!» لكن لم يكن للشابة والشاب من ينصحهما سوى أوهام اللحظة. إعصار سيضرب المشرق، ونريد أن نقف سداً بأيدينا العارية! هذا ما كان بالضبط. لقد رضي العالم أجمع برؤية العرب واليهود يتقاتلون خلال عقود من الزمن وربما قرون. استسلم العالم أجمع، الإنكليز والسوفييت والأميركيون والأتراك... العالم أجمع عدانا نحن الاثنين وبعض الحالمين مثلنا. أردنا منع ذلك القتال، أردنا أن يكون حبنا رمزاً لطريق آخر.

أتقول إن هذا الأمر كان شجاعاً؟ لا، لقد كان أخرقَ! بمقدورنا صياغة أمل بالسلام والتسامح، وهذا أمر محمود وجميل ومحترم. ولكن المراهنة بوجودنا على هذا فقط، والعبث بسعادتنا وحبنا وزواجنا ومستقبلنا دون التفكير للحظة واحدة أننا قد نخسر الرهان؟ أقول اليوم: «عبث»، «ضلال»، «أخرق»، «غبي»، «انتحاري»! كنت أقول شيئاً آخرَ في ذلك العصر. لم تخطر في ذهني وقتها، عام 1946 ، فكرة قضاء ثلاث أو أربع سنوات في فرنسا ريثما يمر الإعصار. أوقفني عن هذا، أكون ممتناً. أستطيع الاستمرار بتلك اللازمة التي لطالما اجتررتها زمناً طويلاً!

إذاً، قررنا البقاء في المشرق، متنقلين بين حيفا وبيروت، عندما كانت الحدود مفتوحة لم تكن المسافة طويلة عبر الطريق الساحلي. كانت لدينا محطتان، أو مرفآن، كما كنا نقول سابقاً، وعدد من المنازل، لكن أياً منها لم يكن

لنا وحدنا. في حيفا، كنا ننام أحياناً في شقة الخال ستيفان، وأحياناً أخرى في منزل نعيم. أما في بيروت، فلم نطرح قضية السكن خارج المنزل العائلي الذي كان واسعاً ولايعيش فيه سوى والدي، لذا بإمكاننا الاستقرار فيه بشكل طبيعي. كانت كلارا كأنها في منزلها، تتصرف كسيدة المنزل. وكنت مجنوناً بحبها، كما كانت عزيزة على والدي أيضاً.

هل كان منزلنا اللبناني، هو المنزل الذي نفضله؟ ربما... لا أدري... كنا نذهب في فترات نظامية إلى حيفا. لأن كلارا كانت قد وعدت خالها بالذهاب لرؤيته كل شهرين، بالإضافة إلى خوفها من أن تفوّت عليها اجتماعات اللجنة. وكنا نشعر شيئاً فشيئاً بقربنا من نعيم الذي أصبح كما يبدو لي، أفضل صديق مشترك، لنا نحن الاثنين. كان منزله مريحاً بشكل كافٍ، كما كانت حديقته المليئة بالأشواك تمتد حتى الشاطئ. كنا نذهب إلى ذاك المنزل بكثير من السحر. لكننا نعيش في بيروت بشكل أساسي، وفيها عدنا إلى دراستنا.

فيما يتعلق بي عليّ القول أنني حاولت العودة للدراسة، سجلت في كلية الطب الفرنسية التي كان يديرها الآباء اليسوعيون، ولم يكن مستوى التدريس فيها أقل من مستوى التدريس في مونبيلييه. وكان من الممكن أن أدرس فيها من البداية، لكن في الثامنة عشرة من عمري كنت أرغب بالابتعاد عن ظل والدي قبل كل شيء. فقد كنت أدرس لأرحل أكثر من كوني أرحل لأدرس.

لم يبق موقفي فيما بعد على ماهو عليه، فلم أعد أرغب بالابتعاد عن والدي الذي أصبح وحيداً، وتغيرت علاقتي به

كلياً منذ أن أصبحت بطلاً مزعوماً في المقاومة، وخاصة بعد زواجي. أصبح عجوزاً، وكانت زوجتي سيدة المنزل.

كلارا أيضاً سجلت في الجامعة حيث أظهرت كعادتها دائماً نشاطاً كبيراً. كانت مناضلة ومجدّة، كما بدأت بتعلم اللغة العربية.

بالنسبة لي فقد قلت سابقاً بأنني حاولت الدراسة، نعم، حاولت فقط.

شعرت لدى عودتي إلى مقاعد الدراسة، بصعوبة كبيرة في التركيز على ما أقرأه. مستحيل، لاسيما تذكر ما تعلمته. قلت في البداية إنه من الطبيعي أن يحصل ذلك بعد خمس أو ست سنوات من الانقطاع، انشغلت خلالها بأمور أبعدتني كلياً عن الدراسة. لكن مشاكل التركيز استمرت وكانت تسبب لي من التوتر ما لا أستطيع تَقَبّله، فأنا الذي كنت فخوراً بذاكرتي وقدرتي على الاستيعاب، بتُّ أشعر بأني عاجز كلياً، وكنت خجولاً من ذلك.

طبعاً، كان عليّ أن أحاول علاج هذا الأمر، لكني رفضت قبول فكرة وجود تشوّه ما يحتاج إلى العلاج. فضلت الاعتقاد بأن الأمور ستتحسن مع الزمن، وبحثت عما يعوضني عن ذلك.

أية تعويضات؟ أولاً، محاضراتي التي جددتُ بعضها، لكنها كانت تدور حول ذات الموضوع وهو ذكريات المقاومة. ومن ثم هناك السعادة... ولو كان من غير اللائق التحدث عن السعادة كتعويض، لكنها لعبت ذلك الدور ايضاً. كنت سعيداً

جداً برفقة كلارا التي حاولتُ ألّا أشوشها بما يمكن أن يجري خارج حياتي العاطفية. ففي كل مرة كنا نمسك فيها أيدي بعضنا البعض، كان قلبانا يخفقان ولم أكن أسمع بعدها مخاوفي ولا ضوضاء العالم. حاولت إقناع نفسي بأن كل شيء يسير على ما يرام.

وبمعنى ما، كان كل شيء يسير ما يرام.

لا، لم يكن ذلك صحيحاً، فلا شيء كان يسير بشكل جيد حولنا. ولكن، نظراً إلى ما كان علينا معرفته قبل زمن طويل، فقد كنا في الجنة.

إن كنت تتذكر، كان ذلك في الوقت الذي يتحدثون فيه عن تقسيم فلسطين إلى دولتين إحداها لليهود والثانية للعرب، وكانت الأحقاد كبيرة جداً عام 1947 لدرجة أن أحداً هناك ما كان قادراً على التعبير عن آرائه الميالة للتسامح بصوت مرتفع. فالاعتداءات في كل مكان والمظاهرات والاشتباكات وصيحات الحرب كذلك، وكانت الطرق تزداد خطورة في كل مرة نسافر فيها إلى حيفا ونعود.

كنا، أنا وكلارا، أضحيات مؤجلة، ثم وببضع ضربات من مخلبها، أخرجتنا بشاعة الدنيا من مخبئنا.

ربما كانت نقطة التحول في حياتنا يوم خروج أخي من السجن إثر عفو نهائي.

كان ذلك في بداية بعد الظهر، وكنا مانزال جالسين حول المائدة، أنا وكلارا ووالدي. تلقينا ذلك الصباح أجمل نبأ في العالم: كانت كلارا حاملاً، أخبرتنا بذلك بعد عودتها من عيادة طبيبها الذي ذهبت تستشيره عن حالات الغثيان التي تنتابها. كنا جميعاً سعداء ولاسيما والدي الذي أخذ يتخيل نفسه حاملاً الطفل الصغير بين ذراعيه. كان يتحدث عنه كما لو أننا نستعد لنقدم له أجمل هدية يمكن أن يحصل عليها. وفجأة سمعنا صوت سيارة تقف ثم تنطلق، صوت باب يغلق، ثم خطوات سريعة تصعد الدرج. لقد عاد سالم.

هل زرته في السجن؟ لا، ولا لمرة واحدة، لا. لاتنسَ كيف كانت مسيرة ذلك الزقاقي! ووالدي؟ إن كان قد ذهب لرؤيته، فلم يحدثني عن ذلك. وفي جميع الأحوال، كنا نرغب بطي تلك الصفحة وأعتقد أنّا نجحنا بنسيانه.

لكنه عاد في أسوأ لحظة، في اللحظة التي لم نكن ننتظره فيها. آن لم نكن نشتهي وجوده بيننا. من السجن مباشرة إلى المنزل، صعد إلى غرفته وأغلقها على نفسه حتى لايفكر أحد بالصعود والتحدث معه.

فجأة أصبح المنزل بارداً، لم يعد المنزل ذاته، ما عاد منزلنا، نخفض أصواتنا كي نتحدث. والدي تغيّر خلال لحظات، فاختفت تعابير الفرح عن وجهه الذي أصبح قاسياً. لم يتكلم شيئاً، لا عن تذمره من أساليب سالم ولا ليلعنه أو يطرده أو يسامحه، ولا أية كلمة، لقد انغلق على نفسه.

بالنسبة لنا، أنا وكلارا، رحلنا قبل نهاية الأسبوع إلى حيفا.

لا، لم يحدث أي شيء بين أخي وبيني. لم نتجابه. كنا لانتحادث تقريباً. ورغم ذلك رحلنا؟ أفهم اندهاشك. هنا يجب علي أن أعترف لك بشيء يصعب علي التحدث عنه وقد قضيت زمناً قبل أن أقبله، لكن إن أخفيت ذلك، فلن تكون الأمور مفهومة: كنت دائماً أخاف من أخي، لا، ليس خوفاً، فالكلمة مبالغ فيها، يمكننا القول بأنني لم أكن أشعر بالراحة عندما أجد نفسي أمامه، وكنت أداري نظري كيلا يلتقي بنظره.

لأي سبب؟ لن أقدم على الخوض في تعليلات معقدة. لم نُربَّ بالأسلوب نفسه، هو ظهرت له براثن وأنياب، أما أنا، فلا. كنت كثير الدلال ولم أكافح حقاً، وحصلت على كل شيء بسهولة وبشكل طبيعي، كل شيء حتى البطولة والحب. حتى برتران وكلارا. كل شيء أتى إلي كما في الحلم وماعلي إلا أن أقول نعم. كنت في كل مكان، حتى في المقاومة، الطفل المدلل. وما قدت معركة للحفاظ على مكانتي. وفي كل مرة يقف فيها حاجز يسد طريقي، يظهر طريق آخر أكثر اتساعاً وإنارة من الذي انسد أمامي، مثل الأعجوبة. إذاً، لم أكن مخشوشناً وانعكس هذا على أفكاري، فكنت دائماً مع المصالحة وإصلاح ذات البين. وإن ناضلت فإن نضالي كان أولاً ضد الحقد.

بالنسبة لأخي، على العكس. أكاد أريد القول إنه قَتَلَ لكي يولد، ثم اضطر للقتال دائماً ضد والدي وضدي أو ضد ظلي غالباً. كان كل شيء بالنسبة له معركة مشاكسة، حتى الطعام الذي كان يَعلفه.

قلت مرة في نفسي إن أخي ذئبٌ. لا، ليس هكذا تماماً، فالذئب يقاتل فقط ليعيش أو ليصون حريته، وإن لم يكن مهدداً، يمشي في طريقه متعالياً ومثيراً للشفقة. أما أخي، فأشبّهه تقريباً، بتلك الكلاب التي عادت إلى طبيعتها المتوحشة. فتأسفت على المنزل الذي عاشت فيه وكرهته في الوقت نفسه. وسبب مسيرتها في الحياة على هذا الشكل يعود إلى جرح ما: هجر أو خيانة أو خداع. وهذا الجرح هو بمثابة الولادة الثانية. الولادة الوحيدة المعتمدة.

لم تكن المعركة عادلة بين أخي وبيني، لذا اخترت الهرب، نعم الهرب ولاتوجد كلمة أخرى.

إذاً، رحلنا، أنا وكلارا ، إلى حيفا. وكنا قد فكرنا بذلك المشروع منذ بعض الوقت إلا أننا أجلناه عدة مرات لأن طرق الجليل لم تكن آمنة. وبسبب الجو السائد في المنزل، قررنا الرحيل إلى حيفا رغم وجود بعض المخاطر. لم يكن ذلك التصرف متعقلاً لاسيما أن زوجتي كانت حاملاً، لكننا لم نكن أكثر الناس تعقلاً، ولو كنا كذلك، لما انخرطنا في المقاومة ولما التقينا أيضاً، أليس كذلك؟ لقد كان الطيش والتهور نوعاً من التقليد لدينا.

كانت الشوارع ذلك اليوم خالية تماماً، ولم يكن ذلك كافياً كي نعدل عمّا عزمنا عليه، بل كنا نمضي نحو الأمام وبسرعة ونعتقد من حين لآخر أننا نسمع بعض الأصوات

المثيرة للقلق، شبيهة بالانفجارات لكنها بعيدة، فنتظاهر أننا لم نسمع شيئاً.

في الجزء الأخير من المسافة، ضمن الجليل، اقتربت الضوضاء وأصبحت أكثر وضوحاً، فقد كان هناك طلقات نارية وانفجارات ورائحة حرائق، ولم يعد بالإمكان أن نعود أدراجنا.

وعندما وصلنا إلى مدخل حيفا، بين شارع فيصل وشارع الملوك، ليس بعيداً عن السكة الحديدية - إذا كنت لاتعرف حيفا فهذا لن يساعد بشيء - إذاً، باختصار، عند المدخل الشمالي للمدينة، أصيبت السيارة برصاصتين طائشتين، ثم حدث انفجار جعل السيارة تقفز عن الأرض، فصرخنا نحن الاثنين بأشياء غبية تثب إلى الذهن في مثل هذه اللحظات. «انتبه!» ثم «هذا آت من هناك!»، كما لو أن الانتباه أكثر أو معرفة مصدر إطلاق النار يساعد بشيء.

اندفعت إلى الأمام مباشرة، ممسكاً بالمقود وغير قادر على الالتفاف يميناً أو شمالاً، انطلقت وأسناني تصطك مردداً: «لاتخافي! لاتخافي! لاتخافي!». وكنت أصطدم بلا توقف بالحجارة والدواليب وهياكل السيارات وربما الأجساد، لا أدري، لم أر شيئاً فقد كنت مسرعاً. وعندما وصلنا أخيراً أمام منزل نعيم في الطرف الآخر من المدينة، قرب «ستيلا ماريس»، والله وحده يعلم كيف وصلنا، احتجت عدة دقائق كي أستطيع فك أصابعي عن المقود.

لم نتعرض ذاك اليوم لما هو أسوأ من هذا الرعب، أقصد أننا لم نُجرح. لكن الرعب ليس أمراً عادياً، فاي شيء أصعب من شعور العجز الذي ينتابك في سيارة سياحية في شارع مليء بالدخان الأسود ومزدحم بالحطام، عندما يتهيّأ لك أن

الطلقات والانفجارات تأتيك من كل الجهات دفعة واحدة. لم نكن أكثر الناس رعباً، لكن هذه المرة كانت فظيعة، فقد كانت حياتنا نحن الاثنين عرضة للخطر، بالأحرى نحن الثلاثة، وكذلك مستقبلنا وحبنا وسعادتنا. ألم يكن الاستخفاف بكل هذا جريمة؟

لقد هزّنا ذلك الحادث، أنا وكلارا، ورغبنا فجأة بالهدوء والجمود تقريباً. فخلال عدة أسابيع، لم نخرج من المنزل حتى لبضع خطوات خجلة في الحديقة باتجاه الشاطىء.

كنا نمضي نهاراتنا ملتصقين نتحدث باستمرار عن الطفل الذي سيولد وعن العالم الذي سيعيش فيه، وكنا نحب أن نتخيل عالماً مختلفاً... كانت آمالنا على قدر اضطرابنا. ومهما كانت الأيام القادمة حالكة فإن الأيام التي ستليها، ستكون مشرقة.

ربما أعطيتكَ انطباعاً أنه رغم كل الضغوطات والأحقاد التي كانت تحيط بنا، لم يحدث بين كلارا وبيني، أي شجار أو نقاش حاد. نعم، كان يحدث ذلك بالتأكيد، لكن ليس كما يمكن أن يُفترض ويمكنني أن أقول إن الأحداث كانت تجري دائماً، دائماً ودون استثناء، بعكس ما تعودنا انتظاره. فإذا ما عارضتني كلارا فلكي تكون إلى جانب العرب ولكي تقول لي إنه علي أن أفهمهم أكثر، وعندما أرد عليها، فلكي أقول لها إنها تبدو قاسية جداً مع أخوتها في الدين، ولم يجرِ أي نقاش خلاف ذلك.

لم يكن تصرف كلارا نتيجة تنسيق ما أو اتفاق حسن جوار، بل كان ذلك عفوياً وصادقاً فكل منا يتخيل نفسه مكان الآخر بشكل عفوي.

سنحت لي الفرصة أن استمع منذ عدة أيام في باريس إلى جدل في الراديو، بين يهودي وعربي، وأعترف بأن ذلك صدمني. إن فكرة وضع شخصين وجهاً لوجه كي يتحدثا باسم جماعتيهما ويتنافسا بسوء نيتيهما وبحنكتهما التافهة، أجل هذه الفكرة تصدمنني وتقززني. أجد هذه المناظرات فظة وبربرية، وأضيف، وهنا الفرق: غير لَبِقة. اللباقة الأخلاقية، اسمح لي أن أمدح نفسي مرة واحدة بشكل عابر، نعم اللباقة الأخلاقية هي أنا وكلارا، كلارا التي كانت تسعى لفهم كل شيء لدى العرب حتى أسوأ عيوبهم وتبدي معارضتها لليهود دون مجاملة، بينما كنت أعارض مجاملة العرب، محتفظاً دائماً في ذهني، بما تعرض له اليهود من الاضطهاد البعيد والقريب لكي أسوّغ تجاوزات اليهود.

أعلم، لقد كنا بسيطين جداً! لكن أكثر تبصراً مما يبدو. ونعلم اليوم أن المستقبل الذي كنا نحلم به، لم يكن لنا، بل لأطفالنا. وربما وجود طفلنا المرتقب هو ما كان يمنحنا القوة للتطلع إلى ما وراء الأفق.

كنت وفي كل صباح، أضع يدي على بطن كلارا المكوّر مغلقاً عيني. عندما أسمع من الراديو أن الطريق الساحلي غير سالك بشكل دائم، لا آبه لذلك، فلم أرغب بالتحرك من ذلك البناء العثماني القديم الذي شيد بعيداً عن شوارع الدم. نسيت العالم الخارجي كما نسيت دراستي والحرب، فهنا سيولد طفلي.

ثم رحلتْ.

صباح السبت

لم أتحدث عن كل ماروله لي عصيان عن إقامته في حيفا، نزهاته مع كلارا وتفاصيل حياتهما اليومية، ومعتقداتهما وأحلامهما المشتركة. كنت أشعر أنه يراوح في مكانه، ففي كل مرة يبدو فيها أنه سينتقل إلى المرحلة التالية، يعود فجاة إلى الوراء مستفيضاً في الحديث عنه مجدداً. كنت أصغي إليه بصبر، ولا أكتب شيئاً بل أراقبه. من الواضح أنه كان يتخبط كمن يجد نفسه في صباح باكر، غارقاً في حلم عذب ويسعى جاهداً ليحتفظ بعينيه مغلقتين مقاوماً الاستيقاظ.

أطلق جملته الأخيرة عند انتهائه من المقاومة كمن يستسلم.

ـ ثم رحلت...

أوقف جولته فجاة ليجلس على حافة السرير. ولم يعد لدينا ما يقوله واحدنا للآخر في هذا المساء ولم أعد إلى استئناف مايشبه استجوابي له إلا في اليوم التالي:

ـ هل تريد القول إنك رحلت وحدك؟

نعم وحدي دون كلارا.

ما الذي أبعدني عنها؟ برقية تنبئني أن والدي يشرف على الموت. لم تكن الكلمات ذاتها ولكن هذا مافهمته منها.

كان لدي منذ الطفولة، ذاك الرعب المشترك على ما أظن بين كل الناس من نبأ وفاة أبي. كان خوفي من وفاة أبي أكثر شيء خشيته خلال سنوات طويلة، ثم هدأ ذلك الشعور قليلاً بعد مرحلة الطفولة، لكنه كان هنا، كامناً في داخلي ومستعداً للنيل مني.

قالت البرقية وببساطة وباللغة الإنكليزية «الوالد مريض». أتت من القاهرة، أرسلها محمود بطلب من أختي التي كانت تستعد لتستقل الطائرة إلى بيروت، لقد أخبرها أخي بذلك، فافترضت، وكانت مُحِقّة في ذلك، أنه لم يتصرف معي بالطريقة نفسها، فقد زعم أنه لايعرف أين أو كيف يصل إليّ.

لكنها لم تكن ساعة المعاتبة، فمن الواجب علينا التواجد إلى جانب والدي.

تعرض والدي لنوبة فالج فتشوّه فمه، إلا أنه كان يجهد نفسه كي يستطيع النطق. فإذا جلس أحدنا أو جثا إلى جانبه مقرِّباً أذنه فسيفهم ما يقوله.

كان سؤاله الأول هو لماذا تركت زوجتي في تلك الظروف، ولم أستطع إجابته البتّة: «كي أكون قرب والدي الذي يموت؟» من الأفضل تحريف ذلك: «لاتخشَ شيئاً عليها فهي تعيش في حي يسوده الهدوء».

«إنها في الشهر التاسع، أليس كذلك؟»

كانت في الشهر السابع فقط، لكنني لم أشأ تصحيح خطئه. كنت أعي جيداً أن ماتعنيه له تلك الولادة مختلف عما تعنيه لي.

كان يتمنى فقط، إنْ حالفه الحظ، رؤية حفيده قبل وفاته. وكان ذلك ممكناً، فعندما ولدت كلارا، كان والدي مايزال حياً، لكنه لم يتمكن قط من رؤية الطفل.

رغم حسابه الخاطىء المفهوم تماماً بالنسبة لي، فقد كان في وعيه الكامل.

«كيف أتيت رغم كل مايجري؟»

«عن طريق البحر».

كان من المستحيل المجازفة باستخدام الطريق البري بين حيفا وبيروت. لم أحاول ذلك، كنت سأُجْبَرُ على العودة أدراجي حتى قبل الخروج من الضواحي، لذا اضطررت للذهاب إلى المرفأ والحجز بسعر مرتفع جداً على سفينة شحن رومانية متوجهة إلى الشمال.

لم تكن صحة والدي، في الأسابيع التالية، مستقرة. كان ممدداً كسلطان على سريره الواسع، بشعره الأشعث الأبيض اللون ووجهه الملتوي، ولا يبدو عليه الاكتراث لحالته، بل يبدو لي أحياناً بأن وضعه الجديد يسليه. أكد طبيبه ما تعلمته عن الحالات المشابهة وهو أن علمنا لايستطيع التكهن بشيء: «من الممكن أن يموت خلال الليل، ومن الممكن أن ينهض خلال عدة أسابيع ويمشي من جديد مستخدماً العكاز، ويبقى إلى جانبك عشر سنوات أخرى، لكن يجب تجنيبه وبشكل خاص، الانفعالات القوية وكثرة الكلام والحركات الانفعالية».

ولكن كيف يمكن إسكاته دون إغضابه ودون الظهور وكأننا نتعامل معه كطفل؟ طرحنا جميعاً هذا السؤال، وفي أحد الأيام، ظنّت أختي أنها وجدت الحل.

كان لدينا في المنزل، جهازا راديو متشابهان، جهازان من الخشب الأحمراللامع، اشتراهما والدي قبل الحرب، أحدهما في غرفته والآخر في الصالون.

لم يلمس أحد منا الجهاز الأول، عدا والدي الذي كان معتاداً، عند عودته إلى جناحه ليلاً أو ساعة القيلولة، على ضغط الأزرار باحثاً على الموجات القصيرة، عن البث الإذاعي البعيد المدى مثل كراتشي، صوفيا، فرصوفيا، بومباي، هيلڤرسام، مسجلاً على دفتر المحطة والساعة واللغة وجودة الاستقبال.

لم يكن راديو الصالون ينتقل إلى مثل تلك المحطات، فقد كانت شارته مثبتة على محطة الشرق الأوسط التي تبث برامج الـ BBC ، ونادراً، إحدى إذاعات المنطقة، بيروت أو دمشق أو القاهرة.

كانت عملية الإصغاء إلى جهاز الراديو تخضع لما يشبه الطقس، لايستطيع أحد فتح فمه طالما الجهاز يتكلم. كان علينا سماع الأخبار الأكثر خطورة والآراء الأكثر تطرفاً دون إبداء أية موافقة أو رفض لما نسمعه، كما لم يكن مقبولاً التعبير عن دهشتنا حتى بكلمة «آه»، وإذا كان ثمة زوار في الصالون لايعرفون القاعدة، فما أن يحركوا شفاههم حتى يغضب والدي ويقول «هس» مؤكداً ذلك بحركة ذات دلالة من يده. وأحياناً عندما يعود الضيف إلى فعلته، تصبح تلك الحركة أكثر فظاظة بأصابعه الخمسة التي تنطبق مشكّلة مايشبه الخرطوم، فيسود الصمت بعدها. وإذا حدث نقاش، فلن يكون ذلك إلا بعدما يسكت الجهاز.

أذكر أيضاً تلك اللحظة، حين كان والدي في سريره يصر

على الكلام محركاً ذراعه السليمة الوحيدة في الهواء ونهضت أختي عفّت متوترة وتوجهت نحو الجهاز وأدارته. فصمت المريض بشكل انعكاسي. لذا وجهتُ نظرة إعجاب إلى أختي سعيداً بالنتيجة المباشرة لفعلها. كان جهاز الراديو ذلك العصر يحتاج عدة ثوانٍ قبل إصدار أي صوت، وعندما يأتي الصوت يبدأ ضعيفاً كما لو أنه يأتي من بعيد وعبر نفق.

كانت أولى الكلمات المسموعة بوضوح ذلك اليوم والتي لم أنسها على الإطلاق: «إن الحرب التي اندلعت...». كانت يد أختي ماتزال على مفتاح الجهاز فأدارته بسرعة بالاتجاه المعاكس. قال لي والدي مباشرة وقد تجلّس في سريره ووجهه يرتجف: «زوجتك...». كنا نحاول تجنيبه الأزمات القلبية، لكننا لم نفعل ذلك بشكل جيد.

ذاك هو المشهد الذي يحضرني كلما استرجعت ذكرى اندلاع الحرب العربية الإسرائيلية الأولى. كان ذلك في منتصف أيار من عام 1948. تسارعت الأحداث: بعد نهاية فترة الانتداب البريطاني على فلسطين، اجتمع مجلس الشعب اليهودي في متحف تل أبيب معلناً ولادة الدولة الإسرائيلية، ثم دخلت البلدان العربية الحرب بعد ساعات من ذلك.

وحتى أكون صريحاً، لم تعد تلك التغييرات السياسية والعسكرية المفاجئة تؤثر بي بتاتاً. منذ زمن والعالم أجمع يعرف أن المنطقة تسير نحو الاشتعال. شيء وحيد كان يشغلني تلك الأيام، شيء وحيد كاد يدفعني للجنون، مصير كلارا والطفل الذي سيولد. إذ تفصلنا حالياً حدود بات عبورها مستحيلاً ولوقت طويل.

ستقول لي إن الحدود كانت حتى قبل ذلك عصيّة قليلاً على العبور إذ منذ فترة لم يكن بالإمكان التحرك كثيراً. ليس الشيء نفسه، لا أبداً ليس الشيء نفسه. صحيح أنه كان من الخطر السير في شوارع الجليل، لكن كان يمكننا تدبر أمرنا عبرالبحر أو الجو أو الطرق المتعرجة. بالإضافة إلى أنه قبل اندلاع الحرب بعدة أيام، أتى صحفي من لجنة حيفا في مهمة إلى بيروت وحمل لي بالمناسبة، رسالة من كلارا تطلب مني فيها ألا أقلق. قالت إن صحتها جيدة، ووجدت في الجوار قابلة خبيرة وعدتها بالاهتمام بولادتها عندما يحين ذلك، كما سألتني عن صحة والدي ووجهت إليه رسالة تشجيع مكتوبة باسم الطفل الذي سيولد. كما ترى، كان بالإمكان التحرك والاتصال. ولكن مع بدء الحرب، انتهى كل شيء. أُغلقت الحدود وماعاد هناك مسافرون أو رسائل أو برقيات أو اتصالات هاتفية. كانت المسافة ذاتها، ثلاث أو أربع ساعات من السفر، لكنها لم تكن سوى ساعات افتراضية. أصبحنا على بعد سنين ضوئية. لم نعد على الكوكب ذاته.

تركت في الجهة الأخرى من الحدود المغلقة، أثمن مالدي في العالم. كنت في مواجهة القدر كفأرٍ في مواجهة قطة انتهت من اللعب وتهيات للقتل. ألا يُقال إن الفأر، في تلك اللحظة، يصاب بالذعر ويدور حول نفسه عاجزاً عن الهرب والاختباء وعاجزاً عن إيجاد وسيلة للحفاظ على حياته؟

كان الآخرون يتابعون تطوّرات الحرب، أما أنا فلا. من سيربح؟ من سيخسر؟ كنت أسخر من ذلك، فقد خسرت حربي الخاصة في اللحظة نفسها التي بدأت فيها حرب الآخرين.

سرعان ما صرت أتجنب سماع النشرات الاخبارية

والموسيقى العسكرية. فعندما يعمل جهاز الراديو في الصالون، أصعد مسرعاً للإعتزال في غرفتي وأفتح خزانة ثياب كلارا وأغوص بوجهي في ثيابها متنشقاً رائحتها، ثم أبكي وأكرر اسمها عشر مرات، عشرين مرة وباستمرار، ثم أكلمها كما لو كانت أمامي موجهاً إليها مناجاة طويلة عن الحب والضيق.

من حين لآخر كنت أعود إلى رشدي وأؤنب نفسي، ثم أجفف دموعي وأذهب إلى والدي الذي لم يكن قد توفي بعد. مازال يتعلق بالحياة، أما أنا فأحاول جاهداً الاحتفاظ بالأمل. لا أدري أي منا كان الأكثر قلقاً على الآخر.

كان يسالني أحياناً: من يتقدم؟ من يتراجع؟ أين تجري المعارك؟ ماذا يفعل الإنكليز؟ ماذا قال ستالين؟ الأميركيون؟ لم أكن أعرف شيئاً قط. ظنَّ في البداية بانني أشارك في مؤامرة الآخرين الذين لايخبرونه شيئاً لتجنيبه القلق، لكنه أدرك أخيراً أنني لا أكذب مطلقاً، وباننا نتقاسم الجهل ذاته وعلى نفس درجة الضعف.

كُتب عليّ أن أنهار في ذات الوقت الذي ينهار فيه.

توفي والدي في تموز، في يوم من الأيام الحارة التي تجعلنا نتحسر على بلدان الشمال. تتابعت الحرب متباطئة. على طريق المدفن كان أحد مكبرات الصوت الوطنية يعلن نصراً كاذباً تبعه نشيد سارعوا إلى اسكاته احتراماً للموكب الذي يمر. ووقف الرجال على جانبي الطريق حاسري الرؤوس بعد أن نحّوها قليلاً صوب الظل. أما رأسي فكان يشتعل. كنت أرفع يدي من حين لآخر إلى مستوى الجبهة، ولكنها حماية تافهة.

دخلت المدفن في مقدمة الجنازة. كانت الممرات ممتلئة بالناس المتشحين بالسواد، لم يكن من الممكن رؤية أية شاهدة قبر. كنا في الهواء الطلق، ورغم ذلك شعرت بالاختناق إذ كانت الشمس منخفضة جداً، وتنوء بثقلها على رقبتي وأكتافي وصدغيّ بينما عيناي تتقدان ناراً. ثم أخذني أحدهم من ذراعي ليقرّبني من المكان الذي سُجّي فيه والدي.

ما كادت الصلوات تبدأ حتى أغمي عليّ، والذكرى الوحيدة التي بقيت في مخيلتي هي أني عندما رأيت بياض الكفن خُطِف بصري، فأغمضت عينيّ الموجوعتين ولم أفتحهما بعد ذلك.

لزمت الفراش أكثر من شهر، فقد أُصبت بضربة شمس

وكانت كل الظواهر تدل على ذلك، الحرارة والصداع والهذيان والتقيؤ وعدم القدرة على الوقوف. لكن لم تكن الشمس المذنبة الوحيدة فهناك الكثير من الأحداث التي أضعفتني، الانفجار على طريق حيفا والذي بقي زمناً يراودني في أحلامي، وفاة والدي والانفصال الإجباري عن كلارا، وبالإضافة إلى ماكنت أقوله لنفسي باستمرار وأسبوعاً بعد أسبوع، بأنها ربما ولدت وأنا لا أعرف إن كانت بخير أو كان الطفل حياً أو كنت أباً لصبي أو فتاة. قد يبدو الجهل الذي وجدت نفسي فيه بما يتعلق بالنقطة الأخيرة، تافهاً، لكنه كان يحطم داخلي ويشعرني بالإهانة.

رغم ذلك، ما من شك أن الشمس كانت السبب الذي فاقم من حالتي وأوقعني في المرض. عندما انخفضت حرارتي، اكتشفوا أني لم أشفَ تماماً، بل أصبحت وكما قيل، مختلاً، معتوهاً، غير متوازن. كان هناك العديد من الصياغات المضحكة التي تخفي حقيقة واحدة وهي كلمة «مجنون» التي لم تكن تزعجني أكثر من غيرها. يمكن القول بأنني كنت أتصرف بطريقة غريبة.

كان الأمر الأكثر إقلاقاً كما أعتقد ـ الذي ربما أنقذني في النهاية ـ هو كوني لم أفقد عقلي كلياً. أقول كلياً، لأنني فقدت أحياناً ثلثيه أو ثلاثة أرباعه أو تسعة أعشاره، إن كانت هذه النسب تعني شيئاً. لكن بقي في اللحظات الأكثر حلكة شيء من ذاتي، شيء صغير كامن في رأسي، كأنه يكمن في الغابات يحمي فيها نفسه من العواصف التي أتعرض لها. وددت لو أسميه الطبيب الذاتي. هكذا كان حالي تماماً: لم أكن أبداً مريضاً كاملاً بل كان في داخلي ذاك الكائن الآخر الذي

يعتبر قسمي المريض مريضاً فعلاً ويريد أن يشفيه.

منذ البداية أو منذ بدأت أفقد السيطرة على تصرفاتي، كنت أدرك ذلك. ولا أدري إن كان بإمكاني اليوم التعبير عن ذلك كما كنت أشعر به تماماً، لكني سأحاول.

استيقظت في إحدى الليالي مذعوراً، تراودني فكرة ملحة: يجب أن أبعث رسالة إلى كلارا. ولأنني أعلم أنه ليس هناك أية خدمات بريدية بين بيروت وحيفا، قررت كتابة رسالة، ومن ثم أبعثها إلى جاك في فرنسا الذي يستطيع إرسالها دون صعوبة. كانت الفكرة جيدة عندما راودتني وتحمست لها جداً. وأعلم في الوقت ذاته، أني لست بحالة جيدة للتفكير بمحتوى رسالة بهذه الأهمية، فرأسي تؤلمني وكلما حاولت تحريض خلية عصبية كانت تلتهب، لذا قررت التراجع عن الفكرة بانتظار أن أتعافى كي أستطيع الكتابة. كان الوقت ليلاً وعدت للنوم بهدوء، وبعد عدة دقائق، قفزت من السرير وأضأت النور ثم أخذت قلماً وورقاً وبدأت الكتابة، وتكرار القراءة والتصحيح والشطب والتسطير وإعادة الكتابة، حتى شعرت بالعجز عن إتمام الجملة الأولى، فتوقفت وعدت للنوم، ثم نهضت ثانية... لا أريد أن أسبب لك الضجر بالحديث عن كل حركة وسأصل فوراً إلى الخلاصة. كنت ومنذ الفجر، بانتظار ساعي البريد، فأعطيته الرسالة والمال كي يضع عليها الطوابع. لا، لم يكن ذلك أمراً عادياً في بيروت، لكنه يحدث أحياناً عندما يمرض المرء. ثم عدت للنوم لأصحو عند الظهيرة كالمجنون، عاجزاً عن تذكر ما كتبته في تلك الرسالة، مصمماً على البحث عن ساعي البريد كي أستردها.

لم أستطع استعادتها طبعاً وهذا ما ترك في نفسي شعوراً بالندم لسنوات طويلة، أما اليوم، فأقول بأن ذلك ما كان ليغيّر شيئاً فعندما تراود ذهني فكرة قذرة، تلح عليّ حتى أستسلم لها وأنفذها.

وبخصوص رسالة كلارا كنت سأبقى على ارتباكي إذ لا أدري ماذا كتبت لها وحتى اليوم لا أعرف. ففي الوضع الذي كنت فيه، ربما بعثت لها بكل المسودات التي وضعتها ليلاً! لكن الشيء الوحيد المؤكد هو أنني ارتكبت حماقة كبرى. كنت مقتنعاً بأنه يجب عليّ أن أكتب لها ودون أي تأخير رسالة أخرى، مصححاً فيها ما كتبته في الأولى. هل أنا بحاجة للقول بأن الرسالة الثانية، كانت أكثر تشوّشاً من الأولى؟ بعد إرسالها، شعرت بالندم الشديد لذا كتبت الثالثة التي هي ربما أسوأ من الاثنتين السابقتين، ثم كتبت الرابعة. يا إلهي، إن مجرد التفكير بالأمر يثير لدي الرغبة بالصراخ.

كنت أدرك أني بصدد الغرق، بل كنت أغرق فعلاً...

ثم هدأت حالة التوتر قليلاً، أقصد حالة التوتر تلك لأنتقل بعدها إلى هوس آخر: صرت أمضي نهاري كاملاً، متجولاً في الحديقة، ثلاثين مرة، أربعين وربما أكثر، أكتب في رأسي رسائل وهمية وأبني خططاً.

كنت أتحدث إلى نفسي خلال تجوالي محركاً يدي. وإن مرّ أحدهم بقربي ماكنت أراه تقريباً كما لو كان يمشي في ضباب. وإن حيّاني أحدهم ما سمعته حتى بات من يصادفني مرّة لا يحييني في الثانية بل يكتفي بلفظ بعض تعابير الشفقة

وبعض الصلوات، راجياً بقاء ذلك الشر بعيداً عنه وعن أهله: كان شاباً جيداً تحترمه كل البلاد، أية مصيبة! بعضهم يتهم الشمس، والبعض الآخر القدر أو الدراسة أو الوراثة، فقد بقيت ذكرى جدتي المجنونة في أذهانهم.

ساعي البريد هو الزائر الوحيد الذي كان يعنيني. عندما أراه، أركض باتجاهه وأسأله. وربما كان ترصده هو سبب تجوالي في الحديقة بتلك الطريقة... ربما، لا أدري حقاً، فأنا لا أحتفظ من تلك الفترة إلا بذكريات مبهمة. على الأقل أستطيع التحدث عنها اليوم مبتسماً، كما لو كنت أراقب تصرفات إنسان آخر أو أتحدث عن حياة سابقة. أليس هذا برهاناً على شفائي؟

ما كنت أنتظره من ساعي البريد هو رسالة كلارا التي وصلتني بعد شهر. في حينها بدا ذلك طويلاً بحيث يئست من استلامها، لكنها مدة قصيرة في الواقع، إذا عرفنا الزمن الذي يحتاجه البريد من بيروت إلى باريس ومن باريس إلى حيفا ثم من حيفا إلى باريس ومن باريس إلى بيروت من جديد، فأعتقد أنها أجابت بسرعة. وأعتقد أيضاً أنها بكت كثيراً، فما كَتَبْتُه يوضح لها التوتر النفسي الذي كنت غارقاً فيه، منذ الأسطر الأولى. ودون قراءة أية كلمة، لابد أنها فهمت كل شيء من شكل كتابتي.

كانت إجابتها حنونة لكنه حنان مشفوع بالشفقة، لا، ليس حنان امرأة تجاه رجل تحبه بل حنان أم تجاه طفل أوهَنهُ المرض. كتبت لي: «عزيزي باكو»، هذا ما تناديني به عندما نكون لوحدنا «لدينا ابنة بصحة جيدة وتشبهك كثيراً. أرسِلُ لك صورتها الأولى. أسميتها ناديا كما كنت ترغب،

وأطّرتُ إحدى صورنا، تلك التي التقطها لنا برتران عند خروجنا من دار البلدية، ووضعتها قرب مهدها. أحياناً أشير إليك بإصبعي وأقول «بابا» فتبتسم.

ربما استطاعت الجمل الأولى تعويضي، أليس كذلك؟ وصورة ابنتنا! لقد تأملتها طويلاً وطبعت قبلة على وجهها المنمش ثم وضعتها في جيبي الداخلي، ومنذ ذلك الحين، حملتها دائماً معي واضعاً إياها جهة قلبي.

توقفت عن القراءة، فقد كنت أبكي من الفرح.

عندما أعدت القراءة فسدت الأمور، فقد كتبت كلارا: «مررنا جميعاً بفترات صعبة، وكان فقدان والدك أمراً آخر أضيف إلى انفصالنا الطويل وإلى كلّ مايجري حولنا. لقد كان ذلك قاسياً حقاً. عليك أن ترتاح وتعتني بنفسك. أريد منك وعداً بأنك فور وصول هذه الرسالة، ستراجع طبيباً مختصاً ليساعدك على الشفاء.

لاتقلق أبداً بشان ناديا أو بشأني، فنحن بصحة جيدة والأحوال هادئة عندنا الآن. تسألني أين سنعيش سوية، وأنا متأكدة أننا سنجد حلاً لأننا متحابان. أريدك الآن أن تعتني بنفسك وعندما تشفى سنتحدث مجدداً عن هذا الأمر وبذهنٍ صافٍ...»

عند هذه النقطة من الرسالة، بكيت وانتحبت، ليس فرحاً بل غيظاً، فقد صعقتني إحدى الجمل: «عندما تشفى سنتحدث مجدداً...»، كنت أنزلق نحو هاوية الجنون وأعرف بأني جانٌ لامحالة، كنت محتاجاً إلى كلارا لتنقذني وتقول لي: نلتقي بمكان ما في فرنسا مثلاً، نعود للعيش معاً فتتحسن فوراً.

لكنها قالت العكس: «عندما تشفى سنتحدث مجدداً...». كم أحتاج من الوقت كي أشفى؟ سنة؟ سنتين؟ عشر سنوات؟ كنت مقتنعاً بأنني بعيداً عنها وعن ابنتي، لن أشفى أبداً.

لقد تجهم العالم.

هل أنا متأكد حتى اليوم، بأنني لم أفسر تلك الجملة بشكل خاطيء؟ نعم أنا متأكد تماماً، لكني أفهم اختيار كلارا أكثر في الوقت الحاضر. لقد أخافتها رسائلي وقبل أن تجازف بملاقاتي والعيش معي برفقة ابنتنا، كان عليها التأكد من حالتي العقلية.

نعم، أفهمها الآن، لكني كنت أحقد عليها في تلك الفترة وشعرت بالخيانة. أحسست وقتها أنها تترك يدي في اللحظة التي كنت أتخبط فيها محاولاً الحفاظ على رأسي خارج الماء. فتصرفتُ بشكل سيئ. وبدلاً من الانزلاق بهدوء نحو الهاوية، رميت نفسي فيها.

كنت في تلك الفترة، أنتقل من وسواس إلى آخر، وكان ذلك أسلوبي في التفكير نوعاً ما. بل لنقل طريقتي في التصرف! وبات وسواسي الجديد إيجاد كلارا كي أتناقش معها مباشرة.

كنت مصمماً على ذلك وغابت عن ذهني كل الحواجز، لا حرب ولا حدود، فجهزت حقيبتي ونزلت من غرفتي. رآني أحدهم فأخبر أخي الذي أسرع يسألني وأنا أقف أمام الباب:

«أين تذهب؟»

«إلى حيفا، أحتاج التحدث إلى زوجتي».

«أنت محق، هذا أفضل شيء تفعله، اجلس، سأستدعي سيارة لتقلك مباشرة إلى هناك».

كنت أجلس بوقار على كرسي في المدخل واضعاً حقيبتي بين قدمي كما لو أني في بهو المحطة. وفجأة فُتح الباب وانقض عليّ أربعة رجال بلباسهم الأبيض، أمسكوا بي ثمّ أوثقوني وفكوا حزامي. وخزة في الردف، ثم فقدت وعيي. كانت آخر صورة في ذاكرتي، صورة البستاني وزوجته وهما يبكيان. كما أذكر أني كنت أنادي أختي حتى تساعدني. لكنها لم تكن هناك منذ زمن طويل ولم أكن أعي ذلك، فقد رحلت إلى مصر بعد أسبوع من وفاة والدنا، إذ لم تستطع البقاء طويلاً بعيداً عن زوجها وأطفالها. لو كانت هنا، لما تجرأ أخي ربما على القيام بمثل هذا التصرف معي.

في تلك الفترة، كان يفعل مايدور في رأسه وأصبح منزلنا في عيون الجميع، منزله. أعتقد أن خبر جنوني انتشر في المدينة وفي أرجاء البلاد، بشكل أسرع من انتشار أخبار مآثري في المقاومة. لم يجد سالم صعوبة في إثبات عجزي وإعلان نفسه وصياً وهذا ما كان يعطيه حقّ التصرف بميراثي.

خسيس العائلة، يصبح وصياً عليّ!

هو، من كان سيبقى في السجن كونه مهرباً وعضواً في عصابة مجرمة لولا الإعفاءات المتكررة، وصياً عليّ!

انظر إلى ماوصلنا إليه، أنا وهو!

انظر إلى ما وصل إليه منزل كتابدار النبيل!

هكذا وجدت نفسي، في التاسعة والعشرين من عمري، في مصح يدعى «مسكن الطريق الجديدة» كانت مصحاً. نعم، ولكنه مصح من مستوىً راقٍ خاص بالمجانين الأغنياء. عندما استيقظت، رأيت جدراناً نظيفة وباباً معدنياً أبيض اللون وفتحة زجاجية، ومن حول سريري تنتشر رائحة الكافور. لم أكن أشعر بالألم في أية جهة من جسمي، بل شعرت ببعض الراحة ويعود السبب في ذلك دون شك، إلى المهدئات التي أعطوني إياها. لكن فقط عندما حاولت التحرك، عرفت أني مقيّد. كنت أهمُّ بالصراخ عندما فُتح الباب.

دخل رجل بلباسه الأبيض وبدأ يفك وثاقي زاعماً أنني كنت أتحرك طوال الليل فرُبطتُ خشية السقوط. كان يكذب عليّ، لكنني لم أرغب بالعراك، فسألته بلطف إن كنت أستطيع الخروج. وأجابني: «نعم، لكن تناول قهوتك أولاً».

كان روتين ذلك المصح يتضمن أن أبتلع، عند استيقاظي، شراباً يدعى القهوة تحت مراقبة رجل أو امرأة، وكان لتلك القهوة مذاق الدواء. وبعد ذلك، أبقى طوال النهار وحتى اليوم التالي، ساكناً كجثة. لم يكن لديّ أية رغبات أو اعتراضات وكل أجزاء جسمي مخدرة وخفيفة. كنت أتكلم ببطء ومازلت أعاني من ذلك حتى اليوم، لا شك أنك لاحظت ذلك. لكني كنت

في المصح أتكلم ببطء أكثر وأمشي وأتناول طعامي ببطء، ملعقة وراء أخرى من الحساء العديم الطعم ودون أي اعتراض.

لم أعرف بأية مادة مُزجت القهوة. تساءلت فيما بعد، إن لم يكونوا قد جرّبوا عليّ وعلى المرضى الآخرين بعض الطرق المبتكرة التي تجعل الناس ساكنين وخاضعين، كما يحلم كل الطغاة. بالتأكيد يوجد كمية من مادة البرومور وعدة أنواع من المخدرات. لكني ربما أتوهّم. كانت عيادة الدكتور دوّاب مشروعاً رابحاً بالتأكيد فهناك حوالى العشرين من المختلين الأغنياء الذين ينتمون إلى عائلات تزدري اختلاط مآسيها مع مآسي الفقراء.

دوّاب؟ لا، لم يكن هو الرجل ذا اللباس الأبيض الذي رأيته عند استيقاظي، فهذا ممرضٌ. أما دوّاب فكان المدير، سيد أماكن الشّدة تلك. وهو لم يطلبني إلى مكتبه إلا بعد عشرة أيام من وصولي. عشرة أيام أترى؟ يعالجونني إسعافياً ثم ينتظرون عشرة أيام قبل أن يفحصوني! تلك طريقة عملهم، يمضون الوقت بمراقبتنا عن بعد ولايظهرون إلا نادراً. لقد أعد غرفة صغيرة فوق الصالة الكبيرة التي كانوا «يطلقوننا» فيها خلال النهار. كان يجلس في الظل وعلى عينيه نظارته السميكة المدوّرة وكأنه في مقصورة مسرح.

ولأقل لك مباشرة. لم يكن ذلك الرجل في نظري سوى مشعوذ. لاتظن أني أتكلم نتيجة الحقد. لدي حقد بالتأكيد ولدي الحق بذلك، فقد غيّر ذلك الشخص بالإضافة إلى آخرين، مجرى حياتي! لكنه ليس العمى ما يقودني إلى هذا الحكم، بل

الوضوح الذهني المسترد. قلت إنه مشعوذ لأنني لم أشعر في عيادته المزعومة بأنهم يحاولون معالجتي أو معالجة الآخرين.

أتسمي هذا طبيباً؟ أو تسمي «مسكن الطريق الجديدة»، «مصحاً»؟ لا، بل كانت على الأغلب سجناً، وهؤلاء الذين يعتنون بنا مروّضون، ونحن حيوانات سجينة مقيدة أكثر من كوننا مرضى. لم نكن مقيدين بكرات حديدية مربوطة بالقدمين وإنما بكرات متناهية الصغر ذات ألوان باستيل جميلة لكنها كرات مع ذلك، كرات للروح، تضغط وتكشط حتى ينفر الدم!

لست متأكداً من دوافع ذلك الرجل. كان المال بلا شك، لكن ليس المال وحده ولا هوس البصبصة على شقاء الآخرين، بل السلطة أيضاً وربما الرغبة بالتسلط. لقد مارس تأثيره على العديد من العائلات الغنية التي لجأت إليه طالبة تخليصها من مأساة مزعجة.

كان في المصح، حاكماً في مقاطعته. يكفي مروره في الرواق حتى يتوقف العاملون والخاضعون للعلاج عن التنفس، ولم يكن يحتاج للتكلم حتى نتصرف وفق رغباته.

كان مقتنعاً بأن مصحه طليعي وبأنه نموذج لبقية العالم. أما مبدؤه فبسيط: الحفاظ على المرضى بمعزل عن أي تشويش. يجب استبعاد كل مايمكن أن يسبب لهم الانفعالات والاضطرابات العاطفية أياً كانت. كما كان ممنوعاً إدخال أي خبر من الخارج إلا إذا كان متأخراً أو مخففاً. لابريد، لا اتصالات هاتفية، لا راديو بشكل خاص. كما لايحق لأي

موظف التحدث أمامنا عن أي حدث جارٍ مهما كان. لا خروج أبداً ولا زيارات إلا نادراً، وإذا كان للمعتقل رغبات عاطفية، يتم تقليصها عوضاً عن إرضائها.

هل كنت أضجر؟ لا مطلقاً. نضجر عندما لايمكننا الحصول على الأفراح التي نطمح إليها. أما دوّاب فيعالج العلة من منبعها: يريحنا من تطلعاتنا! كنا نلعب طوال النهار بالورق أو بالطاولة «النرد» مستمعين إلىالموسيقى الهادئة. دائماً هناك موسيقى هادئة، في كل الغرف وحتى في الليل. كان بإمكاننا القراءة أيضاً، لكن ليس كتباً أو مجلات حديثة فهو يقتني مكتبة قديمة تضم بضع عشرات من المؤلفات باللغة العربية والفرنسية، إضافةً إلى مجموعات قديمة من المجلات المجلدة. قرأت الكتب كلها دون استثناء بعضها مرتين وثلاث وأربع مرات أحياناً.

ماذا كنا نفعل أيضاً؟ ليس بالشيء الكثير. نزهات؟ بضع خطوات في الحديقة من حين إلى آخر، لانبتعد كثيراً ونبقى تحت المراقبة. مع ذلك يجب علي الاعتراف أنه بفضل «القهوة» الصباحية تعودت ذلك النظام.

أرى عينيك تجحظان من هول ما تسمع. لا لا تخف! فحياة كهذه يمكن أن تكون مرغوبة. يمكنك بالتاكيد تخيل أفضل منها ولكن يمكن تخيل الأسوأ. فبالنسبة للملايين من الكائنات، قد تكون الجنة أو ما يشبه الجنة. طبعاً، عندما نتساءل: ما الذي نفعله في الحياة؟ نتمرد. لكن هذا السؤال تحديداً ما كان يطرح في المصح. على كل حال كم من الناس في كل أنحاء العالم، طرحوا على أنفسهم هذا السؤال، على الأقل مرة واحدة خلال حياتهم!

بالنسبة لي، في ذلك الوقت وضمن الاضطراب التام الذي كنت أفقد فيه صوابي، لم تقدني هذه الحياة الجديدة تلقائياً إلى الثورة. كنت أهرب من شياطيني وهواجسي وهذياناتي ونظرات الشفقة لدى الآخرين. نعم، اتبعت نظام المصح وتركت نفسي تذوي في تلك المتعة التي يشعر بها ـ على ما يقال ـ أولئك الذين ينامون في الثلج فلا يستيقظون أبداً وكان بإمكاني ألا أستيقظ.

كان العالم الخارجي يخيفني ويقرّفني.

العالم الخارجي كان أنذاك عالم أخي!

كان هناك زمن ظننت فيه أن العالم ملكي، فترة النضال ضد النازية وآمال ما بعد الحرب والناس الذين كانوا يأتون إلى محاضراتي، يوم كان الأرذال في السجن، ويوم ضممت إلى قلبي البريء المرأة التي حلمت بها. لاشيء كان يبدو لي مستحيلاً.

لقد أصبح هذا الزمن بعيداً جداً الآن. وأخي يواصل نجاحه في الخارج.

قلت «الخارج»، هذا تعبير خاص بالمصح. كان «الخارج»، كياناً غامضاً وكنا نتحدث عنه برعب أكثر منه بحنين. حتى أنا؟ نعم، بمعنى ما حتى أنا، فلم يكن بقية المرضى وحدهم من يخافون الضياع في الخارج. قلت «بمعنى ما» لأنه من المفترض معرفة عن أي «أنا» نتكلم! عن عصيان؟ باكو؟ إن الشخص الموجود في المصح لم يكن أنا، بل جزءاً منه. ولم أتخذ وبكل صفاء نفس قرار الاستسلام بعد.

مع ذلك أفهم اندهاشك، صحيح أنني لم أقاوم ما فيه الكفاية، والآن، مع مرور الزمن أدرك جيداً لماذا. كل شيء تعقد في حياتي، فقد شعرت بأنني لن أستطيع متابعة دراستي أبداً. بدأت بشكل جيد لكنني لم تعد لدي تلك القدرة على التركيز ولا ذلك الحماس. كان لي من العمر ثلاثون عاماً، بدون عمل أبحث عن مستقبل غير مؤكد وأنا ماأزال مقيداً إلى حياتي السابقة. منذ أن تعرضت لاضطراباتي النفسية الأولى، عرفت بأنني لن أكون قادراً على أن أصبح طبيباً، وتجنبت التفكير بذلك كثيراً، لكن تلك الخيبة نهشتني.

فيما يتعلق بكلارا، كنت موقناً بأنني لن أنجح في استرجاعها إلّا إذا استعدت هدوئي العقلي وقدرتي الأكيدة على المحاكمة العقلية والتصرف. وكان هذا أيضاً يمنعني عن الانفجار وعن الصراع كمجنون. كل شيء كان يسير بشكل سيئ في حياتي وكنت مقتنعاً بأن الأمور ستصبح أسوأ إذا عاندت.

أضيفُ أخيراً بأنني إذا كنت رغم كل شيء قد ترددت ما بين الامتثال والرفض فإن الأدوية التي أعطوني إياها، كانت كافية لترجيح كفة الميزان.

حللت إذاً في تلك الشيخوخة المبكرة ولم أكن نافد الصبر. كان الوقت يمضي. كم سيستمر كل ذلك؟ لم أكن أملك أي تصور محدد. عدة أشهر؟ عدة سنوات؟ ليس ثمة حدود لذاك الزمن.

كنت أشعر بأنني لن أبقى في ذلك المكان إلى الأبد. كنت

أنتظر شيئاً ما، إشارة، هذا بدلاً من قول معجزة. كان ذلك مبهماً، لكن الجزء الباقي حياً مني كان يؤمن به.

وحدثت المعجزة. أو حتى أكون أكثر تحديداً، بدأت تتهيا ببطء ودون علمي أساساً. أمضيت وقتاً طويلاً دون أن أرى أملاً يدنو. ربما لأن الخلاص لم يأتني من حيث انتظرته.

مساء السبت

ـ ابتداءً من الغد، لن نتمكن من رؤية بعضنا. هذا ما أخبرني به عصيان عند مجيئي إلى الفندق نهار السبت، بعد انتهاء فترة القيلولة.

ـ وإذا لم تنته روايتك؟

ـ سأروي لك هذا المساء كل ما يسمح لنا الوقت بروايته وسنسهر لأقصى ما نستطيع. وإذا بقيت أشياء لم أروِها، ستبقى للتشويق.

ـ إلى مرة أخرى، ربما؟

ـ لاتُضع الوقت سأحاول الإسراع.

ذات يوم جاء أخي ليأخذني من المصح قبل الظهر بقليل، وكان خروجي الأول منذ أربع سنوات. لا، لم أضع قدميَّ خارجاً منذ دخولي، ولم أتلق العديد من الزيارات، فقد كان سالم يأتي مرة في السنة ليسألني إن كانت أموري جيدة، وكنت أجيبه «أجل»، فيرحل فوراً.

كنت أرى أختي أكثر قليلاً. فقد اعتادت على تمضية الصيف في جبل لبنان هرباً من قيظ مصر، لذا كانت تأتي لزيارتي مرتين أو ثلاثاً. يبدو لي أنهم كانوا يضاعفون كمية الدواء المسبب للخبل في أيام زيارتها، فأبقى في حالة من التأمل والبله. كانت تحاول أن تحدثني وتذكرني بأشياء

جميلة وتسألني عن أحوالي لكني ما كنت أجيب بأكثر من نعم ولا فترحل مجففة عينيها.

كان علي خروجي الأول أن يمثل حدثاً بالنسبة لي، لكني لم أكن فرحاً ولا حزيناً. كنت بالكاد متحيراً، وحتى هذا لم يكن تماماً! وقد أخبرني المدير في اللحظات الأخيرة أن شيئاً لم يتغير في عاداتي. كنت ألعب الورق عندما نادوني، فأعطيت مكاني إلى أحدهم وخرجت.

فتح لي السائق باب سيارة ضخمة سوداء وبيضاء، وكان سالم في الداخل. كان ودوداً أكثر من العادة وأعلمني بأنه يقيم في المنزل وليمة هامة ويريد حضوري. مرة أخرى كان يكذب علي. إذا كان هناك وليمة هامة حقاً، فليس هو من يقول لنفسه بشهامة: «يجب علي إخراج أخي من منفاه...»

كانت الحقيقة غير ذلك، فقد أصبح سالم أحد كبار رجال الأعمال في البلد. لا أقول هذا دون مرارة، لكن هكذا كان الأمر. لقد نُسيَ تقريباً من كان حتى الأمس مهرباً صغيراً. أهو تغيير مهنة؟ تغيير سُلَّم؟ في كل الأحوال، جنى سالم الملايين وكان دائم السفر، صنع اسماً وسمعة حسنة.

حمل منزلنا آثار ثروة جديدة طغت على القديمة. الحديقة التي كانت مهملة تماماً أصبحت مغطاة بمرج أخضر، اقتلعت أشجار الصبار، روح المكان، التي كانت تبدو كأنها ولدت مع الحجارة، ولم يبق إلا بعض أشجار الصنوبر الهرمة.أما في الداخل، فقد اختفى الأثاث الذي جلب من أضنة، ووضعت مكانه الأرائك المذهبة الشبيهة بضفادع كبيرة، كما أُفرغ المنزل من السجاد البالي المستهلك على مدى مئة وخمسين

سنة. بقيت غرفتي فقط كما هي، لم يدخلها أحد حتى لنفض الغبار الذي لم يمنعني من التمدد على سريري. لقد أنهكتني بضع دقائق السير هذه.

أيقظوني عندما وصل أول المدعوين. لم أكن أعلم من هم ولم أطرح أي سؤال ولم يخبرني أخي شيئاً، إلّا أنه يفضل الاحتفاظ لي بالمفاجأة. لم يكونوا كثيري العدد لكنهم بارزون. وقد استأجر سالم للخدمة رئيس خدم أحد الفنادق.

أول سيارة وصلت، كانت سيارة السفير الفرنسي يرافقه عضو من حكومته. نعم، كان برتران! أو بالأحرى ذاك الذي كان اسمه في المقاومة برتران.

يبدو أنه سأل مراراً عن أخباري، وكتب إلى كلارا التي أخبرته بالقليل الذي تعرفه، ثم كتب إلى سفيره الذي أجرى تحرياته، وعندما عرف أين كنت محتجزاً والحالة التي وصلت إليها، حذر وزيره من محاولة رؤيتي.

لكن برتران كان يعرف كيف يصر وإذ لم يرغب الدبلوماسي بمعارضته، اقترح فكرة الغداء تلك. لقد افترض، وكان مصيباً بذلك، أن أخي المتعطش للأمجاد والشهرة، لايمكنه مقاومة فكرة استقبال وزير فرنسي على مائدته. ووحده وجودي يبرّر حضور الوزير إلى ذلك المنزل. لم يكن أمراً وارداً أن يقوم مسؤول كبير خلال زيارة رسمية لبلد أجنبي بزيارةٍ شخصية، ولاسيما زيارة رجل أعمال ذي ماضٍ مشبوه. في المقابل، يستطيع زعيم سابق لإحدى شبكات المقاومة، الجلوس على طاولة رفيق السلاح. ولفترة تناول الغداء، عاد منزل كتابدار منزلي.

رياء ومقايضة شنيعة، وأكثر من ذلك: نهار مهين، لكنه سينفعني.

لِمَ كان مهيناً؟ بسبب التفاوت! ستفهم بعد قليل.

عندما أخرجوني ذلك اليوم يمكنني القول إنه كان في سجلي أربع سنوات من التهدئة القسرية. وجعلوني حتى في صباح هذا اليوم أشرب، ذلك الشراب الفريد. أمضيت الساعات الأخيرة ألعب الورق مع النزلاء الآخرين، بحركاتنا المخدرة. كنا نعيش جميعاً بالطريقة نفسها، نتكلم ونتحرك بالإيقاع ذاته. كان ذلك، بالنسبة لمُشاهد خارجي، شبيهاً بمشهد مُبَطّأ الحركة. ومحزناً كان أم مضحكاً، تلك كانت الحياة العادية بالنسبة لنا.

إذاً، وجدت نفسي ظهراً على المائدة مع العديد من الأشخاص الذين يعيشون إيقاع العالم الحقيقي. كان هناك أشخاص من السفارة، ومديرا صحيفة ومصرفي، وكانوا يتكلمون بأسرع من قدرتي على الاستيعاب، ويلفظون اسماءً لاتعني لي شيئاً مثل بانمان جام، مكارثي، ألمانيا الاتحادية، ومصدّق، ويحللون أحداثاً لم أسمع عنها قط، ويضحكون لأشياء لاتعني لي شيئاً. كان برتران ينظر إليّ طوال الوقت، بفرح في البداية ثم بدهشة ثم بحزن، فلم أفعل شيئاً سوى الأكل وعيني تشخصان في صحني.

وجّه إليّ الحديث مرتين أو ثلاث مرات، وريثما أنتبه لذلك وريثما أفهم ما أراد قوله وريثما أضع شوكتي وأحضر ردّي... يكون الآخرون الذين أزعجهم الصمت قد غيروا

الحديث حتى قبل أن أنطق بحرف واحد. يا إلهي، ماهذه الإهانة! تمنيت لو أموت!

في نهاية الغداء، حاولت أن أتمالك نفسي. فشحذت ذهني وركبت جملة مصمماً على قولها بأسرع ما يمكنني. وأتحين فسحةً من الصمت لكنها لم تأتِ، أو لم أعرف كيف أستفيد منها في الوقت المناسب. نظر السفير إلى ساعته مُعلناً لبرتران عن الموعد التالي.

وقف الجميع وتحركت أنا على إيقاعي. وعندما استطعت الوقوف، مستنداً بكل ثقلي على الطاولة. كان الجميع قد تركوا صالة الطعام متجهين نحو الباب. من يقول إني لم أبلغ الثالثة والثلاثين من العمر بعد!

فجأة، قام برتران بنصف دورة كأنه شعر بالندم ثم عاد إليّ وأحاطني بذراعيه وضمني إلى صدره برهة طويلة كأنه يعطيني وقتاً للكلام، كانت تلك فرصتي لأقول له ما لم أستطع التعبير عنه على الطاولة، كل مايغلي في داخلي، في صدري، في حلقي وعلى أطراف شفتيّ، كل مارغبت أن يفهمه أخيراً.

لم أقل شيئاً ولا أية كلمة. ربما هو الانفعال أو الدهشة لرؤيته يأتي إليّ بتلك الطريقة، إضافة إلى هؤلاء الذين ينتظرون والذين كنت أراهم من فوق كتفه. أجل، لقد كنت تلك المرة أيضاً، عاجزاً عن الكلام. كنت أشعر بأن ذلك هامّ وبأنها قد تكون فرصتي الوحيدة للعودة من جديد إلى عالم الأحياء. ولكن ربما لأن الرهان كان بتلك الأهمية شلّني.

إذاً، كنت عاجزاً عن الكلام، لكن في اللحظة الأخيرة، توصلت إلى إنقاذ نفسي قليلاً من قيودي غير المرئية، مصمماً

على القيام بحركة بشرية. أمسكت يد برتران لأمنعه من الرحيل وبحثت في جيبي عن صورة، صورة ابنتي التي أرسلتها لي كلارا. نعم صورة الطفل الوليد الشبيهة بكل صور الأطفال الحديثي الولادة في العالم، وأبرزتها له ثم قلبتها كي يستطيع قراءة الاسم: ناديا. هزّ رأسه وربت على كتفي متمتماً شيئاً ما، ثم رحل وفي عينيه حزن وشفقة ورغبة بالابتعاد سريعاً.

هل فهم أن ذلك كان طلباً للمساعدة؟ لا، لم يفهم شيئاً. لو أردت أن أقول له شيئاً، كان لدي الوقت، وكنت أستطيع فعل ذلك باحتشام أكبر من ذاك الذي رافق الحركة التي أخرجت فيها صورة قديمة لأبرزها. ما رأيته في عينيه عندما كان يبتعد، هو كل مايمكن رؤيته: الحزن والشفقة. أعلم الآن، أنه عندما كتب إلى كلارا فور عودته إلى فرنسا، إنما فعل ذلك كإخطار، يخبرها فيه أن التعس باكو قد هَزُل حتى أصبح من غير الممكن معرفته وأن الشاب الذي عَرَفتْه وعَرِفَه، غافروش(*) شبكة حرية! لم يعد موجوداً، وأن عليها نسيانَه وتجديد حياتها، ولم يظنّ بتاتاً أنه من المفيد التنويه بحركتي الأخيرة. وماذا ينفع فقد قال لنفسه من الأفضل لها المحافظة على صورة الشاب الحيوي والمحب بدلاً من صورة كائن مثير للشفقة شاخ قبل أوانه.

عندما أعادني سائق أخي إلى المصح، كنت منهكاً. لقد أضعت كل الفرص، أما سالم فكان مبتهجاً. هل راودهم الشك

(*) غافروش: اسم شاب باريسي صغير من أبطال رواية «البؤساء» لـ فيكتور هوغو يتميز بحيويته الثورية. وقد غدا هذا الاسم مرادفاً للمقاومين الشباب في فرنسا.

بأنه كان يحجر علي؟ لقد قدم لهم البرهان على حسن نيته، فقد تركني أشارك في الحفل بحرية وأجلس على مائدة الغداء وأتحدث، إذا أمكننا قول ذلك، إلى المدعوين بل وبأحاديث جانبية أيضاً، وبذلك يثبت لكل منهم أن حالتي العقلية مؤسفة وأن تواجدي في مؤسسة مختصة، لم يكن أمراً غير مبرر، وكذلك وصايته الشرعية التي يمارسها على حصتي من الميراث.

نجح أخي أيضاً عن طريق تلك الدعوة، في تنظيف نفسه من وساخة أخرى ارتبطت به: الحكم القديم عليه كمهرب والذي قاده إلى السجن. لقد نجح عن طريق الثروة بالحصول على جرعة قوية من الاحترام، والاحترام ـ كما تعرف دون شك ـ كالمرأة العاهرة... لكن رد الاعتبار كان كاملاً تلك المرة: إذا كان الفرنسيون ذاتهم الذين حكموا عليه بعشر سنوات من السجن سابقاً، يقبلون الآن أن يلبي سفيرهم ووزيرهم دعوته للغداء، فهذا يعني أنهم مقتنعون ببراءته، ومن يستطيع ادعاء العكس؟

إذاً، لم تكن تلك الوليمة التي أُعدت تحضيراً لإنقاذي، سوى مرحلة على الأكثر من مراحل ارتقاء أخي. أعتقد أن العديد من الناس تساءلوا، كيف يمكن أن يخرج من منزل واحد ومن بطن واحدة، ذلك الرجل الهام وتلك «الخرقة» الذي هو أنا... وسيتجنب أولئك الذين يعرفون مصيري أن يلمّحوا إليه احتراماً لتلك الشخصية الكبيرة التي ستجرح كرامتها من وجود مثل تلك العاهة في عائلتها. لكن أكثرهم كان قد نسي حتى وجودي. لقد دفنوني دون صلوات.

ليس الغرباء فقط ! بل حتى الأقرباء. الوحيد الذي كان بإمكانه فعل شيء من أجلي هو أختي، ولا أحد غيرها. جدي نوبار وجدتي توفيا بعد وصولهما إلى أميركا بقليل، وأما ابنهما آرام الذي خرج من البلاد في ظروف مهينة فلم يرغب أبداً بإعادة صِلاته مع عائلته أو ما تبقى منها.

مَنْ أيضاً؟ رفاقي في المقاومة؟ أولئك الذين عرفوا من برتران ما وصلت إليه، أعتقد أنهم حزنوا ثم نسوا. كيف ألومهم على ذلك؟ فأنا لست أول رفاقهم الشباب الذين أصيبوا بالانهيار غداة النصر ودون سبب واضح. للحرب أحياناً عقابيلها.

من أيضاً؟ كلارا؟ في البداية بعثت لي، كما علمت، عدة رسائل لم أستلمها. وكتبت إلى أختي، فأجابتها ناصحة ألّا تحاول لقائي. لماذا؟ لم تكن عفّت تريد لزوجتي أن تراني في الحالة التي رأتني هي فيها خلال زياراتها في الصيف. ثم إن الانتقال من حيفا إلى بيروت كان أمراً مستحيلاً. يجب الحصول على أوراق مزيفة وتأمين أشخاص متعاملين. وفي تلك الحالة، تصبح مشبوهاً في أعين العرب والإسرائيليين على السواء. قالت أختي لنفسها إذا استطاعت كلارا تجاوز كل تلك الحواجز تاركة ابنتها وراءها، أو أسوأ من ذلك، إدخالها في تلك المغامرة، لوجدت نفسها في نهاية الرحلة تواجه شخصية لاهثة ومنقادة وعاجزة عن الكلام والتصرف، وستصاب بالإحباط الدائم. أليس من الأفضل انتظار اللحظة المناسبة، حتى أبدأ على الأقل بإعطاء بعض إشارات اليقظة؟ وعندها يمكن لصدمة لقائي مع كلارا وناديا أن تكون ذات تأثيرٍ شافٍ.

كانت أختي ماتزال في تلك الفترة تأمل بتحسن حالتي، غير أن أملها كان يتضاءل في كل زيارة حتى وصلت إلى اليوم الذي انتهى لديها كل ذلك الأمل. وتم ذلك في أسوأ اللحظات، لحظة بدأت أنا بالإيمان بانتظار شفائي. لكني لا ألومها ولا ألوم كلارا، فكيف تكتشفان أنّي سجين نفسي ومدفون حياً؟ فأنا لم أطلب المساعدة.

في مساء ذلك اليوم، يوم الوليمة التعسة. ورغبةً مني باستدراك غلطتي بعد أن فقدت كل ثقة بقدرتي على الكلام، حاولت الكتابة على طرف ورقة هذه الجملة البسيطة: «أرغب الخروج من هنا واستعادة حياتي الطبيعية». كان ذلك طلباً للمساعدة ما زلت نادماً حتى الآن لأنني لم أعرف كيف أوصله إلى برتران، وجهزت نفسي كي أسلمه إلى عفّت باليد عندما تأتي لزيارتي في الصيف التالي. لقد احتفظت بهذه الورقة دائماً في جيبي مع صورة ناديا.

وإن أجبرت نفسي على الكتابة، فليس خوفاً من عدم وصول الكلمات إلى شفتيّ عندما أحتاجها فقط، بل لأني قد لا أستطيع الحفاظ على الاستعداد الذهني نفسه. كنت بحاجة لاستعادة القليل من الغضب المتكثف في داخلي. مثلما يجمع بعض الأشخاص التائهين في الصحراء والمهددين بالعطش قطرات الندى عن الأوراق والتويجات، قطرة قطرة، ليشربوها. لقد أصبح الغضب والشعور بالإهانة وطفرات التمرد النادرة وقوداً ثميناً من أجل بقاء كرامتي المخدّرة.

لم تأتِ أختي في ذلك الصيف لتمضية عطلتها في الجبل، ولافي الصيف التالي. ولم ألقها فيما بعد أبداً.

قال لي سالم يوماً، إن صهرنا محمود قد تعرض لبعض المشاكل مع السلطات المصرية وأنه اعتُقِل ثمانية أشهر مع بعض المصرفيين الآخرين، وبسبب شعوره بالغبن والإحباط، صمم على نفي نفسه أبعد ما يمكن عن الشرق الأدنى، إلى ملبورن في أستراليا.

راودني الشك بحدوث أمر ما، فعلى الأقل، كانت أختي ستأتي لتوديعنا. يبدو لي أن أخي وبدسيسة ما، رفع يد عفّت عن حصتها في الميراث. ليس لدي براهين على ذلك سوى حدسي وبعض الدلائل المبهمة التي يمكن اشتمامها من هنا وهناك. لكن لنتجنب الأمور الدنيئة!

ربما كانت أختي ستقوم بالرحلة كي تراني لو بدوت جديراً بتقدير زياراتها، لكن أن تأتي من أجل سماع كلماتي القليلة والمبهمة وتخرج باكية، فلن يدفعها ذلك لأن تستقل سفينة أو طائرة من أستراليا!

وهكذا لم ترجع أبداً. كنت أنتظرها دائماً مع اقتراب الصيف، وكان أملي يتضاءل عاماً بعد عام حتى تلاشى.

إن بقيتُ على قيد الحياة فلأن وضع حدّ لها يحتاج لإرادة قوية، لم أكن أمتلكها. لا أملك حتى الإرادة أو القوة بمد

يدي للموت. اختلاس بعض زجاجات الدواء أو الركض باتجاه الدرج والصعود إلى السطح ثم القفز في الفراغ. لم يكن هناك سوى طابقين ولكن مع بعض الحظ، قد أصبح حطاماً.

ما كان يجب أن أقول ذلك فالحظ عكسُ ذلك. فمن حُسن حظي أنني لم أمتلك القوة لإنهاء حياتي عندما فقدت آخر أملٍ لي. فحتى لو لم نر أي ضوء في نهاية النفق، يجب استمرار الاعتقاد بوجود ضوء ما وبقرب ظهوره.

يصبر بعضهم لأنهم يحتفظون بإيمانهم بالمستقبل، وبعضهم الآخر لأنهم يفتقدون القوة لإنهاء حياتهم. لاشك أن الجبن أمر مكروه، لكنه ينتمي إلى مملكة الحياة، إنه وسيلة للبقاء مثل الاستسلام.

لكن من المعيب أن أتكلم عن الجبن والاستسلام كما لو أنهما وحدهما اللذان جعلاني أحتفظ بحياتي، بل كان هناك لوبو، أحد نزلاء المصح. غالباً ما كنا نثرثر سوية وأصبح فيما بعد الصديق الوحيد الذي لاغنى عنه. سأعود للحديث عنه مرة أخرى فقد عنى لي أكثر من أي شخص آخر ولسنوات طويلة. لكنني أرغب أولاً أن أروي لك كيف ردعني عن الموت.

ليس من السهولة بالنسبة لي التحدث عن ترددي أمام الانتحار. كان يهيمن على المصح جو من النميمة الطفولية، كنت أتخيل أنهم إذا شكّوا بأني سأنهي حياتي، سيقيدونني إلى السرير كل ليلة... لكن ربما شك لوبو ببعض الأمور، فحثني على الكلام، سارّاً لي في أحد الأيام بانه نوى ولأكثر من مرة «إنهاء حياته» وعندما أخبرته بأن الأمر سيان عندي وبخني بخبرة من يكبرني عشرين عاماً ـ عشرين عاماً من الاحتجاز ـ

التي كانت تفصلنا: «عليك أن ترى في الموت مخرج النجاة الأخير. ولتعلم ألّا أحد يستطيع منعك من تحقيق ذلك، لكن ولأنه في متناولك، احتفظ به احتياطاً إلى مالانهاية. افترض أنك في كابوس ليلي، فإذا علمت أنه كابوس حقيقي، وأنه يكفيك أن تهزّ رأسك قليلاً لتخرج منه فتصبح الأمور أكثر سهولة وأكثر احتمالاً، ويصل بك الأمر لأن تجد لذة في ذاك الشيء الذي تراه مرعباً. إذا كانت الحياة تخيفك وتسبب لك الأذى، وإذا كانت الكائنات القريبة جداً منك تغطي وجهها بقناع قبيح فقُلْ إنها الحياة، إنها لعبة لن تُدعى إليها مرة أخرى، لعبة ملذات وآلام، لعبة آمال وخداع، لعبة أقنعة، ألعبها حتى النهاية كممثل أو كمشاهد، وأن تكون مشاهداً، فهذا أفضل لأنك تستطيع الخروج دائماً. بالنسبة لي «مخرج النجاة» يساعدني على العيش، لأنه تحت تصرفي، أعلم بأنني لن أستعمله أبداً. لكن، إن لم أكن متحكماً بموتي، سأشعر بأني واقع في الفخ وسأرغب بالهرب بأسرع ما يمكن!».

لم يكن لوبو مريضاً أكثر من أي إنسان عادي، لكن كانت له كما يقال «طبائع خاصة». وقد فضلت عائلته احتجازه إمّا رغبة بتخلصه منها أو ربما فقط من أجل تجنب الفضائح. أمضى معظم فترة نضوجه في عدة مؤسسات، وكان المصح المؤسسة الرابعة أو الخامسة كما أعتقد. وقد اجتاز كل أنواع البلاء. ذات يوم قرر أحد الأطباء أن تُجرى له عملية استئصال فص Lobotomie(*) من أجل أن ينزع عنه ميوله السيئة، ولكن أمه التي استيقظ ضميرها أو غريزتها تدخلت

(*) Lobotomie : جراحة فصية، وهي جراحة تجرى من أجل استئصال الفص الجبهي عند المرضى النفسيين.

لمنعه، فبقي له من هذه المغامرة البشعة لقبه الذي انتحله هو أيضاً، من قبيل السخرية على ما أعتقد. كان ينظر إلى كل مايحيط به وإلى حياته وماضيه بلامبالاة.

كان يُعامل في المصح معاملة خاصة، فقد وُضع له بيانو في غرفته، وكان يمضي أحياناً النهار كله منتعلاً بابوجه، واضعاً وشاحاً أخضرَ من الحرير معقوداً حول رقبته، يعزف من دون نوطة موسيقية أو يتحدث معي دون أن يقوم من مقعده، وبعكسنا جميعاً، كان يمكنه تلقي الاتصالات الهاتفية والرسائل البريدية. وفي الحقيقة لم يكن أحد يعتقد أنه مجنون.

هو من أخبرني أن أخي أصبح وزيراً نتيجة لتعديلٍ وزاري. وزيراً! عرف لوبو ماسيصيبني من ذهول ـ كنت قد حكيت له بالتفصيل أي شخص هو سالم ـ لذا تأكد بأنني ابتلعت كل «قهوتي» ذاك الصباح، قبل إعلامي بالخبر.

بقيت مخبولاً، أقصد أكثر من العادة لأن الخبل كان حالتي الطبيعية، وواساني لوبو بطريقته: «يجب ألا يدهشك ما يحصل ياعصيان، قل لنفسك دائماً إن أخاك يتميز عنك بفارق هام».

«ماهو؟» سألته

«إنه أخ لمناضل قديم بينما أنت أخ لمهرب قديم».

ضحكت، وتجاوزت مرارتي.

هكذا، وبينما كان أخي ينجح ويكسب الثروة والشهرة، كنت أغرق محتفظاً بابتسامة الأتقياء على شفتيّ... مضت السنون وكانت طويلة، طويلة جداً بحيث يئست.

عندما بدأت الأمور تتغير فجأة أتى مندوب العناية الإلهية ليسحب ملف حياتي من درج مليء بالغبار ويلقي عليه من جديد نظرة خاطفة أكثر تسامحاً.

لم تكن وسيلة العناية الإلهية سوى ابنتي ناديا التي رحلت إلى باريس من أجل الالتحاق بالجامعة.

نعم، ناديا. لقد بقيتُ أنا أيضاً محتفظاً بصورتها، صورة الطفلة الحديثة الولادة، لكن عمرها آنذاك كان عشرين عاماً. وكان ألف تمرد يغلي في داخلها. أرهقتها الحروب المتتابعة في مشرقنا لذلك كانت تتعجل الابتعاد عنه.

لأنها لم تستطع استبقاءها إلى جانبها، وبسبب خوفها من رحيلها وحدها أخذت أمها عليها وعداً بأن تلتقي مع بعض الأصدقاء القدامى من العصر البطولي. لذا ذهبت إلى برتران الذي لم يعد وزيراً، لكنه بقي رجلاً ذا نفوذ كما بقي وجهاً من وجوه المقاومة.

وبسبب حيائها أمام الشخصية التي استقبلتها في صالون فاخر ذي أرائك وثيرة والتي أخذت تتمعنها بابتسامة خفيفة، ظنّت ابنتي أنها بحاجة لأن تبرر حضورها، بينما كان برتران في الحقيقة يبحث في وجهها عن الملامح المشابهة لملامح أهلها.

«لقد حثّتني أمي على زيارتكم أعتقد أنكم عرفتموها خلال الحرب...»

«إذاً، أنت ناديا، ناديا كتابدار، عرفت أمك بالتاكيد وكذلك أباك كان الاثنان مذهلين أثناء الاحتلال. رفيقان رائعان وصديقان لايمكن نسيانهما».

شعر برتران ببعض الاضطراب عندما قال «أباك»

فاستبعد ذلك بسرعة البرق وبدأ بالتحدث عني وعن لقائنا في مونبيلييه. عن نقاشاتنا ونضالنا ورعبنا ومآثر باكو الذي لايمكن القبض عليه. كانت ناديا تتابع ما يقوله بشغف. كانت تعرف بعض الأشياء من أمها، لكن هناك أموراً أخرى لاتعرفها. أصبح بإمكانها الآن تخيل ذلك الشاب الذي صار والدها بشكل أفضل.

ثم تحدث برتران عن مرضي واحتجازي، وعندها فقط عادت تطفو في ذاكرته تلك الزجاجة التي كنت قد رميتها في البحر: فقد روى لابنتي وبالتفصيل مشهد الصورة التي أخرجتها من جيبي في نهاية تلك الوليمة الكريهة. الحركة التي بدت له مثيرة للشفقة وللسخرية لدرجة أنه أعفى نفسه من التكلم عنها إلى كلارا وطردها من ذاكرته كي لايحتفظ بصورة محزنة عن صديقه. عادت إليه فجأة بدلالة أخرى تماماً عندما وقفت تلك الفتاة أمامه، جاهزة لتقوم بأولى خطوات نضوجها، يتيمة الأب الذي لم يمت.

كانت ناديا تبكي. حتى ذلك الوقت، كنت جزءاً من أصلها، لكني بعد ذلك أصبحت من لحمها.

بدت لها تلك الرسالة التي وُجّهت إليها والتي وصلتها متأخرة الحركة الأخيرة لغريق. وتساءلت عما حدث لي بعدها وإذا كان هناك سبيل لانتشالي من الماء.

وعندما غادرتْ برتران، نظر إليها وهي تبتعد، نظرة تخوف، فلم يكن لها خطوات مراهقة البتّة.

أما أنا، فقد كنت على الأرجح ألعب بعد ظهر ذلك اليوم وللمرة الثامنة عشرة منذ الصباح لعبة الورق مع ثلاثة من النزلاء الغشاشين.

كيف ستتوقف ناديا عن التفكير بذلك الرجل الذي يحمل صورتها كتعويذة يضعها جهة قلبه؟ ذلك المختل. نعم، نعم، لِمَ أخاف من الكلمات؟ ذلك المختل الذي أبرز صورتها إلى أفضل صديق له كصورة مقدسة! وجه لطيف لطفلة حديثة الولادة، الفرح الأكبر في العالم!

بالنسبة لابنتي، توجه كل ما يمكنها أن تحمله في سنّها من مُثُل وأحلام واندفاع، صوب ذلك العجوز الشاب المحتجز. كررت قولها إلى رفيقتها في الغرفة، في السكن الجامعي: «لكنه أبي وليس غريباً، إنه أبي ونصف خلايا جسمي أخذتها منه وكذلك نصف دمي ولون عيني وشكل ذقني، أبي». كانت تحب نكهة تلك الكلمة.

وإذا ماوجدت ذلك الأب كحيوان ضعيف ومطارد، مجروح ومنبوذ بدلاً من أن يكون الحامي الأشقر(*) الضخم؟ وإذا ماأصبحت ابنته حاميته الحنونة بدلاً من أن تكون تحت حمايته؟

كانت ناديا تحلم بي بكل الحنان الذي يمكن أن تحمله داخلها في ذلك العمر. لكن أحلامها لم تتوقف هنا، كانت تبحث عن وسيلة تستطيع من خلالها رؤيتي أو الوصول إلي،

(*) الأشقر: الحيوان البرّي ذو الشعر الأشقر كالأسد والظبي وغيره.

وسيلة تجيب من خلالها على الإشارة التي وجهتها إليها منذ خمسة عشر أو ستة عشر عاماً.

وأصبحت فكرة إيجاد ذلك الأب وتخليصه فكرتها الملحة.

حتى ولو كان منهاراً بسبب احتجازه أو بسبب تناول الأدوية لدرجة أنه أصبح من غير الممكن إعادته إلى طبيعته؟

لم تطرح على نفسها هذا السؤال قط. وكان ذلك ضلالاً شافياً.

هل تحدثت عن ذلك إلى أمها؟ لا، مطلقاً، فلم تكن علاقاتهما ممتازة في تلك المرحلة من حياتها. كانت لكلارا شخصية متسلطة ذات ماضٍ، بينما ناديا بحاجة لأن تعيش مغامرتها الخاصة وتقود نضالها بنفسها. من حيث توقفت أمها.

لم تتحدث مباشرة إلى برتران عن ذلك أيضاً، بل تصرفت لوحدها، فقد كانت مغامرتها ومعركتها ووالدها.

كانت محقة بعدم إثارة الضجة حول مشروعها إذ كان مشروعاً خيالياً لدرجة لن يسمح لها برتران أو كلارا بمحاولة تحقيقه.

لم تفصح عن ذلك، كما علمت فيما بعد، إلا لصديقتها التي تشاركها غرفتها، وكانت تدعى كريستين أما اسم عائلتها فكان الكنية نفسها لواحد من أكبر صيّاغ باريس.

اقترحت ناديا عليها تبادل المواقع، وكانت الفتاتان

متشابهتين لدرجة أنه لايمكن التفريق بينهما في صورة الهوية الشخصية. وبعملية جديرة بجاك أبي الأوراق المزيفة، أعدت كريستين جواز سفر جديداً يحمل صورة ناديا، ولم يدر موظف الشرطة بما يجري، وهكذا صار لدى ابنتي جواز سفر باسم كريستين لكن بصورتها. وصار بإمكانها عبور الحدود دون أن يشك أحد باسمها الحقيقي او جنسيتها أو مكان ولادتها. أما بالنسبة لصديقتها المتمردة على عائلتها فكان من الممتع لها أن تتخلص لبعض الوقت من اسم عائلتها الخانق، منتحلة هوية فتاة مسلمة ويهودية في الوقت نفسه.

نعم، مسلمة ويهودية تماماً! فأنا والدها، كنت مسلماً على الورق على الأقل، وكانت والدتها يهودية نظرياً على الأقل. فتبعية الدين عندنا تعود إلى الأب، أما عند اليهود فتعود إلى الأم، لذا كانت ناديا مسلمة بنظر المسلمين ويهودية بنظر اليهود. أما هي فيمكنها اختيار أحدهما أو التخلي عن كليهما لكنها اختارت الاثنين معاً. أجل الاثنين معاً وأمور أخرى أيضاً. كانت فخورة بكل تلك السلالات التي انتهت إليها بطريق الغزو أو الهرب، من آسيا الوسطى، الأناضول، أوكرانيا، بلاد العرب، بسرابيا(*)، أرمينيا، باڤاريا... لم ترغب بفرز نقاط دمها إلى ما تجمعه من أصول ولا تقسيم روحها إلى ما فيها من مكوّنات.

كان ذلك عام 1968 ، وكما قيل لي، كانت تلك الفترة، ربيعاً مثيراً بالنسبة لطلاب فرنسا، لكنها لم تكن تفكر إلّا

(*) بسرابيا: منطقة من روسية على حدود رومانيا والبحر الأسود.

بالرحيل إلى الشرق الذي تمقته. حصلت على الفيزا وبطاقة الطائرة وحجز الفندق، وكل ذلك باسم صديقتها.

في اليوم التالي لوصولها إلى بيروت، استقلت سيارة أجرة واتجهت إلى مصبح الطريق الجديدة. لم تكن تملك أية وسيلة لمعرفة إن كنت ماأزال فيه، لكنها توقعت أني لم أتحرك منه.

في مكتب المدير، قدمت اسمها المزيف فسألها دؤاب حتماً إن كانت تنتمي إلى العائلة المشهورة التي تتاجر بالمجوهرات؟ فقالت: «نعم» بالتجرُّد المفترض دون مبالغة ولا استهتار، كما تفعل كريستين تماماً عندما يطرح عليها هذا السؤال.

أضافت ابنتي: «تماماً، والأمر يخص العائلة إلى حد ما. إنه أمر محرج، لكني أفضل الدخول مباشرة في الموضوع».

عاشت إحدى عماتي في لبنان منذ بضع سنوات، وقد سمعت الكثير من المديح عن مؤسستكم، فنصحتني بالقدوم إليكم وبحث قضية والدي. فهو يتعرض منذ عدة سنوات لمشاكل عقلية خطيرة جداً، ويتابعه بعض المختصين...»

«من مثلاً؟»

كانت ناديا قد جهزت نفسها للمقابلة جيداً فقالت له بعض الأسماء الذائعة الصيت. أبدى المدير استحسانه بحركة من رأسه ودعاها لتتابع.

«نعتقد أن الإقامة في بلد أجنبي ستكون جيدة بالنسبة لوالدي وكذلك بالنسبة لكل العائلة. فكما تعلم، نحن أناس

معروفون وقد يهدد سمعة منزلنا، وهو يعي هذا تماماً. لم أكلمه بعد عن فكرة العناية به هنا، لكنني لا أتوقع أنه سيعارض إذا ناسبه المكان وأشعر أن لديكم كل مايرغب به: الشمس والهدوء ومستوى العناية. أتيت فقط لأستكشف المكان وأعرف في أي جو سيعيش قبل اتخاذ القرار النهائي. قد نكون بحاجة لأن تأتي بنفسك وترى الجو في باريس، على حسابنا طبعاً...»

وقعت السمكة في الشباك! واقترح الدكتور دوّاب بسرور على الوريثة الغنية، القيام بجولة في مؤسسته النموذجية.

ابتدأ جولته من الحديقة ليعطيها فكرة عن المكان ثم منظر الجبل والبحر القريب منه، ثم الأجهزة الطبية التي بدا أنها لا تستعمل إلا نادراً، وذهبت بعدها إلى الغرف. غرفة لوبو الذي كان جالساً أمام البيانو، ثم الصالة الكبيرة المزينة بالنباتات الخضراء، حيث يترك النزلاء الذين لم يعتادوا على هذا النوع من الزيارات لعبتهم الوحيدة: الورق. ليقتربوا من الزائرة.

«لاتخافي، لن يسببوا لك الأذى!» قال دوّاب.

طمأنته ناديا محاولة الاحتفاظ بهيئة الباحثة المدققة. نظرت إلى اليمين والشمال، إلى الأعلى والأسفل كما لو أنها تتحقق من عدم وجود شيء من الغبار في زوايا تلك الصالة البالغة النظافة. في الواقع، يمكنني تخيل المشاعر التي اعترتها عندما كانت عيناها تبحثان بين تلك الجمهرة من المختلين عقلياً عن الأب الذي لم تلقه بعد.

لم أكن ألعب ذلك اليوم بالورق ولا بالداما أو الطاولة «النرد» أو أي شيء آخر، بل ثرثرتُ قليلاً وبلا مبالاة مع لوبو

الذي جلس بعدها أمام البيانو بينما أخذت كتاباً وغرقت فيه. عندما وصلت الزائرة وحدثت تلك البلبلة، لم أقترب مع الآخرين، بل رفعت رأسي فقط وللحظة واحدة دون أن أتحرك من مكاني لرؤية الغريبة.

التقت عينانا. من يمكن أن تكون تلك الشابة؟ لم يكن لدي أدنى فكرة. لكنها عرفتني فمازلت كما في الصور القديمة. تسمّرت عيناها وكذلك عيناي، وذلك لأني كنت محتاراً ومنزعجاً من تلك الغريبة التي جاءت لتتفرج علينا وكأننا أسماك زينة.

أبديت حركة امتعاض بشفتي، وهذا ما جعل دوّاب يقول مع ضحكة خفيفة كما لو يريد الاعتذار:

«لقد أزعجناه في قراءته».

ورماني في الوقت نفسه بنظرة غامضة.

ثم أضاف:

«هذا السيد لايفعل شيئاً سوى القراءة من الصباح إلى المساء فهذه هوايته».

لم تكن الحقيقة تماماً، فقد كان يزوّر الأشياء قليلاً بهدف إبراز المظهر الثقافي للمؤسسة.

قالت ناديا: «إذا كان الأمر هكذا، فسأقدم له كتاباً انتهيت للتو من قراءته».

وفتحت حقيبة يدها متجهة نحوي.

قال المدير: «لاداعي لذلك»...

لكنها اقتربت مني رغم ذلك ورأيتها تدس شيئاً ما في الكتاب قبل تقديمه لي.

ثم عادت باتجاه دوّاب الذي تصنّع ابتسامة أما أنا فقد

فتحتُ الكتاب بحركة آلية وكنت ما أزال مندهشاً. لم أكن أرغب حتى بقراءة العنوان. كُتب في الأعلى وعلى اليمين، بجانب اسم المؤلف، اسم المالكة بقلم رصاص: ناديا ك.

وقفت تلك اللحظة أنظر إليها بغرابة، واكتشفت في وجهها الملامح التي تذكرني بكلارا. عرفت تلك اللحظة ودون أن يساورني أدنى شك أن تلك الزائرة هي ابنتي وشعرت بأن دوّاب يجهل حقيقتها. ذهبت باتجاهها واعداً نفسي ألاّ أخونها، لكنها خافت عندما رأتني أقترب منها بحركة آلية، وفَهِمَتْ بأنني عرفتها كما خَشِيَتْ أن أُفسد عليها كل شيء.

تقدمت نحوها وقلت «شكراً» مشيراً إلى الكتاب.

مددت لها يدي فأمسكت بها، فانحنيت مردداً: «شكراً»، «شكراً»، «شكراً» دون القدرة على التوقف.

«لقد أثرت هديتك به». شرح المدير مطلقاً ضحكة عصبية.

اقتربتُ من ناديا أكثر حتى أعانقها.

«يكفي هذا الآن، أنت تتجاوز الحدود». صرخ الرجل.

لكن ناديا التي تجاهد للحفاظ على هدوء أعصابها، قالت له:

«اتركه فليس هناك أي سوء»

ضممتها إلى صدري للحظة وشممت رائحتها لكن دوّاب فرقنا.

كانت مصممة ألاّ تُعطّل مهمتها لمجرد فيض من المشاعر فابتعدت عني قائلة:

«هذا السيد مؤثر جداً».

ثم أضافت متوجهة بكلامها إلى الطبيب، يا لها من جرأة!:

والدي يهوى القراءة أيضاً، ساروي له ما حدث وأنا متأكدة أنه سيتفاهم مع هذا المريض!».

في الحقيقة، لقد خشيت ناديا أن يعاقبني ذلك الشخص نتيجة تصرفي بأن يأخذ الكتاب مني مثلاً... فلم تتردد في الإدعاء ـ كما عرفت فيما بعد ـ بأن هذه الواقعة المؤثرة أزالت كل تردد في داخلها، وبانها باتت متأكدة أنه لايوجد مؤسسة أخرى أكثر مواءمة لوالدها. تاجر المجوهرات، طبعاً...

فُتِنَ دوّاب بذلك الكلام بينما تم إنقاذي وإنقاذ كتابي. وكذلك الرسالة التي دستها داخله.

أسرعتُ فأخفيتها في ثيابي وذهبتُ إلى المرحاض كما مزقتُ الورقة الأولى من الكتاب، حذر، حذر... كُتب اسمي على الظرف وأغلب الظن أن ناديا لم تتخيل أبداً أن الفرصة ستسنح لها لتسليمي رسالتها باليد، بل كانت ستعطيها لمريض آخر ذي مظهر مُطمئنْ آملة أن يوصلها إليّ.

ماذا قالت الرسالة؟ بعض الكلمات التي كنت بحاجة إليها كي أستعيد رغبة الحياة.

«أبي،

أنا الفتاة التي ولدت في غيابك، الطفلة التي تحتفظ بصورتها جهة قلبك والتي كبرت أخيراً بعيداً عنك. بعيداً؟ لا

تفصلنا في الحقيقة سوى عدة كيلومترات من طريق ساحلي رائع، لكن حدوداً ملعونة انتصبت بيننا وكذلك الحقد وسوء الفهم ونقص المُخيلة.

قبل ولادتي، واجهت أنت وأمي الحرب والحقد. هذا الحقد الذي كان يبدو قوياً، لكن أناساً مثلك ومثل أمي واجهوه وانتصروا في النهاية. إنّ الحياة تجد طريقها دوماً مثل الجدول الذي إن حُوّل عن مساره حفر مساراً آخر.

صمدتم أنت وأمي والآخرون، وكانت لكم أسماءٌ حركية تخدعون بها القدر. معركتي ليست مثيرة مثل معرككتكم، لكنها معركتي وسأخوضها بجدارة. واتخذت بدوري اسماً حركياً كي أعبر الحدود وأراك وأقول لك ببساطة: «فلتعلم أنَّ لك في الخارج فتاة هي ابنتك أنت تعني لها أكثر من أي إنسان في العالم وتنتظر بفارغ الصبر لحظة لقائك».

غيرتني تلك الكلمات في اللحظة التي قرأتها فيها، لقد أعادت إليّ اعتباري كإنسان وكأب ورغبتُ بالحياة من جديد. لم أعد أقبل بمدّ الساعات التي كانت تفصلني عن غدٍ بلا مفاجأة. كان لدي حبٌ ينتظر. وإن لم يعد لشخصيتي أي نفع لي فإني سأحافظ عليها وأجمّلها لأجل ناديا. شعرت تجاه ابنتي بحب مراهق وأردت، من أجلها، أن أعيد إلى الحياة وإلى الحرية باكو الذي أحبه الناس وأعجبوا به، أردت استعادته من أجلها. ستكون فخورة بالتنزه متأبطة ذراع ذلك الأب.

لكن لم تكن رغبتي بالتصالح مع الحياة كافية كي تتحقق هذه المصالحة، فهذا لايشبه رجلاً حَلُمَ بقتل نفسه ثم جاءت ابنته وأخذته بيده قائلة: «أبي احتفظ بالحياة التي لاتريدها، على الأقل من أجلي!»، فقطع وعداً على نفسه بالعدول عن مشاريع الانتحار. كان الأمر أكثر تعقيداً. بالتأكيد، كنت أدرك مايحصل لي وكنت سعيداً به. لكني كنت أرى كل هذا عبر ضباب بسبب ذهني المشوش والمعطل نتيجة عشرين سنة من الاحتجاز. عشرون سنة من الجنون الذي وإن كان قسرياً رضيت به بكل خنوع. عشرون سنة من المواد المخبّلة المُتَجَرّعة كل صباح. عشرون سنة من الإرادة المقموعة. عشرون سنة من التفكير والنطق المبطئين. المخدَّرَين.

ومرة أخرى لايكفي للتراجع عن قرار الموت أن أجد نفسي على حافة الهاوية، وفي اللحظة التي سأقفز فيها، أقوم بخطوة إلى الوراء وأمسك مرتجفاً اليدَ الدافئة التي امتدت نحوي. ليس الأمر بهذه السهولة فإذا استعدت الصورة ذاتها سأقول بأنني كنت على حافة الهاوية، ليس على اليابسة بل فوق حافة صخرية ضيقة بعد أن شربت زجاجة من الويسكي. لن يكفي آنذاك أن أقرر العودة إلى الوراء لأنه في حالتي تلك قد أسقط في الهاوية معتقداً بأنني أمشي صوب النجاة. إذاً، يجب أولاً أن أصحو من سكري وأستعيد الرؤية والأفكار

الواضحة لأتمكن من معرفة مكان كل خطوة من خطواتي.

هذا في ما يتعلق بي، إلّا أنه يوجد أشخاص غيري. أولئك الذين احتجزوني وأخي الذي لايريدني أن أسترجع منزل كتابدار أو أن أطالب بحصتي من الميراث، ودوّاب الذي يعتبرني نبعاً من الواردات ووسيلة للتأثير. من المفترض ألا أثير شكوكهم طالما أنا تحت سلطتهم، وعليّ أن أبدي الحذر الشديد.

أتريد مثالاً، هاك: كان من الهام جداً أن أتخلص من الأدوية الموضوعة في القهوة كي أستعيد وضوح ذهني. كما كان عليّ أن أخادع فالمراقبة لم تكن صارمة كل الأيام، لذا وبقليل من الإرادة وتسلسل الأفكار، يمكنني الوصول إلى ذلك. لكن، إذا توقفت فجأة عن تناولها فستقع الكارثة، إذ خلال ثمانٍ وأربعين ساعة، كنت سأبدي من عوارض التوتر الشديد ما يكفي لفضح أمري، ونتيجة لذلك، قد يقرر الطبيب إعطائي كمية كبيرة من الأدوية تلك بطريقة الحقن وقد يشدّد المراقبة.

إذاً، الموقف العقلاني السليم هو إنقاص كمية الدواء بشكل تدريجي. لاحظت أن مذاق الدواء في «القهوة» الصباحية، أكثر شدة في الرشفات الأخيرة منه، لذا اتبعت تقنية أحتفظ من خلالها بما يتبقى في قعر الفنجان داخل فمي لأبصقه فيما بعد في المغسلة عند دخولي إلى المرحاض. وأصبحت بعد عدة أسابيع في حال أفضل، ودون أن يتغير هدوئي صار ذهني أكثر وضوحاً. شعرت بذلك عند القراءة ومراقبة تصرفات الغير. كان لدي شعور غريب، شعور بأني قايضت إدراكي البالي بإدراك كائنٍ جديد؛ أو شعور باكتساب حاسة جديدة.

ما اكتشفته عندما استرجعت أحاسيسي، هو أن الممرضين اعتادوا على تبادل التعليقات بحضور المرضى، بعض هذه التعليقات كان طبياً صرفاً وبعضها الآخر تهكمياً، وكانت كلّها تُلفظ بسرعة مع إيجاز واختصار. عندما كنت تحت تأثير الدواء الشيطاني، مرّ كل ذلك تحت أنفي دون أن أفهم أية كلمة، أما الآن فإنني أتمكن وببعض الجهد من فهمه. كنت أسمع أحياناً ألقاباً بذيئة تُلصق بالمرضى، أو اكتشافات مثيرة للقلق عن الحالة الصحية لهذا أو ذاك، أو رهانات للتسلية على مدى بقائه حياً، لكنني لم أكن أحرك ساكناً.

لا، لم يكن في رأسي أي مخطط! ولا أي مشروع للهرب، لا، لا شيء من هذا! كنت أحاول فقط استعادة وعيي والعودة قليلاً إلى ما كنت عليه لأتمكن من الإجابة عندما تناديني ابنتي.

آه، هناك شيء آخر. لقد قمت ببعض تمارين لتنشيط الذاكرة. ذات يوم، كنت أقرأ، وهذا ما بتّ أفعله أكثر فأكثر، رواية مغامرات قديمة مترجمة عن البولونية. كانت القصة محبوكة جيداً، لذا كنت أُسرع لمعرفة البقية وأقلب الصفحات بسرعة فائقة. وفجأة، رفعت رأسي ففوجئتُ بنظرة محيرة من إحدى المراقبات، لذا عدت إلى حالة البطء المعتادة. فقد أصبحت حركاتي نشيطة وعصبية وحيوية وقد لاحظت تلك المرأة ذلك. استمرت بالتحديق بي كأنها تتأكد مما شاهدته قبل أن تخبر الطبيب، فعدت إلى حركتي البطيئة لأقرأ المقطع مرتين، ومن هنا أتت فكرة حفظي جملاً كاملة عن ظهر قلب. لا أدري إن كان ذلك مفيداً «لإعادة تأهيلي العقلي» إلا أنه ساعدني على استعادة الثقة بقدراتي.

نعم، نعم، أنت تفهمني جيداً، كانت تلك المرأة ستخبر دوّاب لا لشيء إلّا لأني أقرأ بسرعة طبيعية!

الفكرة التي تسود في المصح هي أن المرضى جميعهم متوترون بالطبيعة وأنهم يكبتون نوبات عنيفة. طالما تتم «تهدئتهم» فهم غير خطرين. في حين أن كل حركة مفاجئة أو علامة هياج قد تكون فاتحة لنوبة.

إذاً، كان عليّ أن أبقى متحفظاً منتظراً ناديا أو إشارة منها.

أعتقد أنه لم تكن لدى ابنتي أمنية أغلى من تحريري، لكن بأية وسيلة سيتحقق ذلك؟ أن تتسلل إلى داخل سجني لتراني أمر، لكن أن تخرجني فهذا أمر آخر تماماً.

كانت فخورة لأنها أنجزت مهمتها بشكل جيد وخَدَعت مدير العيادة حتى النهاية، ولأنها استطاعت بأعجوبة تسليمي الرسالة بيدي والتحدث إليّ ومعانقتي. عانقتني كأنها تعانق رجلاً غريباً، بل أسوأ من ذلك، كانت مثل إنسان يمنح عناقاً لإنسان مزعج. لكن بالنسبة لنا، كانت قبلتنا الأولى، ها أنا أتكلم عنها وكأنني أتكلم عن حبيبتي! قبلتي الأولى لابنتي وقبلتي الوحيدة خلال عشرين عاماً! بقيتُ متأثراً بها مدة أسبوعين! والآن أيضاً عندما أستعيد تلك اللحظات...

اعذرني، أين كنت؟

آه، نعم، كنت أتحدث عن مشاريع ابنتي... كنت أقول إنها نجحت بزيارتها تماماً لدرجة اعتقادها أنها ستنجح بكل مايمكن أن تتجرأ عليه وأمضت الأسابيع التالية بوضع الخطط، الخطط الأكثر تهوراً... خطط الخطف! وتوصلت

بأفكارها إلى أن الخداع غير كاف ولابد من إيجاد وسائل أخرى. نعم الخطف! طفلتي المسكينة، كان قلبها يذهب برشدها!

من جديد عادت إلى برتران آملة أن تحظى بمساعدته ولم تكن قد التقته منذ عودتها. بدأت بوضعه في صورة تسللها للمصح ولقائها معي. في البداية أصغى إليها بانجذاب وإعجاب فقد رأى في حركاتها ونبرة صوتها، شباب كلارا وشبابي، لكن عندما شجعتها حماسته فأطلعته على مشاريعها الجديدة تجهم وجهه.

قال لها: «مافعلته حتى الآن يشرفك، ويمكنك الفخر به وأنا أيضاً، كصديق قديم لأهلك، لايمكنني منع نفسي من الإحساس ببعض الفخر، لكن انتبهي! ما قلته لي عن والدك يذكرني وبحزن بلقائي الأخير معه. لن أكون صديقاً إذا أخفيت عنك انطباعاتي الحقيقية عن قضية بهذه الخطورة: والدك مريض، يظهر مشاعره بحركات مؤثرة، من خلال الدموع لكنه عاجز عن القيام بأي شيء آخر، هل قال لك شيئاً؟»

«فقط شكراً! لكنه لم يكن يستطع قول أي شيء آخر لأن المدير يراقبنا كان عليه ألا يفتضح أمره!»

«هذا مايقوله عقلك كفتاة شابة مضحية وبطلة، لكن الحقيقة مختلفة. لقد رأيت والدك وأمضيت ثلاث ساعات بقربه. كان يمكنه الكلام دون الخوف من أي شيء. كان باستطاعته أن يقول لي: «خذني معك» كان باستطاعته الذهاب برفقتي ورفقة السفير ولن يكون أمام أخيه السيئ أي خيار

سوى أن يرضخ. لكن لا، لم يقل عصيان شيئاً. عدت إليه لحظة رحيلنا وكان لديه الوقت ليقول لي كل مايريده، كنا وحدنا ولم يقل شيئاً قط بل أخرج صورتك من جيبه فقط، حركة عاطفية ومؤثرة، لكنها حركة رجل مريض.

عندما رويت لك هذا المشهد وأنت أمامي فتاة في العشرين من عمرها لم تر أباها مطلقاً، تساقطت الدموع من عيني وكنتِ بالطبع، أكثر تأثراً مني بمئة مرة. أنت رائعة فقد ذهبت لرؤية والدك كي تعانقيه وتقولي له إنك لم تنسيه قط. هذا جيد وأصفق لك. أنت الابنة الصالحة لرفيقين رائعين. لكن أتت اللحظة التي ينبغي عليك فيها مواجهة الحقيقة كما هي. ذلك الرجل مريض، أكرر هذا. هذا محزن وغير عادل، لكنها الحقيقة. عندما رأيته في المرة الأخيرة، لم يكن هو نفسه. كان فقط قادراً على التعبير عن مشاعره عبر الدموع والعناق ولاشيء آخر، وبالتأكيد لن تغير الأعوام الستة عشر التي قضاها في ذلك المصح شيئاً في الأمر.

لا أريد التفكير بالمخاطر التي ستتعرضين لها عندما تضعين خطتك موضع التنفيذ، لن تخيفك المخاطر ولن تخيفني، ثقي بذلك أرجوك. لكن وبافتراض أن عملية الخطف ستجري بدقة وكما خططت لها، وبافتراض أنك توصلت لاقتلاع والدك من ذاك المصح، وأنهم لن يلقوا القبض عليه من جديد ويعيدونه إلى حبس أشد. سأوافق معك وأتخيل أنه سيصبح هنا خلال شهر، معنا في هذه الشقة جالساً في أريكته... ماذا سيحدث؟ سترين حاله على حقيقتها وستضطرين لأن تضعيه مرة ثانية في مؤسسة مختصة فهناك مشاكل طبية ونفسية وفيزيولوجية، لن يستطيع إخلاص ابنة وصديق حلها، وبذلك تخرجينه من مؤسسة

تعوّد عليها وعلى صداقاتها لتأسريه في أخرى قد يكون أهلها أقل لطفاً معه تحت سماء أكثر رمادية...»

خرجت ابنتي من زيارة برتران مستاءة ومتوعدة بالتصرف لوحدها مرة أخرى. لكن ما صممت عليه، تم خرقه فقد وجد الكلام الذي سمعته طريقاً إلى رأسها.

في اللحظة التي بدأت فيها أتسلق المنحدر متشبثاً بوعدها ألّا تتخلى عني تراجعت هي ـ ودون أن تعترف بذلك لنفسها كما أعتقد ـ عن الموضوع. ما كنت لأستطيع معرفة ذلك من موقعي. كنت مقتنعاً بأنها ستظهر من جديد يوماً ما، وعليّ أن أكون مستعداً.

عشت بانتظار عودة ناديا عدة سنوات، متسائلاً كل ليلة وقبل أن أنام، هل سأراها غداً وكيف ستتنكر وبالتواطؤ مع من.

لكن المستقبل الذي انتظرته مضى.

لا، لم تعد ابنتي لرؤيتي، ولا ألومها لذلك. ولِمَ تعود؟ لإنقاذي؟ لقد أنقذتني. لقد نطقت بالكلمات التي تشفي. كنت قد بدأت صعود المنحدر. إنني أتسلق جدران لجتي الداخلية ببطء، وأعارك نفسي بهدف التخلص من التشويش لتتضح الأمور وأستعيد ذاكرتي ورغباتي، وحتى لو اضطرني ذلك للمعاناة من إلحاحاتها المستمرة. أصبحت المعركة معركتي، معركتي وحدي.

كان عليّ قيادة تلك المعركة بحكمة مضاعفة، مستمراً بمراقبة رفاقي سيئي الحظ كي أقلد طرقهم وعاداتهم المستهجنة. فقد كنت أنتبه كل يوم أكثر، إلى أنه ما بين حالة الخدر وحالة اليقظة، لاشيء، حقيقة لا شيء، مشترك.

وهكذا عندما كنت أتحدث إلى نفسي، لم تكن سرعة الكلام فقط هي التي تتغير أو نبرة الصوت أو كلمة «أوه» التي اختفت، ذاك الكم الهائل من «أوه» الذي يمط الجمل والكلمات والقوافي، بل تعدلت أيضاً المفردات ـ بعض الكلمات تُنسى عندما تكون الرغبات التي تستحضرها مخدرة ـ وكل شيء، الكلام، النظر، طريقة التغضن أو عدم التغضن عند ابتلاع الطعام، والآلاف من التفاصيل الصغيرة تميز الإنسان الذي يبتلع كمية من المخدر كل صباح، عن الإنسان الذي يتظاهر بذلك.

وعلى الرغم من ذلك، لم أفكر بالهرب بتاتاً، لا، ليس بعد، فما استرجعته كان ثميناً بحيث لا أستطيع المجازفة فيه بحركة نافدة الصبر. ماذا؟ أختبئ في صندوق شاحنة نقل؟ أقفز من فوق الجدار وأركض أسرع من الحراس؟ لا، ما هكذا أحصل على فرصتي.

كنت أفكر بالرحيل كل يوم، والابتعاد عن المصح والذهاب إلى مكان آخر، نعم كنت آمل بذلك، لكن أن أقفز من فوق حاجز، لا، كنت أنتظر ابنتي.

تقول لي: وعندما لم تأتِ؟ سؤالك يحمل إجابته. لم يكن هناك وقت محدد لمجيئها. عندما ينتظر الإنسان بتوق كلما مر الوقت، كلما أقتنع بأن اليوم المنتظر يقترب. مضت سنة؟ لابأس، سيقول لنفسه بأنه كان يحتاج سنة للاستعداد. مضت سنتان؟ أصبح قدومها وشيكاً.

ثم إن مرور الوقت في المصح ليس كمروره في الخارج، لا أحد في الخارج يحسب الأيام كما تحسب على جدران السجن. لقد كنا جميعاً، هنا، محكومين بالمؤبد، مؤبد من الأيام المتشابهة فلماذا نحسب إذن؟

الليلة الأخيرة

كانت الحادية عشرة مساءً تقريباً أو الحادية عشرة والنصف، وكنا جائعين ونريد الاستراحة قليلاً، لذا نزلنا، أنا وعصيان، لتناول حساء البصل في مطعم يفتح ليلاً.

خلال الوجبة وفي دقيقة صمت سادت بيننا، أخرج من جيبه الداخلي، مفكرة قديمة من الجلد الأحمر، دقيقة وطويلة، من تلك المفكرات اللاتي تُغلق بلسان مذهب.

أعطاني إياها كي أتصفحها.

ـ هي أشياء وردت في رأسي وكتبتها في أيامي الأخيرة في المصح.

قلّبت صفحاتها وكانت أغلبها بيضاء، أما على بقية الصفحات فلم يكن هناك سوى سلسلة من الجمل الملقاة دون عنوان أو قافية أو علامات ترقيم. وبإذن منه نسخت منها هذه الأسطر.

أغلقوا أبواب الجنة ورائي ولم ألتفت نحوها.

عند قدميّ يستطيل ظلُّ قدميّ فوق دربي كله وحتى الجدار.

أسير فوق ظلي داخل أجفاني المغلقة مثل مراكب الدم فوق دروب الأناضول.

لدي ذكرى دارة أجمل، حجرها أمغر وزجاجها سراب.

في أذنيّ ضوضاء المدينة، ضوضاء بابل العذب.

فيما مضى فيما مضى على مشارف الصحراء في واحة الشعوب المغمورة.

فيما مضى فيما مضى سلالم السماء فيما مضى زمن نفاد الصبر فيما مضى المستقبل.

ثم عدنا مباشرة إلى غرفته بالفندق. كنّا كلانا منهكين، لكن ينقصنا الوقت وعلينا الوصول إلى آخر حلقات السلسلة.

قال لي مطمئناً: لم يبق عندي سوى القليل حتى نهاية القصة فقد وصلت إلى سنوات السبعينات.

كانت تجري في الخارج آنذاك، بعض الأحداث التي يصل ضجيجها إلينا. ضجيج، أريد القول، ضجيج الأسلحة، متفجرات، طلقات رشاش وأبواق سيارات الإسعاف.

لم تكن الحرب قد بدأت بعد، فلم يكن هناك سوى التراشق المنذر، وبعض فورات العنف التي أخذت تزداد صخباً وتقل تباعداً. ربما كان الناس في الخارج يدركون ما يحدث ربما، أما نحن فلم نسمع سوى الضجيج.

ذلك الضجيج كان يقلقنا. هل حدثتك عن ذلك المريض الذي يدعى «سكين»؟ لا أعتقد ذلك. من بين كل رفاقي السيئي الحظ، لم أذكر سوى لوبو كما أظن... كان سكين عكس لوبو تماماً فالأخير أكثر الكائنات لطفاً ومسالمةً. كان يعطيني الانطباع بأنه ترك نفسه يُحتجز لأن أهله أصروا على ذلك ولم يرغب بمعارضتهم. كان مقتنعاً بأن هذا العالم لم يخلق له أو أنه لم يخلق لهذا العالم أو أنه جاء مبكراً أو متأخراً أو في المكان غير الملائم أو عرضاً... وباختصار، عزل نفسه عن

العالم دون ضجيج ولم يطلب من الحياة سوى أن يتمكن من حين لآخر، الجلوس أمام البيانو.

لم تكن تلك حالة سكين. كان دخوله إلى المؤسسة قد تبع «مساراً» آخر إذا أمكنني قول ذلك: القتل. في أحد الأيام وخلال نوبة جنون، ركض في الشوارع حاملاً سكين جزار، فجرح عشرات المارة وقتل امرأة قبل أن يسيطروا عليه. واحتج محامي الدفاع بعدم مسؤولية موكله وأخذت المحكمة برأيه. فحُجز عدة أشهر في مؤسسة حكومية قبل أن تنجح عائلته بنقله إلى مؤسسة دوّاب النموذجية. أحياناً، عندما ترتجف شفتاه، يشعر المرء برغبة القتل التي تعتريه، لكن بفضل المهدئات ـ أعتقد أنهم كانوا يُعطونه كمية أكبر من الآخرين ـ كانت رغبته بالقتل تهمد.

أتكلم عنه الآن لأنه أظهر في ذلك الوقت، تصرفات مثيرة للقلق. لا، ليست عنيفة وإلّا كان الطبيب سيعرف كيف يعالج ذلك، بل كانت نوعاً من الابتهاج الصامت، فكلما سمع صوت تراشق ناري، بدا مسروراً كأنه يتلقى رسالة مرموزة من شريك، أو كأن العالم في الخارج اكتشف مقدراته بعد أن عامله بقسوة لمدة طويلة. كان سكين ضخم القامة ذا شعر أصهب خشن ورقبة ضخمة، وذقن بارزة، ويدين قويتين ترعبان الإنسان عندما يتخيلهما قابضتين على مِدية. لا أدري هل أصيب الآخرون بالقلق عند رؤيته يبتسم. في كل الأحوال كان المراقب مستيقظاً قربه منتظراً الإشارة الأولى للنوبة كي يوثقه، لكنه لم يتحرك بل اكتفى بالابتسام.

عندما حميت المعارك مقتربة من الناحية التي كنا فيها، دخل سكين في حالة من النشوة الدائمة بينما كان الباقون من المرضى كما من المعالجين يعيشون آنذاك رعباً من اجتياح

المصح في يوم ما. بُني المصح كحصن، جدرانه قوية وعالية بالإضافة إلى وجود أبراج للمراقبة على السطح، لذا قد ترغب كل واحدة من الميليشيات المجاورة، بتحويله إلى حصن أو مركز قيادة. كما يمكن لبعض الأرذال المسلحين أن يحاولوا بكل بساطة نهب المكان. ألا تخبئ تلك المغارة المليئة بالأغنياء المختلين، كنوزاً أو على الأقل خزنة مليئة ببعض الأشياء الثمينة؟ ولاستبعاد الخطر، كان دوّاب يدفع إلى زعماء المنطقة الصغار «الخوّة اللازمة».

أعتقد بانني قلت إنه لم يكن للنزلاء فكرة واضحة عما يجري «خارجاً» أو عن الناس في «الخارج»، وما كان يحدث حينها، يؤكد هذا الانطباع. وإذا كان سكين الوحيد الذي بدا منتصراً بيننا فقد كان كل واحدٍ منا يهز رأسه بإحباط كما لو كان يقول: «كنت أعرف أن الأمور ستؤول إلى هذه النهاية!»

كنت الوحيد المذعور بين المرضى، لسبب لايمكن أن يخطر على بال أحد سوى لوبو لأنني أطلعته عليه والذي حاول أن يطمئنني. كنت أخشى أن تسمع ناديا بما يحدث فتخاف على حياتي، وتعود من أجل تخليصي. لا، لم أكن أريد مجيئها، ما كنت أريدها أن تتعرض للخطر. لا، ليس قبل أن تهدأ الأمور.

أنا أعرف اليوم أنها لم تكن مهياة لأن تقوم بمثل تلك المغامرة، فقد تعرفت وقتها على شاب وتزوجته، ثم رحلت لتعيش معه في البرازيل. وفي الوقت الذي كنت أخشى فيه قيامها بعمل جنوني، كانت حاملاً في الجهة الأخرى من الأطلنطي. ثم عرفت منذ أيام قليلة فقط أنها قطعت عهداً على نفسها أن تسمي طفلها سواء كان صبياً أم بنتاً، باكو، بهذه الوسيلة أرادت تخليد ذكراي. أما الباقي، المغامرة البطولية

والقصص الخيالية فلم يعد لها مكان.

لحسن الحظ، بدت الأمور حول المصح تتفاقم. تلقت الميليشيات أسلحة أكثر دوياً، فلم نعد نستطيع النوم أو تناول الطعام أوالقراءة أو لعب الورق كما كنا نفعل من قبل. كنا نعيش وآذاننا على النوافذ، فكل قنبلة تسقط تجعلنا نصرخ ونرتجف.

ثم، ذات يوم، اختفى دوّاب. شاهدناه في فترة هدوء مؤقت يصعد إلى سيارته وينطلق مباشرة. أعتقد أنه كان قد أخبر مساعديه بذلك. إذ في المساء ذاته تبخر كل فريق العاملين. وقد قرروا ألاّ يقولوا شيئاً لنا نحن المرضى، ولا كلمة. يبدو أنهم اعتبرونا عبئاً كبيراً إذا أرادوا نقلنا، ولا يمكن توقع ردة فعلنا إذا أخبرونا الحقيقة. فتركونا بكل بساطة لحالنا.

وعندما انتبهنا للأمر كان الليل قد حلّ وعاد إطلاق النار. وإذا لم يهاجم المصح حتى الآن فذلك لأنه قائم في الأرض المنزوعة السلاح بين الميليشيتين المتحاربتين. وإن كانتا تتحاربان بهذه الشراسة فلأن كل واحدة منهما تنوي الاستيلاء عليه قبل الأخرى. كانت الأيام التالية مرعبة. كما كانت مرعبة أيضاً الاحتمالات التي يمكن حدوثها خلال النهار الذي سيبدأ دون تناول الدواء المشؤوم. مشؤوم لكن للأسف، لاغنى عنه. لم أكن أجرؤ على تخيل ما الذي سيحدث عندما سيدخل النزلاء المفطومون فجأة عن أدويتهم المهدئة في نوباتهم الواحد تلو الآخر.

سأذكر ماحييت تلك الليلة. كنا نجلس على شرفة ذات أعمدة صغيرة، في الطابق الأول، تلك الشرفة المخصصة عادة للطاقم الصحي، لكني جلست عليها برفقة لوبو ثم تبعنا الآخرون على التوالي يجرّون كراسيهم.

غرقنا في الظلمة بينما كانت الطلقات الخطّاطة تمر فوقنا. كانت صفراء اللون ثم حمراء ثم صفراء من جديد ثم خضراء، وكنا نتابعها بنظرنا. ومن حين إلى آخر، كانت تظهر أضواء ولمعانات تتبعها انفجارات. لم أكن أبعد نظري عن وجه سكين المبتهج متسائلاً: أي كائن متوحش سيكون غداً بدون الأدوية.

بقينا هنا، جالسين على كراسينا طوال الليل. كانوا في العادة، يأخذوننا للعشاء ثم نسهر قليلاً ليرافقوننا بعدها إلى غرفنا قبل إطفاء الأضواء. ولعدم وجود أي شخص يقول لنا ما نفعل، لم نفعل شيئاً. بل بقينا هناك، وكنا سنبقى إلى الأبد دون طعام أو نوم أو حركة.

ثم أشرقت الشمس من خلف الجبل ولم يكن اللمعان وحده الذي يتلاشى مع الضوء، بل الدوي أيضاً. وخلال دقائق قصيرة من الهدوء، كان المشهد خلاباً! كان يمكننا أن نرى بنظرة واحدةٍ الروابي والقرى والمدن البعيدة والساحل

والبحر الذي كان لونه لازوردياً خفيفاً مائلاً إلى البياض عند الفجر. لاشك أن ثمة منازل مهدمة في كل مكان حولنا، وجثثا مرمية في الطرقات وأعلاماً متسخة فوق الحواجز، لكن لم يكن بالإمكان رؤية شيءٍ من كل هذا بالعين المجردة، لاشيء سوى المساحة الشاسعة والهادئة من اللون الأزرق والأخضر وزقزقة العصافير.

وفجأة، سمعنا صوت فرقعة تلتها أخرى ثم أخرى، وتكرر ذلك وسيتكرر فيما بعد. نهضت وقلت بصوت مرتفع: «أنا راحل من هنا». ولم يعلق أحد، لكن سكين ابتسم ابتسامة أكثر وضوحاً. استدرت باتجاه لوبو سائلاً إياه بنظري، فنهض فقط ليربت على كتفي ويقول: «حظاً موفقاً» ثم أدار لي ظهره وتوجّه نحو الداخل. بعد عدة لحظات، كانت آلة البيانو تعزف كونشرتو من وارسو. عادت أصوات القصف المتواصل من جديد، لكنها لم تتفوق على صوت الموسيقى بل رافقتها.

ذهبت إلى غرفتي وجمعت بعض الأغراض، لم أكن أملك أية حقيبة لذلك وضعت في جيبي بعض الأوراق والنقود ومفكرتي وبعض الأدوية، ليس إلّا وذهبت.

سيراً على الأقدام، نعم. عبرت الباب الرئيسي ومشيت قدماً باتجاه العاصمة البعيدة خمسة عشر كيلو متراً. في الحالة الطبيعية لا أحد يفكر في قطع هذه الطريق على الأقدام، لكن لاشيء كان طبيعياً ذلك الصباح، لا أنا ولا الطريق ولا الناس ولا الظروف. مشيت، على سجيتي دون أن أسرع ولكن دون أن أتوقف أبداً، لم أكن أسمع شيئاً أو أرى شيئاً، بل أمشي ناظراً إلى مقدمة حذائي وإلى حجارة الشارع. وحيداً،

فلم يكن هناك مارة وبالتأكيد لا سيارات، حتى في الضواحي، كان الناس إما مرعوبين أو مازالوا نياماً.

كان طريقي يمر أمام منزل العائلة أو ما تبقى منه. دخلت وَجُلْتُ فيه ثم رحلت من جديد.

ـ انتظر!

(ترددت كثيراً قبل أن أفتح هذا القوس، لأني قطعت عهداً على نفسي أن أترك بطلي وحيداً على المسرح مع شخصياته التي يستحضرها. لكن بدا لي أني سأخون دوري إذا احتفظت حتى النهاية بالصمت حول الحدث التالي: في بداية حديثنا، نهار الخميس، عندما ذكر عصيان لأول مرة اسم أخيه جفلت لأني تذكرت خبراً قرأته منذ زمن، في مقالة صغيرة يقول: وُجِد أحد رجال الأعمال يدعى سالم كتابدار والذي كان وزيراً في الخمسينات، ميتاً تحت أنقاض منزله المبني فوق رابية متنازع عليها، قرب بيروت.

ولعدة مرات، أردت الحديث عن ذلك مع محاوري، لكني كنت أتراجع في كل مرة قائلاً لنفسي من الأفضل تركه يتكلم عن ذلك الحدث بنفسه خلال روايته، بدلاً من إجباره على استباق الحدث. كان لدي فضول لأعرف في أية لحظة أو بأية كلمات سيتحدث عن مصير منزله ومصير أخيه المكروه أو ما إذا كان لاختفائهما المتزامن علاقة ما مع رحيله عن البلاد.

وعند هذه النقطة من الرواية، لم يكن بالإمكان إرجاء الحديث عن ذلك، فراقبته. لكنه لم يتحدث عن دخوله إلى المنزل إلاّ بشكل سريع، وسريع جداً. كان يستعدّ لمتابعة حديثه فقاطعته.

ـ انتظر!

كنت محرجاً أكثر من أية لحظة أخرى خلال تلك الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية التي مرت عليّ برفقته. لم أكن أريد مباغتة الأمور ولاتغيير مجرى روايته بل أردت بقاء الحديث ضمن مجراه بشكل من الأشكال. ومع ذلك، لم أكن أحتمل صمته إلى الأبد فالوقت يمضي.

سألته:

- كيف وجدت منزلك؟

- مهدماً، لم تكن الجدران منهارة لكنها مسودة من النار ومليئة بفجوات.

- لم تبق طويلاً في الداخل.

- لا، قمت بجولة داخله وجمعت المفاتيح ثم رحلت.

- أية مفاتيح؟

- كل المفاتيح، انظر!

وأخرج من الخزانة محفظة كتب مدرسية قديمة وأفرغ محتواها على السرير. كان بالإمكان رؤية خمسين مفتاحاً - أقلت خمسين؟ ربما مئة أو مئتي مفتاح، نشرها فوق السرير. بعضها مربوط وبعضها مفرد. وبعضها فاخر الصنع يعود لزمن قديم كأنها منحوتات. لقد جمع مفاتيح الخزائن والصناديق والأدراج والأبواب الخارجية والداخلية، كما التقط المفاتيح الصدئة منذ أعوام طويلة والموضوعة ضمن صناديق من التنك. لم أكن أفهم ضرورة جمعها وحملها معه في تلك الرحلة، لكن فائدة «إنقاذها» كانت بالنسبة له مؤكدة، لذا فضلت عدم إزعاجه.

تدافعت الأسئلة في رأسي: لماذا لم يتحدث عن أخيه؟ ألم يشاهده ميتاً، أو غارقاً في دمه أو يُحتضر. هل كانت صورة بشعة جداً بحيث يدفعه حياؤه إلى نسيانها؟ هل يجهل ما

حصل له؟ هل من الممكن أن... يبدو الأمر بشعاً، لكن لأمانة الرواية التي أكتبها، من الواجب علي الإشارة إلى هذا التساؤل الذي ورد إلى رأسي: هل من الممكن أن يكون هذا الرجل الواقف أمامي، هو نفسه وخلال اقتحامه المنزل المهدم، قد ارتكب جريمة قتل أخيه؟

نظرت إليه عن قرب ودون خجل، متاملاً عينيه الصافيتين ويديه الناعمتين ورأسه الطفولي وشفتيه النديتين اللطيفتين. لم يكن يشبه قط رجلاً معذباً ولا رجلاً قادراً على أن يقتل ببرودة أعصاب. تفحصته جيداً فلم أرَ سوى النقاء والاستقامة. لاشيء يثير الشكوك إلاّ ربما ـ في الحالة القصوى ـ رعشة خفيفة في الوجه. ومن حين إلى آخر، بعض الشرود في نظراته التي لم أشر إليها دائماً. لاشيء غير عذاباته المديدة يقدر على شرح ذلك بما فيه الكفاية.

لا، لن أتهم أبداً هابيل بقتل قابيل! طردت كل تلك الأفكار الغامضة من رأسي بسرعة، فكل شيء كان يجعلني أعتقد أنه لايعرف شيئاً عما حدث لأخيه، لا أحد أخبره بذلك ولم يكن قد قرأ الصحف.

قلت لنفسي: لاتقل شيئاً، آملاً أنه لم ينتبه إلى اضطرابي. سألوم نفسي على تركه مع هذه الملاحظة الدنيئة...

لكن، لإراحة ضميري طرحت سؤالاً أخيراً:

هل وجدت أحداً في المنزل؟

لا أحد، تابعت طريقي).

على أطراف العاصمة كان يوجد مزيد من الحيوية. وصلت إلى ضاحية صاخبة لكن هادئة. كانت هادئة ذلك اليوم، على الأقل... وافقت إحدى سيارات الأجرة على نقلي

إلى السفارة الفرنسية، وهناك ذكرت اسم برتران، مفتاحي السحري، ففُتحت الأبواب أمامي وبدأت الأجهزة عملها. كنت في باريس في اليوم التالي وكنت موفقاً في ذلك، فصديقي يعدُّ نفسه للسفر إلى اليابان لمدة ثلاثة أسابيع، لكنه أجّل سفره ثمانية وأربعين ساعة لرؤيتي.

التقينا ويمكنني القول بأنه كان مرتبكاً قليلاً، مرتبكاً لأنه كان يعتبرني إنساناً ضائعاً، لاسيما أنه كتب عن ذلك إلى بعضهم وخاصة كلارا... لكن كيف يمكن لومه وكلُّ شيء كان يشير إلى أنّي كذلك؟ على أية حال، لا ألوم أحداً أبداً.

أمضيت مع برتران نهاراً طويلاً، نتحدث كسابق عهدنا. كان عليه أن يسافر مساءً فحاولنا استغلال تلك الساعات بأقصى ما نستطيع واسترجعنا الكثير من الأشياء. كلمني عن ناديا ومشاريعها وأحاديثها وزواجها وطفلها.

ثم أراد الحديث عن كلارا فقاطعته. لم أرغب بأن أعرف كيف عاشت أثناء غيابي مفترضاً أنها لم تكتفِ بالانتظار والانتحاب خلال ثمانية وعشرين عاماً. ولم أرغب سماع المسوغات المتعلقة بالظروف. أسماء وعناوين وأسماء عائلات. لقد أحببنا بعضنا يوماً ولم نكن سبباً للانفصال وليس لدي الوقت لأنظر خلفي.

طلبت من برتران إعطائي عنوان زوجتي فقط، وكتبت إليها طيلة يوم كامل، رويت لها كل ما جرى لي، كيف عشت وسقطت وكيف بفضل ناديا نهضت من جديد.

ثم حددت لها موعداً.

لم تجبني إذ لم أترك لها عنواناً لترد عليّ.

كان بإمكاني الاتصال بها، هذا صحيح، بيد أني ساكون متأثراً جداً على الهاتف، فلست متعوداً على ذلك، ثم بعد كل ما قالوه لها عن حالتي العقلية يمكنها أن تخطئ فهمي. لم أرغب أيضاً أن تجيبني بسرعة، ولم أكن واثقاً من قدرتي على سماع إجابتها بصوتها الحي سواء كانت إيجابية أم سلبية.

إذاً، حددتُ لها موعداً فقط، وفي أقرب وقت ممكن، تاركاً لها مهلة يمكنها المجيء خلالها. إذا قررت المجيء.

تساءلت في نفسي عن اليوم والمكان الذي يمكن اختياره. فكان الحل الذي طرح نفسه أمامي بوضوح هو استعادة موعدنا السابق وبكل بساطة: 20 حزيران، ظهراً، على ضفّة الساعة، بين البرجين.

نعم 20 حزيران، غداً.

لقد أتت في الموعد السابق فلم لا تأتي في هذا الموعد؟ ألا تعتقد ذلك؟

نهار الأحد

افترقنا عند الفجر متصافحين بحرارة وامتنان بمعنى أو بآخر. دون فكرة لقاء جديد ودون ذلك السؤال الذي كنت أنتظره: ما الذي سأفعله بهذه الملاحظات المكتوبة بسرعة والتي جمعتها في ست مفكرات؟ وكنت سأجيب إنني لاأعرف شيئاً بعد ـ كيف كنت سأكتشف أن قصته ستنام عشرين سنة داخل أحد ملفاتي؟ ـ لكنه لم يسألني شيئاً فقد كان معتاداً على سكب حياته خلال سيره في طريقه دون أن يتوقف أبداً لالتقاطها.

هل لاحظ أن نظرتي الأخيرة التي ألقيتها عليه، كانت قلقة؟ هل شك بما كنت أخطط للقيام به؟ أعتقد أنه كان مشغولاً جداً بموعده لدرجة أنه لم يعرني أدنى انتباه إضافي. لقد وجدت نفسي في طريقه ذات يوم تثاقلت فيه الساعات. فملأت فراغاً، وربما أشبعت بعض رغباته الخفية بكتابة حياته على الورق. في ذلك الوقت كان يرغب أن أتركه فغادرت غرفته في الفندق.

لم أكن فخوراً أو خجلاً مما قررت القيام به، لكن كان عليّ أن أقوم به وهذا كل شيء. ذهبت قبل الثانية عشرة بعدة دقائق إلى موعده، لا ليس إلى ضفّة الساعة بل قبالتها، على الضفة الأخرى لنهر السين. جلست في الطابق الأول لأحد المقاهي. ما الذي أستطيع فعله خلاف ذلك؟ إنها النهاية الحتمية للأيام السابقة. كنت أريد معرفة إن كانت تلك المرأة

موجودة حقاً، ماهو شكلها، هل ستأتي إلى الموعد وكيف سيكون لقاؤهما بعد ثمانية وعشرين عاماً.

هل قلت إني لم أكن فخوراً أو خجلاً؟ بلى، كنت خجلاً من شيء واحد على الأقل: حملت معي منظاراً مقرباً. كان لا بدّ منه. لا أدري ماذا يقول المرشدون عن عرض النهر في هذا الموقع. لكنني كنت قد تجولت عدة مرات، على ضفافه، فعرفت بأن الرؤية ليست سهلة من ضفة إلى أخرى. أن نتعرف على رجل يذهب ويجيء، إذا كنا نعرف سلفاً أنه سيأتي، وإذا التقطنا شكله ورأسه الأبيض ورقبته المائلة قليلاً فهذا أمر سهل، لكن أن نلاحظ وجهه وعينيه القلقتين وقبضته التي لا تتوقف عن التحرك، وأن نكتشف أنه يحمل باقة من المضعف(*) المتأخر عن فصله...

كان النهار ينتصف وفقاً لساعتي وكنت قلقاً. فلتأتِ وتبدأ حياة جديدة. مضت سنوات كثيرة، لكن الزمن وهم. فالماضي بساعاته وأيامه وأسابيعه وعقوده ليس أكثر من رماد. أما المستقبل فحتى لو استمر إلى اللانهاية يعاش لحظة بلحظة... فلتأتِ كلارا وقصتهما، التي تعثرت للحظة، ستمضي في طريقها.

لكن، وإذا لم تأتِ؟ أقلقني ذلك الاحتمال، فعصيان لايحيا إلا من أجل هذا الموعد. هل سأل نفسه ما الذي سيفعله إذا لم تأتِ في الساعة المحددة؟

بدأ الشك يراودني حيال الأسباب الحقيقية التي دفعته لاختيار المكان من أجل موعده. ذلك المنحدر والجسر القريب

(*) المضعف: زهر أبيض صغير ينبت في الغابات الرطبة ويزهر في الربيع يتبادل الفرنسيون تقديمه في أول أيار كعربون صداقة ومحبة.

وهذا النهر الذي تلقى خلال قرون، عدداً كبيراً من الوعود اليائسة.

كانت الثانية عشرة وثلاث دقائق حسب ساعتي. كلما رفعت منظاري كي أنظر عبره، تبادل الزوجان اللذان على الطاولة المجاورة، بعض الكلمات المشمئزة. لا أعرف ماذا يتخيلان، ما أفعله لا يعنيهما، ولكنهما يشعراني بالضيق. رجلي هناك، يتحرك، هذا ما أعطانيه من انطباع من بعيد، استدار حول نفسه مرتين أو ثلاث مرات ثم انحنى فوق النهر عند مرور أحد القوارب، بعض السياح على الجسر لوّحوا له ببعض الإشارات التي كانت موجهة إليه ربما، لكنه لم يجب عليها واستدار. لم أعد أرى وجهه وبدت لي أكتافه متهدلة.

تركت على الطاولة ثمن قهوتي وخرجت مسرعاً. قد لايكون مسروراً لرؤيتي، قد يخرج عن أدبه ليقول لي ألاّ أعرقل حياته. هذا لايمنع أنيّ وحتى إشعار آخر، صديقه الوحيد في تلك المدينة، أو على الأقل الشخص الوحيد الذي يهمه مصيره.

عند عبوري الجسر، ألقيت نظرة على الرجل الذي كان جامداً في مكانه، نظرت إلى ساعتي ثانيةً، كانت الثانية عشرة وتسع دقائق، فحثثت الخطى.

عند وصولي إلى منتصف الجسر، تجمدت في مكاني وحبست أنفاسي. كانت هناك امرأة أمامه، نحيلة وذات شعر رمادي، ترتدي ثوباً محتشماً. كان وجهها ضاحكاً وعيناها مسبلتين، أما هو فمايزال مطاطئ الرأس سانداً ظهره إلى حافة الجسر فلم يرَها. اقتربَتْ وتمتمتْ ببعض الكلمات، كما أعتقد، لأن عصيان رفع رأسه وذراعيه ببطء كجناحي عصفور لم يحلّق منذ زمن طويل.

وقفا الآن أمام بعضهما البعض، ملتصقين، أحنيا رأسيهما بالطريقة نفسها وبتناغم، كأنهما يوبخان القدر الذي فرقهما.

ضمّا بعضهما بقوة وأعتقد أنهما لم يقولا شيئاً بعد، إنهما يبكيان. شعرت بشفتيّ ترتجفان.

ثم ابتعدا قليلاً عن بعضهما دون أن ينفصلا. بقيت أيديهم الأربعة متشابكة إلا أنهما لايبتسمان. تبدو كلارا غارقة في شرح طويل وعصيان يصغي وهو منحن إلى الأمام وفمه مفتوح قليلاً. عن أي شيء تتكلم؟ ربما عن الماضي وكيف كان بدونه، ربما عن المستقبل، عن مستقبلهما سوية. ربما تشرح له أيضاً لآلاف الاعتبارات لماذا مازال حبهما مستحيلاً.

هل سيغادران ممسكين بأيدي بعضهما أم سيذهب كل منهما في طريقه؟ كنت أحاول الانتظار، أريد أن أعرف أكثر، لكن لا، هذا يكفي، يجب علي الابتعاد.

كان هناك أزواج من المارة يتوقفون وينظرون إليهما بنظرات حائرة ومشفقة. لم أستطع النظر إليهما بالطريقة نفسها، فانا لم أكن عابراً.



سلالم الشرق

«سلالم الشرق» اسم أطلق على عدد من المدن التجارية التي كان يصل عبرها مسافرو أوروبا إلى الشرق . من القسطنطينية إلى الاسكندرية مروراً بإزمير وأضنة أو بيروت . كانت تلك المدن ولفترة طويلة من الزمن أماكن امتزاج حيث كانت تختلط اللغات والعادات والتقاليد، أكوان عابرة صنعها التاريخ بهدوء ثم هدمها، مدمراً أثناء ذلك العديد من الحيوات.

بطل هذه الرواية، أوسيان، هو أحد أولئك الرجال ذوي الأقدار المتعرجة. من احتضار الامبراطورية العثمانية إلى الحربين العالميتين، وصولاً إلى المأساة التي ماتزال حتى اليوم تمزق الشرق الأدنى. لا تزن حياته أكثر من القليل من القش ضمن زوبعة. يستذكر وبصبر راوياً قصة طفولته الأميرية، وجدته المختلة عقلياً، ووالده الثوري، وأخيه الساقط، وإقامته في فرنسا تحت الاحتلال، ثم لقائه مع حبيبته اليهودية كلارا، متحدثاً عن لحظاتهم الحميمية والبطولية والحالمة، ثم سقوطه في الجحيم.

لقد أُبعد عن مستقبله وحُرم من حقوقه وأفراحه الأكثر بساطة، فماذا تبقى له؟ حب الانتظار، حب هادئ لكنه قوي، ولعله كان في النهاية أكثر قوة من الرواية ذاتها.